محمد ربيع

تاريخ آلهة مصر

رواية

التنوير

محمد ربيع

تاريخ آلهة مصر

رواية

دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع

جميع الحقوق محفوظة©

تنويه

كل الشخصيات والأحداث والأسماء في هذه الرواية خيالية، وأي تشابه بين أي منها وبين الواقع هو محض مصادفة.

مقدمة

ما الذي يدفع إلهًا مثلنا للقيام بعملٍ حقيرٍ كالكتابة؟

نتذكَّر جيدًا حدثًا مهمًا من فترة طفولتنا، كنا حينها نعيش مع والدينا وإخوتنا في منزل صغير بحي عريق من أحياء العاصمة. حرص أبونا على تعليق تماسيح صغيرة محنَّطة على جدران البيت، وزَّعها على الغرف وكأن الواحد منها شرط للعيش في المكان، كانت كلها تماسيح صغيرة إلا المعلَّق على جدار الصالة، كان أكبرها حجمًا، طوله يزيد قليلًا عن المترين وبطنه أعرض من بطون البقية كأنه كبيرهم. ربما كانت تلك عادة قديمة اكتسبها من سنوات طفولته البعيدة، تمتُّ بصلة إلى بلدته القديمة في الجنوب. وكما يتغيَّر كل شيء، بدأت ملامح التغيُّر في بيتنا المستقر عندما انتشرت رائحة كريهة في أحد الأيام، لم يدرك أبونا أو أمنا أو أحد إخوتنا مصدرها، نتذكَّرهم أثناء دورانهم في الشقة يتشمَّمون الأركان وما خلف الكراسي والأسرَّة وكل المواضع المختفية. وبالمصادفة اقترب أبونا من التمساح الأكبر المعلَّق على جدار الصالة ليكتشف أن الرائحة تنبعث منه.

أخذت عملية التعفن حتمية الحدوث تثير فكرنا منذ تلك الحادثة، تعجَّبنا لرغبة البشر في تخليد أي شيء حي، لم نفهم سبب الحفاظ على جثث تماسيح معلَّقة على جدران البيت، أيضًا لم نفهم ضرورة بذل العناء المتمثّل في

اصطياد تمساح ثم قتله ثم تحنيطه، والعملية الأخيرة لا بد أنها شاقة بالغة التعقيد. أكان أجدادنا يعبدون التماسيح؟ أكان الحفاظ عليها هكذا معلقة نوعًا من الإيمان بألوهية تمساح كبير هائل يطير في السماء؟ أم أن كل تمساح كان إلهًا على الأرض في وقت ما؟

نتذكَّر ونفكِّر اليوم، ونحن نكتب هذه المقدمة، في غضب أبينا وحزنه حينما علم بأن جثة التمساح قد بدأت تتعفن، غضبٌ كهذا لم يكن غضب جامع تحف تعرَّضت تحفته الأثيرة للتلف، بل - كما نظن - غضب عابد فوجئ بما يعبده وقد اعتراه الفساد.

بالطبع، لم يكن أبونا ليعلن قَطُّ عن عبادته لتمساح أجوف محنَّط، في ذلك الوقت كان عصر الظلام قد انتهى إلى الأبد منذ زمن بعيد جدًّا، وكان ضعاف النفوس - مثل أبينا وأمنا - لا يزالون متشبِّثين ببقايا الماضي السحيق ذاك، بتفاصيل عصر الظلام الكئيبة، حتى وإن لم يعيشوا في ذلك العصر قَطُّ، لكنهم ورثوا تلك التفاصيل بعد أن نُسيت أصولها مع مرور السنوات، ويبدو أن أبانا لم يدرك تمامًا أنه كان يعبد التمساح المعلق على الحائط، وأن غضبه ذاك ناتج عن تحطُّم صورة إلهه في عقله.

لم يشرح لنا أبونا سبب غضبه الشديد ومات بعد تلك الحادثة بأيام، ولذلك رأت أمنا أن موته مرتبط بشكل ما بتعفن التمساح، هذا الربط بين حادثين منفصلين، هو ربط

غامض غير مفهوم بالنسبة لنا الآن، لم يكن مفهومًا أيضًا حينما مات أبونا منذ سنوات عدَّة، لكن يبدو أن عائلتنا كلها كانت تحتفظ بتلك المفاهيم القديمة، الرابط الغامض ينتمي إلى ما سُمِّي في زمن بعيد جدًّا «الغيبيات»، وهي أشياء لم يدركها الناس ولم يفهموها ولم يجدوا أي دليل على وجودها، لكنهم آمنوا بها كقوى مؤثِّرة على حيواتهم. أمُّنا لم تكن تتكلم كثيرًا معنا، كانت تعاملنا على أننا طفل مع أننا كنا - حين مات أبونا - في الخامسة عشرة، لم تشرح لنا لم آمنت بعلاقة ما بين تعفُّن التمساح ووفاة أبينا، ثم انتهى كل شيء عندما كبرنا ودخلنا كلية الآداب وصار لنا قدر كبير من الاستقلالية.

لكننا لا نكتب مقدمة عمل أدبي يحوي ذكريات عن عائلتنا وحياتنا قبل الألوهية، بل مقدمة كتاب تاريخي.

فكرة هذا الكتاب جاءتنا عندما كنا لا نزال مؤرخًا إلهيًا في القصر الإلهي، ففي أحد الأيام البعيدة جدًّا كنا نتمشى بين زحام هائل من البشر في شارع **خيزو الأول** في قلب العاصمة الجديدة 9، عندما سقط تمثال **خايرو الفلاح** على الأرض وتحطَّم، ودفن عددًا صغيرًا من الناس تحته، ظننا حينها أنهم ماتوا جميعًا، لكن صرخات أحد المدفونين تحته أكدت عكس ما ظننا، تحرَّكنا مسرعين نحو موضع الحادث، ورأينا نصف الرجل السفلي عالقًا تحت حطام التمثال بينما نصفه العلوي ظاهر لنا، كان الرجل يصرخ وينطق بكلمات

مجنونة غاضبة؛ شتم الآلهة أقذع الشتائم، نطق بكلام لا يصحُّ أن يُقال أو يُعاد ذكره هنا، كُفريَّات صريحة بلا جدل، ولما رآنا هدأ قليلًا، وعندما اقتربنا منه لاحظنا عينيه تثبتان على الدبوس الإلهي الذهبي المثبت في عروة الجاكيت الخاص بنا، كان الدبوس علامة مميزة لكل من يعمل في القصر الإلهي، هدأ الرجل تمامًا، ثم قال لنا بصوت متحشرج يفتر رويدًا رويدًا إن المصريين لم يؤمنوا بتلك الآلهة قط، بل كانوا يسخرون منها طوال الوقت، وظلوا على إيمانهم بآلهتهم القديمة على الرغم من كل ما حدث، وإن يومًا سيأتي على المصريين فيكسرون خوفهم ويحطمون كل تلك التماثيل بأيديهم، قال أيضًا إن جميع المصريين لا يشعرون نحوهم سوى بالاحتقار. توقف الرجل عن الكلام فظننا أنه انتهى، لكنه بعد مدة قصيرة قال بصوت ضعيف إنه يقول لي ذلك لأنه يعلم أني لن أستطيع عقابه، وإن الموت هو التحرر الوحيد الممكن من مجموعة المجانين الذين يظنون أنفسهم آلهة، ثم أشار إلينا بسبابته إشارة ضعيفة وقال: «أنتم».

ولا بد أنه كان يقصد بما قال (أننا لن نستطيع عقابه)، أننا لن نبلغ عنه ونطلب اعتقاله ولن نشهد في المحكمة أننا سمعناه يقول تلك الكلمات، ولن نراه وهو مكبَّل بالحبال مثقَّل بصخرة يُرمى من قارب إلى قاع النيل. لقد كان دافعه لقول ذلك الكلام انعدام إيمانه بآلهة مصر، وبالتأكيد

كان هذا الرجل أحد المصريين القلائل - في وقته - المؤمنين بأحد آلهة عصر الظلام، الآلهة التي بذل أغلب المصريين أكبر مجهود للخلاص منها ونسيانها، وحتمًا كان كلامه الأخير مجرد هلاوس من شخص بائس لم يتمتع بحلاوة الإيمان بآلهة مصر، شخص حزين يعلم أنه سيموت خلال ثوانٍ.

في تلك اللحظة البعيدة، والرجل ممدد أمامنا ميتًا، تذكَّرنا أبانا وتماسيحه.

مضينا بعيدًا عن جثمان الرجل ونحن نفكر فيما يمكن فعله، كانت تماثيل الآلهة موزَّعة بحساب على جانبي الشارع، بالوقفة الإلهية الصحيحة؛ الرأس مرفوع يواجه الأفق، الجسد منتصب، الساقان مستقيمتان، الذراعان ملتصقتان بجانبي الجسد، الكتفان عريضتان والقبضتان مضمومتان. تأملنا التماثيل العديدة، أكثر من مئة تمثال للآلهة الأربعة. وفجأة، في ذلك الزمن البعيد، التمعت فكرة هذا الكتاب في رأسنا.

المصريون ينقصهم الإيمان الحق، قد يكون بعضهم مؤمنين بما سمَّاه أهل عصر الظلام «الأديان»، الشيء الذي ضيَّع البشرُ الكثير جدًّا من الوقت والمال والمجهود والأرواح للتمسُّك به، وضيَّعوا ما هو أكثر للخلاص منه. وللأسف، تسرَّبت بعض عقائد وطقوس تلك الأديان إلى المصريين عن طريق أجدادهم وآبائهم. قد تفكِّر أيها القارئ

أن المصريين نبت ضارٌ كافرٌ، لكننا لم نفكر مطلقًا في ذلك، فبعد كل ما قام به آلهة مصر لم يبقَ أي نبت ضار على أرض مصر.

نحن نكتب هذا الكتاب لتذكير المصريين بما حدث في عصر النور، ولنخبر باقي البشر بالأحداث نفسها، لكي نخرج جميع البشر من الظلام إلى النور، ولنعلمهم الإيمان الحق، ولندفعهم لاتباع طرق التفكير العقلانية البعيدة تمامًا عن الأساطير والغيبيات، التي ستقودهم حتمًا إلى الإيمان بآلهة مصر. نحن نسرد ونسجّل تاريخ آلهة مصر كي يعرف البشر أنهم أخطأوا كثيرًا، وأنهم ضلوا في الظلمات التي سمُّوها نورًا، وأنهم اعتنقوا أفكارًا مضحكة، وأنهم عبدوا آلهة اصطنعوها، أطلقوا عليها أسماء وأضافوا إليها صفات ووضعوا لها أشكالًا عديدة. نكتب لنؤكد أيضًا أن المصريين جميعًا عبروا ذلك العصر المظلم بعد خسائر كثيرة، فلا يمكن إحصاء ما خسره المصريون بسبب الإيمان بآلهة زائفة. نكتب لنؤكد أنهم جميعًا استجابوا لأول إله مصري أعلن ألوهيته وسطهم، من دون رسل أو أنبياء أو وسطاء، وأنهم منذ ذلك الحين يجاهدون يوميًا من أجل الإفلات من البقايا التافهة لعصر الظلام المقيت. إن هؤلاء الذين يعتنقون أديان عصر الظلام، لم يكونوا ليعرفوا معاناة المصريين قبل أن يعلن **خيزو الأول** نفسه إلهًا.

في ذلك اليوم البعيد أخذتنا الأفكار بعيدًا، كانت تماثيل

الآلهة خلفنا والناس أيضًا، كنا وحدنا تمامًا خارج العاصمة الجديدة 9، وتداعت آلاف الأفكار من مئات الكتب التي قرأناها، تاريخ كتبه مؤرِّخون مصريون، بشرٌ من هؤلاء الذين يمشون في الشوارع ولا يقيمون وزنًا لشيء إلا لآلهة مصر، مصريون كبقية المصريين لا يدركون إلا قليلًا مما يحدث حولهم. وكلَّما تذكرنا ما قرأنا من كتب وجدنا أنه رائع، بل مبهر، لكنه مشتَّت لعقل القارئ العادي ولا يمكن الإحاطة بكل ما فيه إحاطة تامة، بعيد تمام البعد عن التنظيم والترتيب، يليق تمامًا بعقول من كتبوه من المصريين الفوضويين، وكادت أن تختلط علينا بعض المعلومات، حينها لم نكن إلهًا بعدُ بل كنًا مؤرخًا إلهيًا فقط.

أثناء عودتنا إلى منزلنا، كتب عقلُنا كل شيء في عقلِنا، التاريخ كما حدث بالضبط منظمًا ومرتبًا ومتسلسلًا تسلسلًا زمنيًا، لم تكن هنالك شذرات مشتَّتة وغير منتظمة كما جاءتنا الأفكار قبل ساعات، بل كان كل شيء منظَّمًا، نظَّمه عقلنا وحده.

قد يندهش القارئ العادي لما في هذا الكتاب من تفاصيل ربما لم يكن يعلمها من قبل، وربما علمها ولم يفهمها حق الفهم، لكن عليه أن يتأكد أن هذا الكتاب هو الطريق الوحيد للإيمان الحق.

خِرِبْتو المطلق

خِيزو الأول
(صفر-123)

ذلك يوم بعيد جدًا، أول الزمان، حين أعلن **خيزو الأول** لحظة البداية وأكد أن ما قبله لم يكن تاريخًا من الأصل. وعلى الرغم من ذلك، لا بد من إشارة بسيطة إلى حياته قبل الألوهية، وقبل سرد أحداث ذلك اليوم العظيم الذي تغيَّرت فيه أرض مصر إلى الأبد.

مع غياب أي مراجع توثِّق سيرة **خيزو الأول** قبل ألوهيته، إلا إن هناك الكثير من الكلام المتناثر على ألسنة المصريين، شهادات شفهية يحمل معظمها الكثير من المبالغة، تجبر المؤرِّخ المحترف على نبذها والنظر إلى ما قد يستنتج منها. على أن ثمة شهادات قليلة جدًا ترتبط بالواقع حقًا، بلا خرافات أو أساطير أو حكايات مقتبسة من أديان عصر الظلام.

لا بد أن تنتبه أيها القارئ إلى غرابة ردود أفعال المصريين في ذلك الزمن البعيد، بل إلى شذوذها، وننبِّه إلى أن عليك أن تتذكَّر دائمًا أننا نسرد ما حدث في آخر سنوات عصر الظلام، قبل أن يعلن **خيزو الأول** نفسه إلهًا، وأن عليك ألَّا تقرأ بعين المتقزِّز الخائف، بل بعين السعيد لخروجه من الظلام إلى النور. كما نؤكد أن عليك أن تتفكَّر في أفعاله قبل ألوهيته، وأن ترى مقدار اتساقها مع المنطق الرياضياتي، وخضوعها التام للمنطق الإلهي، وسيدرك

القارئ الحصيف، كما أدرك الكثيرون قبله، أنه كان إلهًا قبل أن يعلن نفسه إلهًا، وهو إله مصر الوحيد الذي تمتع بتلك الصفة.

•••

نشأ **خيزو الأول** نشأة عادية تمامًا، طفلًا ثم شابًا يافعًا، كان طالبًا متوسطًا في كل شيء، درجاته متوسطة ومشاركاته في المدرسة متوسطة، كل شيء متوسط في حياته، وهو ما تعمَّد أن يظهره حتى يأتي الوقت المناسب لتأليه نفسه، ومع ذلك كان حريصًا تمامًا على أن يكون التأليه تدريجيًا من دون عجلة وإلا نفر المصريون منه، وأولى خطوات التأليه حدثت في يوم تخرُّجه في كلية الطيران المدني؛ أثناء جلوسه بين زملائه المتخرجين أمام المنصة حيث يجلس مدير الكلية إلى جانب كبار أساتذتها، وفي حضور العديد من الشخصيات المشهورة ورجال الدولة المصرية، خرج من بين زملائه ووقف في جانب القاعة، ثم فجأة طار في الهواء، وأخذ يحلق قليلًا حتى استقر في نقطة أعلى من الجميع، أعلى منتصف المنصة.

طفا هناك بثبات أدهش الجميع، كان المتخرجون يتقدمون لاستلام شهادات التخرج من مدير الكلية، **وخيزو الأول** ثابت في موضعه لا يتحرك مطلقًا. ثم أخذ رجال الدولة يتلون خطبهم الطويلة وهو لا يزال ثابتًا، وعند نهاية الحفل تشقلب ثلاث مرات في الهواء، ثم عاد بهدوء

إلى الأرض، وسار وسط زملائه الخارجين من القاعة.

لا بد أن أفكارًا كثيرة راودت رجال الدولة أثناء عودتهم إلى مكاتبهم في ذلك اليوم، في سياراتهم الفارهة ومئات الحرَّاس يحرسونهم، ربما ظنوا أن **خيزو الأول** استعان بتكنولوجيا جديدة طوَّرها أثناء دراسته الطيران المدني، وربما فكَّر بعضهم أنه متميِّز عن أقرانه بطريقة لا يدركونها. الأمر المؤكد أن الكثيرين طلبوا الاطلاع على ملفه الدراسي وملفه الأمني، وقام الكثيرون بفحص وقراءة وتحليل كل معلومة تخصه، وكانت النتيجة التي توصَّل إليها الجميع أنه رجل عادي تمامًا، واحد من آلاف الشباب في مصر ولا يميزه أي شيء، وازدادت الحيرة.

بعد تخرجه قاد **خيزو الأول** طائرات مدنية عديدة ومتنوعة، وقابل طيارين من جميع دول العالم، واشترك في تدريبات لقيادة أنواع جديدة من الطائرات، ودرس في كليات طيران مدني كثيرة في دول متعددة، وحاز شهادات ودرجات علمية وأوسمة ونياشين، باختصار كان مثالًا للطيار الذي عقد العزم على التفوق على الجميع، بكل صرامة وانضباط.

من ضمن الحكايات الأثيرة عندنا، والتي نحب أن نحكيها في أيام الصفاء للمحيطين بنا، ما قام به **خيزو الأول** قبل أن يعلن نفسه إلهًا بسنوات قليلة.

كنا في خضم حرب هائلة مع ظلاميي الأوروبا، وكان

الجيش المصري كعادته المستمرة منتصرًا على طول الخط، وأراد **خيزو الأول** - بصفته مواطنًا مصريًا أصيلًا - أن ينهي الحرب لأن تلك كانت إرادته، أخذت الحرب مسارًا نمطيًا مملًا بالنسبة له، لم يبدُ أن النصر بعيد، لكنه - الإله المستقبلي - ملَّ.

ركب سيارته الخاصة، واتجه إلى هنجر الطائرات المدنية في مطار القاهرة الدولي، وببساطة بالغة ركب طائرة استطلاع، وطائرة بوينج ثلاث سبعات، وطائرة هليكوبتر بمروحتين، دُهش مدير المطار وباقي الطيارين الذين رأوا المشهد، ولم يتمكن أحد منهم من فهم ما حدث، ثم انطلقت الطائرات الثلاث يطير بها **خيزو الأول** وحده نحو الأوروبا.

تقدَّمت طائرة الاستطلاع ترصد مكان الرئيس الظلامي الأوروبي، ووجدته في لحظة، وعندما برزت طائرة مقاتلة من الجيش الأوروبي، تقدم **خيزو الأول** بطائرته البوينج ثلاث سبعات وأسقطها، بعدها ظهرت ثلاثمئة طائرة مقاتلة، فأسقطها في ثلاث دقائق، ثم ثلاثة آلاف طائرة مقاتلة، فأسقطها في ثلاث دقائق.

ثم هبط **خيزو الأول** بالطائرات الثلاث في باحة قصر الرئيس الظلامي الأوروبي، وقاتل الحرس الرئاسي الظلامي الأوروبي وحده فقتل ثلاثمئة حارس في ثلاث دقائق، ثم ظهر ثلاثة آلاف حارس وأقاموا حائطًا دفاعيًا

حول القصر نفسه، فقتلهم في ثلاث دقائق.

ثم تقدم **خيزو الأول** لا يقاومه أحد نحو مكتب الرئيس الظلامي الأوروبي، ودخل المكتب فوجده مختبئًا خلف أحد الكراسي، تحرك ببطء نحوه ونظر إليه بقرف فقتله على الفور.

أقلع **خيزو الأول** بالطائرات الثلاث وأخذ يدمّر الدفاعات الأرضية بطائرته البوينج ثلاث سبعات، وبعدما دمرها جميعًا صارت أرض الظلاميين ساحة مفتوحة أمامه. فدمر ثلاثمئة مبنى في ثلاث دقائق، ثم دمر ثلاثة آلاف مبنى في ثلاث دقائق، وتابع الدمار فدمر ثلاثة ملايين مبنى في ثلاث دقائق.

عندما عاد **خيزو الأول** إلى أرض مصر، راكبًا الطائرات الثلاث، استقبله المصريون بالحبور والسعادة والفرح، وتعجبوا كثيرًا عندما رأوه يهبط بالطائرات الثلاث من دون أي مشقَّة، وتعجَّبوا أكثر عندما رأوه يترجَّل من الطائرات الثلاث ويسير بينهم بشكل عادي.

اشتهر **خيزو الأول** كثيرًا خصوصًا بعدما أعلن ظلاميو الأوروبا هزيمتهم وانتهاء الحرب، أحبه المصريون كثيرًا وهو أحبهم كثيرًا، وعندما رأى علامات المحبة بادية على وجه كل من يقابله أدرك أن مسؤولية هائلة تقع على عاتقه، نظر إلى أرض مصر فوجدها مليئة بالكذب واللامنطق والجهل والخرافات والغباء، الكثير جدًا من الغباء، فقرَّر أن

يغيِّر أرض مصر.

وهكذا بدأ **خيزو الأول** خطته، فأكثر من ظهوره في وسائل الإعلام بصفته البطل الطيار، وقام بعمل حوارات صحفية في كل الصحف، وكان يعلم أن الشعب يحب الممثلين والمغنِّين ولاعبي كرة القدم، فقرَّبهم منه وأقام حفلات ومآدب عامرة دعاهم لحضورها، حفلًا للمغنِّين، وثانيًا للممثلين، وثالثًا للاعبي كرة القدم، وامتلأت الصحف بصوره وهو يضحك ويمزح مع الممثلين، وصوره وهو يمسك الميكروفون وكأنه يوشك على الغناء منافسًا المغنِّين بطريقة رومانسية، وصوره وهو يرتدي الترنك الرياضي ويمارس الألعاب الرياضية الخارقة للطبيعة، فيما ينظر لاعبو كرة القدم إلى ما يفعله بذهول بالغ.

وهكذا صار **خيزو الأول** بعد شهور قليلة أشهر إنسان في مصر، يرى الناس صورته في كل جريدة وعلى كل شاشة، وازداد يقينهم رويدًا رويدًا بأن له دورًا كبيرًا في مستقبل مصر خلال الأيام القليلة المقبلة، وظهر الرئيس المصري الظلامي الأخير ضعيفًا مغمورًا تافهًا.

وحان الوقت.

أرسل **خيزو الأول** اثنين من حراسه الشخصيين إلى الرئيس الظلامي الأخير، فدخلا عليه حجرة نومه وهو نائم بعمق، لا يدرك أن على كتفيه مسؤولية جسيمة تُفقد أي بشريٍّ الرغبة في النوم، وقالا للرئيس الظلامي الأخير:

«ادعُ إلى انتخابات رئاسية مبكرة وإلَّا كان مصيرك الهلاك». واستجاب الجبان بسرعة، فظهر في التلفزيون مرتديًا البيجامة وأعلن عن انتخابات رئاسية مبكّرة خلال ستين يومًا.

وبالطبع، فاز **خيزو الأول** في الانتخابات، وصار بشكل رسمي رئيسًا لا ينقصه إلا مراسم تعيينه.

في يوم إعلان **خيزو الأول** رئيسًا، تجمَّع المصريون ليشاهدوا بأعينهم الحدث المهم، كان المصريون لا يزالون في آخر عصر الظلام، في اليوم الأخير منه، لم يعلم أحد أنه سيرى إلهه الأول، كانوا يظنون أنهم سيشاهدون طقوسًا ظلامية كافرة مجنونة، أُطلق قديمًا على هذه الطقوس «ترسيم الرئيس» أو «حلف اليمين الرئاسي» وأسماء أخرى كلها تلخِّص مقدار الكفر والجهل اللذين كانا يسيطران على مصر في ذلك الزمان البعيد[1].

أتى المصريون في ذلك اليوم ليشاهدوا «رئيسًا» جديدًا كعادتهم. لكن **خيزو الأول** كان يعد العدة لإخراجهم من الظلام إلى النور.

في حديقة القصر الرئاسي جلست مجموعة مختارة من المصريين في انتظار بدء المراسم، وخارج أسوار القصر تجمَّع عدد هائل يتابعون ما يحدث بداخله أيضًا. اقتضت المراسم في ذلك الوقت أن يقف **خيزو الأول** أمام عدد قليل من الحضور، يرتدون زيًا موحدًا، لا نعلم الآن إن كانوا

رجال دين أم قضاة أم أفرادًا من الشعب، لكن كان عليه أن يتلو جملًا محدَّدة مسبقًا بدقة، وأن يعلن انصياعه لكتابٍ يتبع أحد أديان عصر الظلام، ولإلهٍ آخر! وبعد كل هذا الذل يصبح رئيسًا حاكمًا لمصر.

لكن **خيزو الأول** فعل ما خالف ذلك تمامًا، عندما وقف الشهود الذين ارتدوا الزي الموحد استعدادًا لسلبه إرادته، اتجه هو نحو المنصة، ووقف دقيقة ينظر في الجمع أمامه، لم يرَ أحد عينيه بسبب نظارته السوداء التي كانت تخفيهما، تأمَّل الجالسين قليلًا، ثم فتح ذراعيه على اتساعهما، وظل هكذا لحظات، ثم قرَّر عبر الميكروفونات العديدة المثبتة أمامه، موجهًا كلمتيه للشهود الواقفين إلى جانبه، ولذوي الزي الموحَّد الواقفين أمامه، وللعشرات القاعدين في القاعة نفسها، وللآلاف المتجمعين خارج القصر، وللملايين في مصر كلها: «الآن صفر»، وعلى الفور صفق صفقة واحدة بكفَّيه أحدثت دويًا هائلًا، كان ذلك أوضح وأعلى صوت سمعه المصريون على مرِّ التاريخ.

على الفور مات كل الموجودين أمام **خيزو الأول**، وسقط معظم المنتظرين خارج القصر وقد أصيبوا بصدمة بالغة، كثيرون فقدوا السمع وظلوا لا يسمعون إلا تينك الكلمتين تترددان في عقولهم طيلة حيواتهم، لكن ما حدث لكل هؤلاء يظل حدثًا ضئيلًا - على عظمته - إذا ما قِيس بما حدث فيما بعد.

لقد أدرك الجميع أنهم يشاهدون إلهًا يقف بينهم، لم يخبرهم أحد بذلك، لم ينطق **خيزو الأول** بأي شيء، وفجأة قاموا بفعل ما اعتادوا عليه في عصر الظلام؛ سجدوا.

السجود كان علامة الانصياع والإيمان بالآلهة، وهو فعل غريب؛ ينحني الشخص ويطوي ركبتيه حتى تلامسان الأرض، ثم ينحني أكثر ليضع جبهته عليها في اتجاه إلهه، أو في الاتجاه الذي أمره به إلهه، والوضع على غرابته وشذوذه كان وضعًا معتادًا ومفهومًا في ذلك الزمن. لم يغضب **خيزو الأول** عندما علم أنهم قاموا بمثل ذاك الفعل المفرط في كفريته، كان يعلم تمام العلم أن المصريين لا يزالون يتخبَّطون في الظلام، وأنهم لم يُخطوا سوى خطوة واحدة خارجه، وأن النور الباهر يعميهم، لكنه كان عمًى مؤقَّتًا لا بد أن يزول، وما سجودهم له إلا جهل.

عندما تتابع أيها القارئ تسلسل الأحداث حتى تلك اللحظة في الزمن، لا بد أن يأخذك الفرح، وأن تنظر نظرة متفائلة إلى المستقبل، فالماضي المظلم الذي وصفناه للتو في سطور قليلة، سيتحول إلى مستقبل مبهر للمصريين والعالم خلال الصفحات الكثيرة القادمة. لقد كان رد الفعل مذهلًا، اختفى جميع مقدِّمي البرامج التلفزيونية من على مقاعدهم، كانوا يسجدون **لخيزو الأول** أمام عدسات الكاميرات، تحت مستوى عدسات الكاميرات. وانتبه

المشاهدون لذلك الفعل فسجدوا هم أيضًا جميعًا، القاعد في بيته سجد، والمتابع من خلال الشاشات الكبيرة التي ملأت الشوارع سجد، ومستمع الراديو سجد، الكل سجد في تلك اللحظة.

خلال الأيام التالية امتلأت الصحف وبرامج التلفزيون والإذاعة ببيانات الإيمان **بـخيزو الأول** إلهًا على مصر، حرص المصريون على إظهار عبوديتهم بكل شكل ممكن، وأبسط الأشكال كان الكلام عن إيمانهم في كل ساعة. يصف أحد الكُتّاب ما حدث حينها بقوله: «توحُّد نجميٌّ قد حدث بين الشعب المصري وإلهه»[2]. كما يرى المؤلف نفسه في كتاب آخر: «اشتاق المصريون إلى إله حقيقيٍّ بعد سنوات من الظلام»[3]. ويرى الدكتور عبخيزو كمال: «فهم المصريون أن الإله قريب منهم، فسعوا نحوه»[4]. وهو ما يشير إلى أن فكرة ألوهيته كانت حاضرة بالفعل في أذهان المصريين.

وحان وقت العمل.

قبل سنوات ألوهيته، كان **خيزو الأول** قد ألمَّ إلمامًا كاملًا بعقلية المصريين، وظهر له بوضوح حجم الخطأ الفادح الذي يعيشون فيه، ومنذ اليوم الأول عمل، دون بذل أي مجهود، لاستكمال الانتقال تدريجيًا إلى عصر النور، وعلينا أن نؤكد أنه كان يستطيع الانتقال من عصر إلى عصر في لحظة واحدة، لكنه قرَّر أن يقوم بذلك تدريجيًا لمنح

المصريين مثلًا أعلى.

بدأ **خيزو الأول** بإصلاح القوانين، فألغى الدستور والبرلمان والمحكمة الدستورية العليا[5]، وألغى جميع الانتخابات، فهي كلها شر مطلق، وألغى تسعة أعشار القوانين المصرية، واستنَّ قانون **خيزو الأول** الشهير، الذي لا زلنا نحترمه حتى اليوم: «مَن يفعل يُعاقَب».

واهتم بالدولة ونظامها، فاستنَّ قوانين تتيح له فصل أي موظف في الدولة، واختص الطيارين المدنيين السابقين بتسعة أعشار الوظائف. كان أثر هذا القرار على المصريين كبيرًا، فازدادت سلاسة النظام البيروقراطي المصري، وانتهت المعاملات الحكومية في أزمان قياسية. كما اهتم بالحكومة فألغى كل الوزارات، واحتفظ بوزير واحد يقوم بجميع المهام الموكلة إليه من طرفه، وهو ما أنهى أطماع الأفَّاقين في المناصب الحكومية، وقلل كثيرًا من الاختلاسات والسرقات التي كانت منتشرة قبل ألوهية **خيزو الأول**، ما أدى لاحتفاء المصريين به احتفاءً كبيرًا، وتوغُّل الإيمان به في قلوبهم.

كان **خيزو الأول** أقل الآلهة المصرية كلامًا، فلم ينطق سوى كلمتين فقط في العلن؛ «الآن صفر». وقد انتظر المصريون عبثًا خطبةً له ليتكلَّم فيسمعون صوته لكنه لم يفعل، والمفاجئ أنهم لم يروا أن هذا نقص فيه بل نوع من التميز، أدركوا ذلك رويدًا رويدًا، وكلما مر يوم من دون

خطبة تذكّر المصريون الكلمتين الخالدتين. وبالتأكيد، لم يفعل ذلك عبثًا، بل علم أن المصريين سيفكرون كثيرًا في كلمتيه الوحيدتين.

كان **خيزو الأول** حريصًا على إلغاء كل ما سبقه، وهو عمل حاول كل حكّام مصر القيام به من قبله لكنهم فشلوا. تروي الحكايات الشعبية أن حكام مصر في عصر الظلام كانوا معتادين على انتقاد أسلافهم، وإزالة أسمائهم من كتب التاريخ، وتظليل صورهم في الصحف والأفلام والكتب القديمة، كانوا يحاولون مسح أجزاء من التاريخ بطريقة أو بأخرى، لكن طرقهم هذه كانت دائمًا تبوء بالفشل.

كان النابه من حكام مصر يحاكم سلفه محاكمة معنوية، عن طريق انتقاد أفعاله علنًا من خلال وسائل الإعلام المختلفة، ومن خلال نشر عبارات محددة تنتقده وسط عامة المصريين بواسطة المخبرين ورجال الأمن، وانتقاد قوانينه وعصره من خلال الكتب - التي يبقى تأثيرها طويلًا - والأعمال السينمائية والمسرحية. إن النابه كان يفعل ذلك لغرضَين، أحدهما واضح بالطبع؛ إظهار مدى أهميته وقوّته ونشاطه مقارنة بسلفه، وثانيهما خفي؛ تخويف المصريين مما قد يفعله بهم، سيفكر المصريون حينما يرون حاكمًا يهاجم سلفه بضراوة: «ماذا سيفعل بنا إن عارضناه؟» ويبدو أن تلك كانت سياسة بالغة النجاح،

فالمصريون بطبعهم لا يحبون الاحتفاظ بذكريات تبعث على الاكتئاب في ذاكرتهم الجمعية، ويحرصون على إبدالها بذكريات تبعث على السعادة طوال الوقت. لذلك كانوا دائمًا يصدِّقون ما يخبرهم به الحاكم الجديد - عن اقتناع أو غير اقتناع - دون أدنى إحساس بالتناقض أو الدونية، الأكيد أن حب المصريين لأي حاكم كان يزداد كلما ازداد تنكيله بسلفه. كانت هناك تباينات ملحوظة في طريقة التنكيل من حاكم لآخر، بعض الحكّام كان ينكِّل بسلفه المباشر فقط، وبعضهم كان ينكل بالسلسفيل كله بلا تفرقة، ما جعل مؤرخًا مصريًّا يصف حكّام عصر الظلام بقوله: «كله متعاص»[(6)].

لكن **خيزو الأول** رأى غير ذلك، كان التنكيل بحكام عصر الظلام عملًا متوقَّعًا وعاديًا، وغير جدير بإله على الإطلاق، بينما كانت صفقته وإعلانه أن «الآن صفر» عملًا ألوهيًا تمامًا.

لقد قام **خيزو الأول** بإلغاء ما قبله بالكامل، قام بإلغاء عصر الظلام كله؛ منذ أول لحظة قرَّر المصريون فيها كتابة تاريخهم، وحتى اللحظة التي سبقت حرف الألف في كلمته الأولى «الآن». وهكذا أمر بفرم جميع الأوراق الموجودة في مصر، الكتب والمستندات والصحف والمجلات والعقود وسجلات الحكومة، كل ورقة كُتب عليها حرفٌ واحد فُرمت، وحُطمت اللوحات والتماثيل الفنية، واللافتات

الصغيرة على أبواب البيوت التي تحمل أسماء ساكنيها، ولافتات الأطباء على العيادات، واللافتات على الدكاكين والمستشفيات والشركات، واللافتات الإعلانية، وقطع الرخام على القبور التي تسجِّل أسماء من دُفن فيها، وقطع الرخام على واجهات المباني الحكومية التي تسجِّل تاريخ إنشائها، وأمر بهدم إنشاءات جميع الحكَّام قبله، وتحطيم جميع تماثيل الحكَّام المصريين قبله.

لكن تلك الخطة المعقدة والهائلة لم يتم تنفيذها بالكامل، فبسبب كسل وتقاعس بعض المصريين، وبسبب ضعف إيمان **بخيزو الأول** كان منتشرًا بين المصريين في السنوات الأولى من ألوهيته، تسرَّبت الكثير من نسخ الكتب قبل أن تصل إلى المفارم، كذلك نجت لوحات فنية وصحف ومستندات، وخلال السنوات التالية، وفي عصر ألوهية آلهة آخرين، انتشرت كتب عصر الظلام بشكل سري بين المصريين، باعها تجَّار بلا ضمير طلبًا للربح السهل والسريع، مع علمهم بأن تلك الكتب ستضر من يقرأها ضررًا هائلًا، وقامت مطابع لعينة بإعادة طبع تلك الكتب بغير ترخيص، فانتشرت انتشارًا هائلًا خصوصًا في عصر ألوهية **خايرو الفلَّاح**، وأثرت تلك الكتب أشد الأثر على المصريين جميعًا، ما سأوضِّحه بالتفصيل في فصول قادمة، لكن كل شيء له نهاية، حتى الشر.

خلال السنوات الأولى من عصر ألوهية **خيزو الأول**،

تبحَّر المفكرون المصريون في الشرح والتعليق على كلمتيه، لم تكن الكلمتان واضحتي المعنى بالطبع، وهو ما تم الاستدلال به على أنهما كلمتان إلهيتان، لكن مع ذلك كان من الضروري شرح دلالة الكلمتين للمصريين.

أول من اهتم بشرح معنى كلمتي **خيزو الأول** كان المقدِّم التلفزيوني عبخيزو البغدادي؛ في الاستوديو الخاص ببرنامجه المشهور، قاعدًا على كرسيه المعتاد، يناقش ويحاور ضيوفه الكرام بصوته الرخيم العميق ونبرته الهادئة وصلعته المنيرة، وبينما كان الحديث يدور حول ألوهية **خيزو الأول**، ومدى احترام الناس لإلههم الجديد، وغباء المصريين القليلين الذين لا يزالون مؤمنين بأديان عصر الظلام، قام البغدادي بعرض فيديو له وهو يعلن أن: «الآن صفر». ثم انتقلت الكاميرا على الفور للقطة واسعة تظهر البغدادي جالسًا مع ضيوفه، الكل صامت ينتظر بدء البغدادي الكلام، ولما طالت مدة صمته بدأ أحد الضيوف الحديث والحرج يبدو واضحًا على وجهه، لكنه صمت بعد ثوانٍ لأنه لم يجد ما يقول، واستمر صمت البغدادي غير المفهوم، إلى أن أخذ نفسًا عميقًا، وفجأة رفع راحتيه في مواجهة الجمهور وهز رأسه وقال: «خلاص».

في دراسته المهمة يقول الدكتور عبخيزو خليفة: «عبخيزو البغدادي لم يتكلَّم، بل تحرَّك لسانه بإرادة **خيزو الأول**»[(7)]. وقد اخترنا أن نسجِّل هنا هذا التفسير البسيط

المباشر لأنه أقرب الآراء إلى المنطق الرياضياتي. لقد كان لفرط إيجاز ودقة رأي الدكتور خليفة أبلغ الأثر على المحللين والمفكرين بعده، فلم يحاول أحد أن يجد تفسيرًا آخر، والحقيقة أن تفسيره السابق كان بحاجة إلى تفسير.

استمر حكم **خيزو الأول** سنوات عديدة، 123 سنة بالتحديد، استقر فيها الأمر في أرض مصر، وترك **خيزو الأول** الحرية للجميع، فاستن قانونًا يجبر المصريين على عبادته، لكنه سمح بإشراك آلهة آخرين معه كآلهة عصر الظلام. وهو ما يدل على ذكائه وفهمه لعقلية المصري الذي يخشى التغييرات العظيمة. لم يفعل **خيزو الأول** الكثير مقارنة بمن لحقه من آلهة، لكن من المهم جدًّا عدم إغفال تاريخه، فقد قام بالحركة البسيطة الأولى التي أدَّت إلى حركات أكبر في القرون اللاحقة.

---

(1) لإيضاح الصورة بشكل كامل، سنذكر نبذة قصيرة عن أديان عصر الظلام في فصل تالٍ.

(2) عبخيزو حافظ، *التنبؤ النجمي*، الطبعة السابعة والسبعون، دار الهلال.

(3) عبخيزو حافظ، *الألوهية الحقة*، الطبعة التاسعة بعد المائتين، دار الهلال.

(4) عبخيزو كمال، *الإله يمر من هنا*، الطبعة السادسة بعد المائة، دار المعارف.

(5) هذه تعبيرات كانت موجودة في عصر الظلام، سنشرح بعضها في مواضع تالية.

(6) عبخيزو زيزو، *التناص بين الواقع والأزمة*، دار منشية البكري للكتب التعليمية. و«متعاص» كلمة عامية في الأصل، لكنها أضيفت إلى المعجم بعد استخدامها في الكتاب المذكور. وفي عصر الإله **خللو الأعظم** اتخذت الكلمة دلالة أخرى أكثر وضوحًا، فقد سُن قانون يعاقب مرتكب جريمة العوصة بالرمي مقيدًا في النيل، وسنذكر كل هذا بالتفصيل في الفصل الخاص بالإله **خللو الأعظم**. جدير بالذكر أيضًا، أن أغنية شعبية اشتهرت كثيرًا ولسنوات عديدة، من تأليف وألحان المطرب عبخللو جرجير، تقول كلماتها: «كله متعاص من الأخمص للراس».

(7) عبخيزو خليفة، *السلم المزدوج*، دار التراجع.

خايرو الفلاح
(123-345)

قبل ألوهيته، تدرَّج **خايرو الفلاح** في المناصب الزراعية إلى أن تولى الإشراف على تنفيذ أكبر مشروع في العالم، وظل يشرف على تنفيذ هذا المشروع عشر سنوات حتى انتهى بالكامل، وحينها فقط أُحيل إلى التقاعد، المشروع - كما هو معروف للجميع - كان إنشاء أكبر مزرعة في العالم. مساحة المزرعة ثلاثة وعشرون ألف فدان، لا يمكن تخيُّل نبات يخرج من الأرض إلا زُرع ونُمِّي وأثمَر في تلك المزرعة، وكما هو معروف سُمِّيت أكبر مزرعة في العالم باسم «أكبر مزرعة في العالم».

خلال حياة **خايرو الفلاح** الزراعية، وبعد مزرعة «أكبر مزرعة في العالم»، قام بإنشاء ألف وخمسمئة وست وسبعين مزرعة في مصر، بإجمالي مساحة قدرها ثلاثة ملايين وتسعمئة وست وسبعون فدانًا. وهو إنجاز قلما يتحقَّق في الزراعة المصرية، بل قلما يتحقَّق في العالم كله. وفور إحالته إلى التقاعد، اختار قطعة أرض بكر لم تُزرع من قبل، في الصحراء، لا يحدُّها إلا الصحراء، وأقام سورًا حولها من أشجار الجزورين، وبعد سنتين فقط من العمل الدؤوب تحوَّلت الصحراء إلى مزرعته الخاصة الأثيرة، مزرعة «السعادة»(8).

في يوم شديد الحرارة، بينما كانت الشمس تدور في

السماء نحو الغرب، كان **خايرو الفلاح** يمشي في مزرعته، لم يكن يبحث عن خلل ما أو ضرر أصاب ما يزرعه، لم يكن أيضًا يمشي فيها كي يثير الحماسة في الفلاحين، أو يبحث عن أحدهم ليقتله، فقط كي يكون عبرة لغيره من الكسالى، بل كان يتأمَّل ما حوله، نظر إلى مزرعة السعادة وألمَّ بكل ما فيها بنظرة واحدة، مئات الفلاحين العاملين، وآلاف الفلاحين المستريحين من عناء اليوم الحار، وملايين النباتات والأشجار والشتلات، وتلال من الثمار، وجذور تمتد في باطن الأرض مسافات طويلة، وآلاف الأمتار المكعبة من الماء تنتقل من التربة إلى أوراق النباتات عبر الجذور والسيقان والفروع، وحبَّات لانهائية العدد من غبار الطلع تنتقل من زهرة إلى أخرى عبر الهواء أو النحلات النشيطات، رأى كونًا آخر يتحرَّك أمامه في لمحة واحدة، وهنا فقط أدرك أنه إله مصر.

فكرة طارئة واتت **خايرو الفلاح**، قال لمزرعة السعادة: «ليمُت الجميع»، ومن فوره مات كل حيّ في المزرعة، لا شيء يتنفَّس ولا شيء يحيا، سيطرت حالة السكون والصمت التي لا تختلف عن العدم إلا في وجود موجودات. وخطا خطوة أخرى فقال للمزرعة السعيدة: «لا تكوني»، فانتهت المزرعة من الوجود ذاته، ولم يبقَ إلا الرمل والصحراء، كأن المزرعة لم تكن قَطُّ. ثم قام بخطوته الأخيرة: «كوني بعد أن لم تكوني»، فعادت المزرعة وكل ما

فيها إلى الوجود، وأخذ كل حيٍّ يستيقظ من موته المؤقت ببطء.

انتبه الفلاحون والمهندسون الزراعيون وعلماء التربة والنباتات والنحلات والديدان والشرانق والبكتيريا إلى أنهم ماتوا ثم بُعثوا، لثوانٍ لم يدركوا كيف حدث هذا، وأراد **خايرو الفلاح** أن يعلمهم بمسؤوليته عما حدث فقال لكل واحد: «أنا إله مصر، أمَتُّكم ثم بعثتكم». سمع كل من في المزرعة ما قاله، سمعوه في قلوبهم وليس بآذانهم، وأُخذوا لأنهم كانوا يظنون أن آلهة مصر لا يمكن أن تمشي بينهم، وتتعرق وتأكل وتتجشأ وتنام وتشخ. لكنهم أخيرًا أيقنوا أنه إله مصر، وأن كل شيء على ما يرام.

ثم ركب حمارته البيضاء وقال لها: «تشك تشك تشك»، وفجأة استقرت الحمارة عند بوابة القصر الإلهي، دخل بها القصر من دون أن يتمكن أحد من الاعتراض، رآه الجميع لكن أحدًا لم يعترض، مشى **خايرو الفلاح** راكبًا حمارته حتى المكتب الإلهي، وبسعادة ربطها في مقبض الباب ثم دخل المكتب.

على الفور، طلب بثًا مباشرًا من التلفزيون المصري فجاء طاقم التصوير مسرعًا، وحالما دارت الكاميرا أعلن للمصريين جميعًا ألوهيته، وهكذا بدأ في تنفيذ رؤيته الواسعة ومهامه المتعددة إلهًا جديدًا لمصر. لم يكن المصريون حينها معتادين على تغيير الآلهة، وحالما رأوا

وجه **خايرو الفلاح** على شاشات التلفزيون يعلن نفسه إلهًا، تساءلوا للحظات عن مصير الإله السابق **خيزو الأول**، لكنهم كالمعتاد انشغلوا بمشاكلهم الخاصة، وكالمعتاد فكر كل مصري أن ليس له من الأمر شيء، فهؤلاء آلهة لا دخل له بهم، ثم كالمعتاد أعلن كل مصري الخضوع للإله الجديد، وكالمعتاد تابع حياته السعيدة التافهة.

رأى **خايرو الفلاح** أن النبات المصري أهم من المصري شخصيًا، وله في ذلك حكمة لا يمكن تجاهلها، وهي أن المصري يعيش أصلًا على النبات، ولولا النبات لما كان المصري موجودًا، والمصري عندما يموت ويُدفن في الأرض يتحلّل جسده ليكون غذاءً للنبات، وهكذا فالمصري عندما يأكل النبات فإنه يأكل نفسه أيضًا، لا يأكل نفسه بمعنى يأكل نفسه، بل يأكل ما كان جزءًا من نفسه وأصبح بعد ذلك جزءًا من النبات، نحن نعرف أن تلك فكرة يصعب على المصريين فهمها فلن نطيل الحديث عنها.

لذلك حرص **خايرو الفلاح** أشد الحرص على توضيح أهمية النبات للمصريين، واستن قانونًا يفرض على كل مصري أن يحمل معه دائمًا نباتًا أو ثمرة، واحترم المصريون هذا القانون بالذات، أكثر من احترامهم لباقي القوانين، وصار الواحد منهم يمشي في الشارع وهو يضع خلف أذنه وردة، أو بين أسنانه عود نعناع، أو في جيب قميصه بصلة خضراء، أو في يده ليمونة.

كما اهتم **خايرو الفلاح** بالزراعة، فاستن قانونًا يجبر كل مصري على زرع شجرة واحدة كل سنة، ثم استن قانونًا آخر يجبر المواطن على زرع شجرة واحدة كل سنة، وبهذا أصبح على كل مصري أن يزرع شجرتين كل سنة. كما رفض الصحراء وأعلن مرارًا أن الرمل مؤامرة أجنبية علينا التصدي لها بكل قوة، وأعلن أن إرادته ستقود المصريين إلى زرع كل شبر في أرض مصر، وانطلقت حملة هائلة لمقاومة الرمل تحت اسم «إلى الأمام يا فلّاح»، وصار الرمل شيئًا مكروهًا بالنسبة للجميع.

ومن أهم ما قام به **خايرو الفلاح** مقاومة رياح الخماسين، فاعتاد إعلان حالة التعبئة الفلاحية الكاملة بداية من أول شهر مارس وحتى نهاية شهر فبراير، تحسبًا لأي رياح خماسينية قد تهب على مصر. كما أنشأ سلاح المياه؛ ثلاثين مليون صهريج مياه، وعشرة ملايين مضخة مائية مزودة بمدفع عيار 122 ملم، ووزّع المدافع والصهاريج على أرض مصر كلها، ونجح سلاح المياه نجاحًا مبهرًا، فقاوم الخماسين برش المياه في الهواء، فيأخذ الرذاذُ الترابَ العالق في السماء ويهبط به إلى الأرض، ليصبح سمادًا يتغذى عليه النبات.

أشار عبخايرو محسن إلى فلسفة **خايرو الفلاح** الإلهية بقوله: «يحوّل **خايرو الفلاح** شر الرمل إلى خير لمصلحة النبات والأرض، ولو أراد لحوّل الرمل كله إلى جواهر وثمار

برتقال وتفاح في لحظة، لكنه يعلم أن المصريين بشر وليسوا آلهة مثله، لا يمكنهم فعل أي شيء في لحظة مثلما يفعل. وما فعله **خايرو الفلاح** مشهور ومعروف في عصر الظلام، فكان هناك ما سُمّي «الخيميائيون» وهم أشخاص قادرون على تحويل التراب إلى ذهب، ثم كان في ذلك الزمن المظلم من هم أقل منهم خبرة، واسمهم «الكيميائيون» وهؤلاء كانوا يحوِّلون أي شيء إلى أي شيء، لكنهم لم يستطيعوا تحويل التراب إلى ذهب»[(9)].

انتبه **خايرو الفلاح** لتلك الجملة الذكية في كتاب عبخايرو محسن، وقرَّر أن يقوم بذلك بالفعل؛ في صباح أحد الأيام شاهد المصريون حبات الرمل في أرض مصر كلها تتحول إلى برتقالات، تكبر الحبة أمام أعينهم وتتحوَّل إلى برتقالة برتقالية ناعمة ذات رائحة زكية، بينما كبر عدد قليل من حبات الرمل لتصبح جواهر لامعة زرقاء وبيضاء وأرجوانية، امتدت البرتقالات على مد البصر، تلال ووديان كاملة من البرتقال، وسهول برتقالية منبسطة لا عوار فيها ولا تضاريس، ونقلت عدسات الكاميرات صور جموعٍ هائلة من المصريين تجري على البرتقال بحبور وفرح عظيم، وصور مصريين يستلقون على البرتقالات في انسجام واسترخاء، وهم يأكلون برتقالة بعد برتقالة بقشرها، نعم بقشرها فالقشر كان لذيذًا. وأهمل المصريون الجواهر في ذلك اليوم، فلهم إله هو أكبر جوهرة.

لكن إرادة **خايرو الفلاح** أكبر من وعي المصريين، فقامت بتحويل البرتقالات والجواهر مرة أخرى إلى حبات رمل، وفهم المصريون ما يقصده، وفرحوا أكثر وأكثر.

ثم اهتم **خايرو الفلاح** بالمباني العالية، فأمر بهدم كل مبنى يعلو فوق الثلاثة طوابق، وكان يرى أن ما يبنيه المصريون غير جدير بأن يعلو فوق أي شجرة، ثم تشدد أكثر فأمر بألا يكون أي بناء في مصر أعلى من أي شجرة بجانبه، فاهتم المصريون بذلك وأخذوا يهدمون بيوتهم بأيديهم، ويهتمون بأشجارهم كي تتطاول في السماء فتعلو فوق البيوت.

لكن تأثير **خايرو الفلاح** لم يقتصر على سن القوانين الإلهية الخاصة بالفلاحة والنبات، بل توسَّع تأثيره كثيرًا حتى شمل عقيدة المصريين، فأخذت تتغيَّر ببطء شديد، كان يدفعهم إلى التفكير في أديان عصر الظلام، عالمًا بأن التغيير يجب أن يكون بطيئًا حتى وإن مر زمن طويل على نهاية عصر الظلام. لا بد من أن نذكّر بأن المصريين - حتى ذلك الحين - لم يكونوا قد خرجوا بعد من آفة أديان عصر الظلام وكانوا مرتبطين بها ارتباطًا شديدًا، وهنا ينبغي أن نقف قليلًا عند هذا الارتباط المثير للتعجب.

ذكرنا في فقرة سابقة أن إيمان المصريين بآلهة عصر الظلام وارتباطهم بأديانها قد قل كثيرًا، لكنه لم ينتهِ تمامًا، بل ظل منحوتًا في لاوعيهم، حتى زمن **خايرو الفلاح**

كانت التعبيرات اليومية المرتبطة بالأديان تُقال دون تفكير كثير في معناها، كان المصريون يقولون للواحد الذي يسألهم عن أحوالهم: «الحمد لله»، ويقولون للشخص المريض، أو الواصل من سفر: «حمدًا لله على السلامة»، حتى عندما يضحكون كثيرًا، كرد فعل على نكتة أو موقف مضحك، فإنهم يقولون: «اللهم اجعله خيرًا»[(10)]، تلك التعبيرات وغيرها كانت متوقَّعة في ظل الإيمان بأحد آلهة عصر الظلام، أما مع وجود آلهة مصرية واضحة ومحدَّدة، فإن استخدامها أصبح بلا قيمة.

أفعال **خايرو الفلاح** أدت إلى اشتعال نقاش مستمر بين المصريين حول الألوهية المصرية، وأيضًا حول آلهة وأديان عصر الظلام، لا بد من التذكير بأنه حتى تلك اللحظة كان من المتاح أن يؤمن المصري بما يريد، بشرط أن يؤمن بإله مصر في الوقت نفسه. كما ذكرنا، كانت تلك الأديان لا تزال حاضرة بقوة في لاوعي المصريين، على الرغم من ضعف حضورها عند الأجيال الشابة التي وُلدت وعاشت في زمن **خايرو الفلاح**. إحدى أكبر المشكلات التي واجهت من سَمُّوا «مزدوجي الإيمان» هي أن الأديان القديمة ترفض تمامًا أن يؤمن تابعوها بآلهة أخرى، سُمِّي ذلك «شِرك» بمعنى أن يعبد المصري إلهًا آخر مع إلهه الأصلي، وهو ما لم يعترض عليه **خيزو الأول** أو **خايرو الفلاح**، بالطبع كان هناك من كفَّ عن الإيمان تمامًا بأديان عصر الظلام، وآمن

بصدق بآلهة مصر، ملايين المصريين كانوا كذلك، لكن ولسبب لا تدركه إلا إرادة آلهة مصر، استمر السماح بتعدُّد الآلهة.

في عصر **خايرو الفلاح** برزت أسئلة كثيرة عن التناقضات المثيرة للضحك في أديان عصر الظلام، كذلك عن آلهة عصر الظلام المتعدِّدة والمتصارعة على الدوام، لم تكن تلك الآلهة تتصارع حقًّا فهي غير موجودة، لكن كان المؤمنون بها في صراع دائم، صراع لم ينتهِ بانتصار فريق على الآخر قَطُّ، وبدا أنه سيستمر إلى الأبد، كانت حجة المؤمنين الجدد واضحة تمامًا، قالوا إن **خيزو الأول** حلَّ تلك المشاكل عن طريق إلغاء التاريخ القديم، وقالوا إن كل ما سيأتي سيكون جديدًا خاليًا من أي تأثير ظلامي سابق، وإن ذاك الصراع القديم سينتهي عندما تدرك الأجيال الجديدة أن كل ما سبق كان زائفًا.

خايرو الفلاح هو أول من هدم - بالمنطق الإلهي - نظريات الأديان القديمة، ففي إحدى خطبه سأل الجمهور سؤالًا استنكاريًا: «إذا مات كل المؤمنين بإله قديم، فهل يبقى هذا الإله موجودًا؟»، قد يجيب المؤمنون بذاك الدين: «نعم»، لكن غير المؤمنين سيجيبون: «لا» بكل تأكيد. فمع العلم بأن أديان وآلهة عصر الظلام هي مجرَّد أفكار في عقول المؤمنين بها، بالتالي ستفنى كل تلك الأفكار في حالة غياب أصحابها. لم يكن في حاجة إلى هذا التوضيح،

بل استمر في التساؤل: «وإذا مات كل المؤمنين بي، الآن في هذه اللحظة، فهل أظل موجودًا؟». وليس لأي أحد أن يجيب عن السؤال إلا بـ«نعم». فهو حي موجود أمام الجميع، وألوهيته مثبتة بأفعاله وما أوجد من نباتات وأشجار. وحتى حين يفنى كل من يؤمن به، سيبقى هو وأشجاره.

في أواخر أيام **خايرو الفلاح** ازدادت أفعاله رقة وعاطفية وفكاهة، استيقظ المصريون في أحد الأيام ليجدوا أن زهورًا صفراء نبتت من وسائدهم، قطفوا الزهور وهم يشكرونه على تلك الهدية. وفي يوم شتوي ماطر انتبهوا إلى ثمار الفراولة التي أخذت تتساقط من السماء، قطرة ماء تنزل من السحاب تتبعها حبة فراولة، تتبعها قطرة ماء تتبعها حبة فراولة، ما أسعد المصريين سعادة جمَّة. كما اعتاد أن يردد كلمتين شهيرتين في كل خطبه قبل أن يخلق - بطريقة فكاهية - شجرة أو نبتة بالقرب منه، كان يتوقف عن الكلام فجأة وينظر للمصريين مبتسمًا، ثم يقول: «جَلا جَلا»، لتنمو على الفور وبسرعة هائلة شجرة إلى جانبه، محمَّلة بالثمار وبأوراق خضراء لامعة، أو لتنتشر الورود الحمراء على واجهات المباني المحيطة به بغزارة. وكما هي عادة المصريين، لا يدعون أي شيء يمر أمامهم دون تمحيص، حاول الكثيرون تفسير كلمتي «جلا جلا»، فقال البعض إن معناها «كن» أو

«انخلق»، وادَّعى البعض أنها كلمة بائدة قديمة، كان الخيميائيون يقولونها بصوت مرتفع قبل أن يحوِّلوا التراب إلى ذهب. كما ادَّعى البعض أنها كلمة بلغة **خايرو الفلاح**، لغة خاصة به وحده ولا يعرفها شخص غيره. لكن الحقيقة أن كلمة «جلا» بلا معنى على الإطلاق[(11)]، والكلمة نفسها، وافتقادها لأي معنى، أكبر دليل على ألوهية **خايرو الفلاح**.

---

(8) يُلقب **خايرو الفلاح** أيضًا بفيلسوف السعادة، ومن آرائه الفلسفية: «توقع الأفضل كي تكون سعيدًا، ولو حدث الأسوأ فتجاهله وتظاهر بأن الأفضل هو ما حدث، فتكون سعيدًا». وقال أيضًا: «السعادة هي أن تبتسم». وقال: «إذا ابتسمت فأنت سعيد». وقال: «أنا سعيد وأنت سعيد وهو سعيد وهي سعيد».

(9) عبخايرو محسن، *الإله* **خايرو الفلاح** *وأشجار البرتقال والجواهر المكنونة في المعنى الخيميائي*، دار الخيبة الخضراء للنشر. الطبعة السادسة والسبعون.

(10) اعتاد المصريون قول تلك الجملة لخوفهم من آلهة عصر الظلام، كانوا يعتقدون أنها تعاقب الضاحك، نظرًا لقسوتها المفرطة، بأن تسبب له الضرر إذا ضحك بشدة.

(11) انظر كتاب الدكتور عبخايرو عطا، *الاستبحس، شرح الغامض من كلام* **خايرو**، صفحة 11254، دار التردي، الطبعة الخامسة والستون بعد السبعمئة.

خُـخُّو الشاعر

(345-699)

يمكن بسهولة الإلمام باللحظة الأولى لألوهية **خُـخُّو الشاعر**.

كان **خُـخُّو الشاعر** شاعرًا يعيش في قرية صغيرة بعيدة عن العاصمة[(12)]، في الواحات الخارجة، هذا النوع من القرى يكون في العادة هادئًا وكل شيء فيه قليل - على عكس العاصمة - الناس والحيوانات والمباني وأيضًا المشاكل، لكن مع وفرة هائلة من النباتات والماء نظرًا لقلة العمران في ذلك المكان البعيد عن أماكن الكثافة السكانية. خرج **خُـخُّو الشاعر** من بيته قبل غروب الشمس بنصف ساعة، ورآها تغرب بين أشجار الغابة ببطء، وما أثار استغرابه أن النقطة المنيرة ظلت تناور شبكة الأغصان والجذور والأوراق، حتى وصلت أخيرًا إلى خط الأفق، لم يحجبها أي شيء عن عينيه. وفور غيابها قال بصوت خافت: «في قلب المتاهة تتجمّد الشوكولاتة».

وفي اللحظة التالية كان **خُـخُّو الشاعر** جالسًا على مكتب الإله في القصر الإلهي في العاصمة، كان أسرع إله يصل إلى ألوهية مصر على الإطلاق.

لم يكن هناك الكثير ليقوم به الإله الجديد، فالأمور على ما يرام في كل أنحاء مصر، نظر **خُـخُّو الشاعر** إلى أرض مصر ورآها تعيش أزهى عصور الرفاهية، لا شيء ينقص

المصريين، ولأنه إله فلم يرضَ بالنظرة الأولى، وألقى نظرة ثانية مدقِّقة فوجد شيئًا واحدًا ناقصًا: الشِّعر.

صُدم **خُخُو الشاعر** لغياب الشعر عن المصريين، وتذكَّر أن آخر قصيدة كتبها مصري كانت قصيدة «الاستهلال»، ولما تذكَّر القصيدة تأكد أنها ركيكة لا تمثِّل قوة وجمال الشعر المصري العريق، وربما كانت نهاية حقبة زاخرة بالشعر المتميز الطليعي، لذلك قرَّر أن يشعِر.

والشعر يختلف عن الكتابة، فكما كتبنا في المقدمة، الكتابة عمل حقير لا يصح لإله أن يفعله، فإذا فعله لم يضره، أما الشعر فهو عمل جدير بالآلهة، وإن فعله المصريون فسيرفع مقامهم من دون أن يصلوا إلى مراتب الآلهة.

بعدما أصبح إلهًا، على الفور ألقى **خُخُو الشاعر** القصيدة التالية: «الكراسي الزرقاء تطير في السماء الحمراء».

لم يمر وقت طويل حتى أدرك المصريون أن لديهم إلهًا جديدًا، وهو شاعر حسَّاس لن يشغل نفسه بالأشياء التي شغلت مَن قبله، لكنه سيشغل نفسه بالشعر فقط. وكانت قصيدته الثالثة أكبر دافع لهم، قال **خُخُو الشاعر**: «الشعراء في كل مكان».

بالطبع، كل قصائد **خخو الشاعر** على القدر نفسه من الأهمية، فلا يمكن لإنسان أن يدَّعي أن قصيدة تفضل الأخرى، لكن قصيدته الثالثة أثَّرت على الناس تأثيرًا هائلًا.

يقول الناقد الفني عبخـخو كريم: «لأول مرَّة يشعر المصري أنه قد يشبه إلهه بشكل ما، أنه قد يشعر مثل إلهه بالضبط، أن يقول كلامًا ويسميه «قصيدة»، وأن يفخر بما قاله ويمشي في الشوارع رافعًا رأسه بخطوات واسعة متقافزة وذراعين مرحتين»[13].

اهتم **خـخو الشاعر** باللغة العربية وأصلح ما فسد منها؛ فألغى المثنى والمؤنث وجمع المذكر السالم وجمع المؤنث السالم، وألغى كتابة التنوين بأشكاله الثلاثة وأبقى عليه منطوقًا، ونَصَبَ نائب الفاعل، ونصب المبتدأ، وأضاف إلى الأسماء الخمسة «عم»، و«جد»، و«ست»، و«خال»، و«بسكويت»، فأصبحت «الأسماء العشرة»، وألغى الرفع بالواو للأسماء العشرة وجعلها مرفوعة بالألف، وحرَّم تمامًا أن تنتهي أي كلمة بحرف الواو، فأضاف حرف الفاء لأي كلمة تنتهي بحرف الواو، وسمى حرف الواو المندمج مع الفاء «واوف»، وطبعًا استثنى أسماء الآلهة من ذلك التحريم.

أما قرار **خـخو الشاعر** الأهم فكان منع أن يُكتب كلام الآلهة في السطر نفسه مع كلام المصريين، وشدَّد على أن يُكتب في سطر مستقل، فكلام المصريين وكلام آلهتهم لا يجتمعان أبدًا[14].

واهتم **خـخو الشاعر** بالقصة، لأنها أقرب الأشياء من القصيدة، وأهمل الرواية وراقب الروائيين وحبس الكثيرين

منهم، وطالبهم بالتخلي عن كتابة «القذرة»، هكذا سماها فلم يكن يقبل بأن تُقال كلمة «رواية» أمامه، وطالب **خخو الشاعر** الروائيين بكتابة القصيدة، فكتب قصيدة مهمة في ذلك، قال: «الشعر أفضل من النثر».

وكان عصر **خخو الشاعر** عصر ازدهار في كل شيء له علاقة بالشعر؛ بِيعت ملايين النسخ من كل دواوين الشعر، فأصبح الشعراء أثرياء لأول مرة في التاريخ، وبِيعت الأقلام والورق بأسعار مرتفعة للغاية، فاغتنى تجَّار الأقلام والورق، وأنتجت شركات الأقلام أقلامًا من ذهب، تكتب بماء الذهب، وأنتجت شركات الورق صفحات صنعت من الذهب، فأصبح الشعراء يكتبون بأقلام من ذهب مليئة بماء الذهب على ورق من ذهب.

وأعلن **خخو الشاعر** عن جائزة امبراطور الشعراء، وجعل قيمة الجائزة كتابًا واحدًا فقط يهديه بنفسه للفائز، وفهم الناس أن قيمة الشعر ليست في المال أبدًا، وإنما في الجمال، وأنه قصد أن يجعل قيمة الجائزة المادية قليلة كي يلفت أنظار الناس إلى قيمة الشعر الحقيقية، وفهم الشعراء قصده بسرعة، فعادوا إلى الكتابة بأقلام الرصاص على ورق عادي، فارتفعت أسعار أقلام الرصاص والورق العادي، وقرر بعضهم أن يكتب أشعاره على التراب، فارتفع سعر التراب، وقرر البعض أن يكتب أشعاره على الماء، فارتفع سعر الماء.

لكن كل ما سبق لا يُقارن بإنجاز **خـخو الشاعر** الأكبر؛ في السنة التاسعة والعشرين بعد المئة من ألوهيته، أمر بتسجيل كل ما قاله وكتبه وسيقوله وسيكتبه آلهة مصر، كل ما صدر عن أيٍّ منهم، أمر بتسجيل كل هذا في كتابٍ سمَّاه «كتاب مصر». كما أمر أن يُنشر «كتاب مصر» في طبعات عديدة، وأن يُهدى إلى كل مولود، وكل عروسين، وكل طالب علم، وكل سيدة، وكل مسنٍّ، وكل موظَّف حكومي، وكل فلاح، ثلاث نسخ لكل فلاح، وكل عامل مصنع، وكل مبرمج كمبيوتر، وكل محاسب بنك، وكل بائع ملابس نسائية، وكل من يزور مصر، وكل من يخرج من مصر. ظل هذا الكتاب يُطبع طوال الوقت، حتى بعد زمن **خـخو الشاعر**، في زمننا هذا يمكن ببساطة أن يجد المصري طبعات عديدة منه، طبعات تحوي كلام الآلهة الثلاثة الأول، وطبعات تحوي كلام الآلهة الأربعة، وطبعات تحوي كلام الخمسة، وهي بالتأكيد التي بين يديك أيها القارئ الآن.

ينقسم كتاب مصر الآن إلى خمسة أجزاء، لكل إله مصري جزء خاص به، وما تقرأه أيها القارئ الآن هو الجزء الخامس والأخير، ولا بد أنك قد قرأتَ الأجزاء الأربعة الأولى: الجزء الأول خاص بالإله **خيزو الأول**، والثاني خاص **بـخايرو الفلاح**، والثالث **بـخـخو الشاعر**، وجزء رابع خاص **بـخللو الأعظم**، ثم الجزء الخامس الذي كتبناه نحن

ومنحناه عنوانًا فرعيًا: «تاريخ آلهة مصر»، وفيه، كما قرأت، نحكي تاريخ آلهة مصر حتى فترة ألوهيتنا، نحن الإله **خربتو المطلق**.

وربما كان دافع **خـخو الشاعر** كي يأمر بكتابة ونشر «كتاب مصر» مماثلًا لما دفعنا لكتابة «تاريخ آلهة مصر»، ألا وهو جهل المصريين بآلهتهم. فعلى سبيل المثال، قبل نشر «كتاب مصر»، لم يعرف الكثير من المصريين أن **خيزو الأول** ألغى التاريخ الذي سبقه بكلمتين فقط، ولم يعرفوا أنه لم يقل شيئًا سواهما، وتعجّبوا كثيرًا حينما رأوا كلمتين فقط في الفصل الأول من «كتاب مصر».

نُشر كلام الآلهة كثيرًا - قبل الأمر بنشر هذا الكتاب - في كتب وجرائد ومجلات، هنالك أيضًا التسجيلات الصوتية الكثيرة لكل ذلك الكلام، على الأقل كان هناك مصدرَان لكل كلمة قيلت، أحدهما صوتي والآخر مكتوب.

تم ترتيب الكلام حسب زمن النطق به، لم توضع أي فواصل بين كلام كل إله، بل دُوِّن الكلام متّصلًا، وقُسّم إلى فقرات فقط، تفصل بين كل خطبة وأخرى، أو بين كل جملة قيلت في مناسبة ما، وما قيل فيما بعدها مباشرة. قيل عن الكتاب بعد ذلك إنه الكتاب الكامل، على سبيل المثال كتب الدكتور عبخـخو فتحي: «في عصر الظلام، افتخر كل من آمن بأديان عصر الظلام بكتابٍ ما وعدّه كتابًا مقدسًا، حملت تلك الكتب أسماء عديدة، منها مثلًا

«القرآن» و«الإنجيل» و«التوراة» و«رأس المال» و«ثروة الأمم» و«الخنفساء» و«الشعر» و«التنبؤات» و«التأملات» و«الاعترافات» و«الطبخ» و«الزهرة الذهبية» و«الأنوار السبعة»، كما ظهرت كتب أخرى كثيرة تشرح كلًّا من تلك الكتب شروحات تتطوَّر مع مرور الوقت وتغيُّر وجهة نظر المؤمنين بالأديان، وادَّعت كل الكتب الشارحة بلا استثناء أن كتابها فقط هو الكتاب الكامل، وأن ما سواه تملأه الأخطاء وبه نقص أو خلل. كان ذلك سببًا من أسباب الصراع المستمر بين المصريين في عصر الظلام، وبين البشر بشكل عام. ونحن إذ نقول إن كتاب مصر كتاب كامل، فإننا لا نلحق بمتديني عصر الظلام في ادعائهم، فكتاب مصر بالفعل كتاب كامل دون حاجة إلى إثبات كماله، كما أن كتب أديان عصر الظلام ناقصة ومعيبة وهذه حقيقة لا ضرورة لإثباتها بالمنطق الرياضياتي، لأن لا سبيل لإثباتها إلا بالمنطق الإلهي، أما ما يضعه البعض من أسانيد ودلائل على كماله فمجهود ضائع»[15].

ولأن جمع كلام الآلهة أمر خطير، فقد جُمع بأكثر الطرق تعقيدًا، وأحبُّ أن أنقل هذه الفقرة الصغيرة التي تحكي الحكاية باختصار. في مقدمة كتابه «أصعدُ متروِيًا» يذكر الدكتور عبخـخو سليم، بعجالة، قصة جمع كتاب مصر، يقول: «لقد تم تكوين عدد غير معلوم من اللجان، بين التسع لجان والمئتين وأربع عشرة لجنة، وحوت كل لجنة

عددًا غير معلوم من الأعضاء، بين الخمسة أعضاء والستة وثلاثين عضوًا، ثم قام كل عضو على انفراد بجمع كلام الآلهة مرتبًا ترتيبًا زمنيًا بلا أي فواصل أو تبويب، من الصحف والمجلات والكتب وتسجيلات التلفزيون والإذاعة، ثم اجتمعت كل لجنة وقام أعضاؤها بمقارنة ما جمعه كل عضو منفردًا، فوجد أعضاء اللجنة الواحدة أن ما تم جمعه متطابق تمام التطابق، فجمعت كل لجنة ما دوّنه أعضاؤها في مسوّدة خاصة بها. وبعد ذلك اجتمع رؤساء اللجان كي يفعلوا الشيء نفسه مع المسوّدات كلها، فوجدوا أنها كلّها متطابقة تمام التطابق أيضًا، وأخيرًا قام رؤساء اللجان بجمع كلام الآلهة في مسوّدة واحدة(16)، أرسلت بعد ذلك إلى المطبعة».(17)

لم يكف **خخو الشاعر** عن الاهتمام بالشعر خلال فترة ألوهيته، وكتب آلاف القصائد، كلها منشورة في الجزء الخاص به من «كتاب مصر»، ما يدفعنا إلى عدم الإطالة وذكر بعض القصائد التي نراها مميزة.

لا يمكن نسيان القصيدة الشهيرة «رجلًا يمشي في الشارع وحيدًا»، وهي أكثر قصائد **خخو الشاعر** انتشارًا بين المصريين وتأثيرًا عليهم، اعتاد المصري أن يقول عندما يدخل إلى أي مكان: «رجلًا يمشي في الشارع...» فيرد الحاضرون جميعًا: «وحيدًا». كما استبدل المصريون القصيدة بالتحيات المعتادة مثل «صباح الخير» و«مساء

الخير»، وبالمعايدات مثل «كل عام وأنتم بخير». في البداية كان الناس يلقون القصيدة بحماسة كبيرة، ويرد الآخرون عليهم بحماسة أكبر، ومع الوقت خفَّت الحماسة كثيرًا، وأصبح إلقاء القصيدة أمرًا معتادًا تمامًا.

هناك أيضًا قصيدة لا بد من ذكرها، تُعَدُّ مثالًا واضحًا على المرحلة الميتافيزيقية **لخخو الشاعر** كشاعر، قال: «الأمر معقَّد».

وعلى قصرها إلا إنها قصيدة معقَّدة بالفعل، فقد كتب الدكتور عبخخو الأهواني كتابه «الكراسي الموسيقية» ليشرحها، رابطًا إياها بأديان عصر الظلام، ووضح بجلاء أنها تهدم كل ما ينتمي لذلك العصر، عن طريق ما سمَّاه «الحشو والتفريغ»، وأكد أنها تؤسِّس لعصر جديد من المجد، عن طريق ما سمَّاه «الإضاءات المنفردة والظلال المتداخلة». وكتاب الأهواني المذكور نُشر في مئة وثلاثة وأربعين جزءًا، أصغر الأجزاء مكون من ألف ومئتي صفحة وهو الجزء السادس، أما أكبرها فكان الجزء الثاني عشر بعد المئة وهو مكون من ثلاثة وأربعين ألف صفحة. والكتاب بمجمله مقرَّر على طلبة الصف الأول الابتدائي. من الممتع حقًّا أن يرى الإلهُ مصريين في السابعة من العمر يقرأون كتابًا بهذا الحجم ووجوههم تعلوها الابتسامات.

احتلت قصيدة «الأمر معقَّد» مكانة مرموقة وسط المصريين، وإذا كان المصريون قد اعتادوا على إظهار

الحماسة عند سماعهم قصيدة «رجلًا يمشي في الشارع وحيدًا»، إلا إن الأمر مختلف بالنسبة لقصيدة «الأمر معقَّد»، فحالما تُذكر القصيدة أو تُقرأ، يحل على السامعين شعور بالهيبة والوقار، وعلى الفور يتركون ما يشغلهم ويندمجون في رياضة فكرية عاصفة، فيسترخون في مقاعدهم، أو على الأرض، وحتى إن كانوا واقفين يسترخون، وينظرون إلى نقطة بعيدة في الأفق، ولا يعلم إلا **خخو الشاعر** ما يدور في أذهانهم في تلك اللحظات، فالأمر معقد حقًّا.

ثم انقطع **خخو الشاعر** عن إلقاء القصائد مدة طويلة، وكره الناس ما يحدث، فالحال العام في مصر لم يعد كما كان من قبل وأدمن المصريون قراءة الشعر الإلهي. بالطبع لم ينقص الانقطاع من مقدار وأهمية القصائد القديمة، لكنهم طلبوا الجديد ولم يجدوه. وأخذوا يتجمَّعون في الشوارع رويدًا رويدًا، مجموعة من خمسة أشخاص، ثم مجموعة من عشرة، وبعد ذلك مجموعات عديدة من مئة شخص تجمعت في الشوارع والميادين، وبدأ الهتاف خجولًا: «قصيدة جديدة!». ومع زيادة عدد المجموعات ازداد الهتاف حماسة وقوة، وفي يوم ما ملأ المصريون الشوارع وهم يكررون الهتاف نفسه.

امتلأت الصحف بالتحليلات والآراء، ففي عموده اليومي المعنون «ليه؟» كتب الناقد الفني أحمد شوكت: «الانهيار

النفسي على الأبواب.. الناس في حاجة إلى الإبداع بعدما غاب عنهم الفن.. التلوث البصري والسمعي قد يقود إلى الجنون.. القصيدة الإلهية لم تعد حكرًا على النخبة.. القرار في يد **خـخو الشاعر**.. حافظوا على مصر». (18)

وقرَّرت كل إذاعات البلد أن تذيع تسجيلات صوتية لقصائد **خـخو الشاعر** المتنوِّعة بصوته الجميل وفي الخلفية موسيقى خفيفة، وانتشرت بوسترات طُبعت عليها القصائد القديمة وفي الخلفية صورة للهرم والنيل وخريطة سيناء في اتحاد أبدي، وتطوَّرت أفعال المجموعات في الشوارع فأخذ الناس ينشدون القصائد القديمة ببهجة حقيقية. واندفعت السيدات في البيوت في البكاء حزينات، كانت الواحدة تقول حزينة: «أين القصائد؟» أو تقول وهي تمسح دموعها: «متى يعود الزمن الجميل؟». كان الناس ينتظرونه، وهو لم يخذلهم.

في أثناء افتتاح مصنع ورق جديد، وبينما كان **خـخو الشاعر** واقفًا أمام كاميرات التلفزيون يلقي كلمته على الهواء، فوجئ الجميع ببقعة خضراء صفراء ترتسم على كتفه اليمنى، ويبدو أن القوى الناتجة عن الاصطدام بكتفه كانت كافية، فمد يده بكل براءة ولمس فضلات الطير اللزجة، ثم رفع يده إلى عينيه وتمعَّن في الفضلات متعددة الألوان عدة ثوانٍ، ثم صرخ: «عندي قصيدة جديدة».

واهتزت الجماهير في الشوارع طربًا، وازداد عددها زيادة

هائلة، كان المصريون كلهم في الشوارع في هذا اليوم في انتظار قصيدة الإله **خـخو الشاعر** الجديدة، وبعد ساعات من الانتظار أعلن أنه سينزل بنفسه إلى المصريين.

وقف **خـخو الشاعر** بينهم طالبًا منهم أن يصمتوا، يبتسم في وجه أقربهم إليه ويطلب منه بهدوء أن يصمت كي يسمع، ثم يطلب كل واحد من الواقفين من جاره أن يصمت. لكن الصخب كان لا يُحتمل، فرحة الناس بوجوده وسطهم أصابتهم بالجنون، وحماستهم للقصيدة الجديدة التي ستُلقى عليهم بعد لحظات جعلتهم يرددون القصائد القديمة في صراخ هستيري لا ينقطع، وبعد محاولات عديدة منه، صمت الناس واحدًا بعد الآخر، حتى لم يعد يُسمع أي صوت في الشوارع.

رفع **خـخو الشاعر** سبابته، وقال بصوت رخيم: «الفزدق...».

لم يكمل **خـخو الشاعر** القصيدة قَطُّ، إذ إنه اختفى بعدما نطق تلك الكلمة على الفور، دون أي أثر، دون أي مقدمات، فقط اختفى من الوجود، اختفى أمام الجماهير المحبة له الشغوفة به، واستمر صمت الجماهير طويلًا، ولا بد أن الواقفين كانوا يريدون فهم ما حدث، أن يسمعوا تفسيرًا لهذا الاختفاء اللحظيّ المفاجئ، لا يملك المحب أن يسكت إن غاب عنه محبوبه، فما بالك أيها القارئ إن غاب عن المصريين إلههم؟

بعد ساعات، انفضَّ الناس من الشوارع، عاد كل منهم إلى عمله ومنزله وحياته، ولم يُعثر على **خخو الشاعر** قط.

بعد تحليلات كثيرة، تم التيقُّن من أن **خخو الشاعر** التحم في لحظة كونية مع المصريين، صار جزءًا منهم جميعًا، ومنذ تلك اللحظة وحتى اليوم، يكمن جزء صغير منه في كل مصري، حتى مَنْ لم يشهدوا اللحظة الكونية وكانوا في أماكن بعيدة، هؤلاء انتقل جزء منه إليهم عن طريق دورة النيتروجين في الطبيعة، حتى من وُلدوا بعد ذلك بسنوات انتقل جزء صغير منه إليهم عن طريق الجينات. لكن لا أحد يعرف كيف تم الانتقال الأول بالضبط، كان هذا سؤالًا بلا إجابة، وسيظل بلا إجابة، فأسرار آلهة مصر ليست معلنة ولن تُعلن، وحتى إن أُعلنت فلن يعيها أي مصري.

قدَّم **خخو الشاعر** إلى المصريين الشعر واللغة و«كتاب مصر»، ولم يكتفِ بهذه الإنجازات المعنوية العظيمة، بل قدم لهم نفسه في النهاية.

---

(12) قبل عصر العواصم الجدد كانت هناك عاصمة واحدة اسمها «القاهرة».

(13) عبخخو كريم، *قصيدة النثر الإلهية*، دار النصبخان.

(14) من الواضح أننا إله، ولا مانع من وضع اقتباسات الآلهة وسط كلامنا في كتابنا هذا.

(15) عبخخو فتحي، *الخط المستقيم*، دار الكلام الإلهي، الطبعة الأولى.

(16) من أغرب الأشياء، أن المسوَّدة الأخيرة كانت متطابقة تمام التطابق مع المسوَّدات السابقة. وهو أمر يؤكد أن الإله يحفظ كلامه الإلهي بطرق لا يفهمها البشر.

(17) عبخخو سليم، *أصعدُ مترويًا*، المكتب العلمي للأبحاث والنشر، الطبعة الثانية والخمسون.

(18) جريدة الأهرام، العدد رقم 15556612233.

مايتسمَّاش الكافر
(699-712)

قد يظن المصري أن كل شيء يمضي على ما يرام، قد يظن أن الحال في تحسن دائم، وأن مصير مصر إلى الأفضل، لكن حتى مع حكم الآلهة قد لا يتحقَّق ذلك، هذا شيء يدركه المصري بالتجربة وبتأمُّل ما يحدث حوله.

لم يكن هذا حال مصر في عصر الآلهة فقط، بل كان الأمر كذلك في عصر الظلام أيضًا، قد تمر سنوات رخاء، تتبعها سنوات جدب، وقد تمر سنوات سعيدة، تتبعها أخرى بائسة. والأسوأ أن تمر سنوات يبلغ السوء فيها القاع، وتتضافر كل الظروف والأحداث ليقع كل مصري في قبضة اليأس، كانت السنوات السوداء كثيرة جدًّا، حتى إن المصري اعتاد أن تكون معظم سنوات حياته سوداء مليئة بالمعاناة.

ومع عصر الآلهة ظن المصري أن السنوات السوداء انتهت إلى الأبد، وأن الحاضر أفضل من الماضي، وأن المستقبل أفضل من الحاضر. مر الزمن بداية من أول عصر **خيزو الأول** حتى آخر نهاية عصر **خخو الشاعر** والمصري يعيش سعيدًا مبتسمًا لا يشغل باله أيُّ همٍّ، سبعمئة سنة إلا سنة، عصر ذهبيٌّ حقًّا، تبعته سنوات قليلة حالكة السواد، عصر مايتسمَّاش الكافر.

لكن قبل أن نحكي حكاية هذا الكافر، يجب علينا أن نذكر القليل من المعلومات عن أديان عصر الظلام.

•••

تشعَّبت وتكاثرت وتداخلت أديان عصر الظلام، عصر ما قبل كلمتي «الآن صفر»، حتى أصبح التمييز بينها صعبًا للغاية، لكن يمكن أن نسرد بعض أسمائها هنا دون اهتمام كبير بوصفها أو شرح تفاصيل الإيمان بها، فمنها مثلًا: «الاشتراكية» و«الشيوعية» و«الأناركية» و«الرأسمالية» و«الإسلامية» و«المسيحية» و«اليهودية» و«البوذية» و«الدكتاتورية» و«الملكية» و«الديمقراطية» و«الملكية» و«الملكية العسكرية»، وأشهر تلك الأديان وأكثرها انتشارًا بين المصريين وغيرهم كان «الديمقراطية» و«الدكتاتورية» وهما دينان بلا آلهة، و«الإسلامية» و«المسيحية» وهما دينان ذوا آلهة، وإن غاب عنا كل الصفات الخاصة بآخر دينين، نظرًا للعمل الدؤوب الذي قام به آلهة مصر لمسح جميع الأديان من الذاكرة الجمعية للمصريين ومن التاريخ المصري، مع ذلك، حرص الآلهة على ترك بعض التفاصيل الخاصة بدين الديمقراطية، فقط ليعلم الجميع مدى الكفر الواضح في أديان عصر الظلام جميعًا.

الديمقراطية دين مبدأه الأساسي أن يحكم الشعب نفسه بنفسه، وتبدو الجملة السابقة بمثابة حكم إعدام على الفكرة نفسها، اللامنطقية واللارياضياتية، لكن مع ذلك انتشر ذلك الدين في كل أنحاء الأرض، وأدى إلى الكثير من

المصائب التي لا مجال لذكرها هنا[19]. وللأسف تسبَّب جهل وغباء المصريين في اعتناق الكثيرين منهم لذلك الدين الغريب، وطبَّقوا الديمقراطية بعد جدال طويل، إذ كان من بينهم قلة تدرك ما سيتسبَّب فيه ذلك الدين من مصائب.

في وقت ما، وبعد جهاد استمر قرونًا عديدة، انتهى المصريون لاختيار أشخاص محدَّدين يحكمونهم لمدد محدَّدة مسبقًا، عن طريق ما يُسمى «الانتخاب»؛ ففي وقت معلوم اعتاد المصريون أن يذهبوا إلى ما سُمِّي «المقار الانتخابية» ليختاروا حاكمًا من بين عدد قليل من المرشحين، يسمُّونه «رئيسًا»، ثم يذهبون ليختاروا مجموعة أخرى يُناط بها سن القوانين، يسمونها «مجلس الشعب»، أو «مجلس النواب»، أو «البرلمان». وبعد انتهاء المدة المحدَّدة لحكم الرئيس يذهبون مرة أخرى إلى المقار الانتخابية لاختيار رئيس آخر، وكأن اختيارهم الأول كان فاسدًا! وبعد انتهاء المدة المحددة للبرلمان يذهبون لاختيار أعضاء برلمان جدد، وكأن الأعضاء السابقين لم يقوموا بمهامهم بشكل جيد! وعملية الاختيار تلك (الانتخاب) كانت منظَّمة حقًّا، فكل مصري يتسلم ورقة من موظف حكومي مخصوص، ثم يشير بالقلم إلى الاسم الذي اختاره من بين أسماء عديدة، ثم يضع الورقة في صندوق مغلق، ويُنتظر حتى تمر ساعات اليوم المحدد للانتخابات، وفي

آخر اليوم يجتمع موظفون حكوميون مخصوصون، يقومون بإحصاء الأصوات الممنوحة لكل مرشح، ومن يحوز أكبر عدد من الأصوات يكون هو الفائز بالمنصب. ويبدو عوار النظام واضحًا تمامًا - مع اعترافنا بدقة التنظيم - لكن أحدًا من المصريين لم ينتبه لذلك العوار أثناء تصويته، ولا مجال لذكر هذا العوار هنا، فهو مفهوم من دون حاجة إلى شرح.

وتقوم الديمقراطية كذلك على مبدأ أن كل من حاز أكبر عدد من الأصوات هو إله بشكل ما ويحوز صفات إلهية، بينما تُوزَّع باقي أقسام الألوهية على الآخرين المنتخبين، وسُمِّيت الألوهية «سلطة»، وقُسِّمت السلطة نفسها إلى ثلاث سلطات: «سلطة تنفيذية» يُكلف بها الرئيس، وتقوم على التحكم في الحكومة والوزراء وإصدار قرارات بحدود معينة، و«سلطة تشريعية» يُكلف بها البرلمان، ولأعضائه الحق وحدهم في إصدار القوانين التي تتحرك على هديها السلطتان الأخريان، وسلطة ثالثة هي «السلطة القضائية»، وهذه لا يمثلها أشخاص منتخبون بل قضاة معيَّنون، يحكمون بين الناس طبقًا للقوانين التي أقرَّها البرلمان. كما قام دين الديمقراطية على مبدأ الفصل بين السلطات الثلاث، فلا يمكن للرئيس أن يصدر حكمًا على متهم، أو يحكم بين متخاصمين، كما يفعل القضاة، ولا يمكنه أن يسنَّ قانونًا كما يفعل البرلمان - إلا في حالات نادرة

واستثنائية - ولا يمكن لأعضاء البرلمان أن يفعلوا ما يُتاح للرئيس والقضاة، ولا يمكن للقضاة أن يقوموا بمهام الرئيس أو أعضاء البرلمان.

لا يمكننا إحصاء التناقضات الموجودة في نظام كهذا، فإذا تساءل المرء لِمَ لمْ يُنتخب القضاة أسوة بالرئيس وأعضاء البرلمان؟ لم يجد أي إجابة عن هذا السؤال. وإذا تساءل ماذا إن أصدر البرلمان قانونًا لا يستطيع الرئيس تنفيذه، لعدم اقتناعه به مثلًا، فهل يُجبر على تنفيذه بالقوة؟ لم يجد أي إجابة عن هذا السؤال أيضًا. وإذا تساءل أيمكن للقضاة الاعتراض على قانون وضعه البرلمان إن رأوا أنه غير منطقي؟ لم يجد أي إجابة عن هذا السؤال أيضًا.

كل ما سبق مثير للعجب، لكن المثير للضحك فعلًا، ولنتذكر مبدأ الفصل بين السلطات، أن من حق الرئيس المنتخب أن يحل البرلمان المنتخب، وكأنه لم ينعقد من الأصل، كما أن من حقه أن يعزل القضاة أو يقيلهم أو ينقلهم إلى وظائف تافهة، بعيدًا عن قاعات المحاكم، كذلك من حق القضاة أن يحاكموا الرئيس ببعض القوانين التي أصدرها البرلمان المنتخب، ومن حق البرلمان أن يسحب الثقة من الرئيس المنتخب نفسه ويعزله، بالإضافة إلى أفعال أخرى عديدة قد يقوم بها أفراد إحدى السلطات لإعاقة أفراد السلطتين الأخريين، وهو ما يحطّم المبدأ

الذي يقوم عليه دين الديمقراطية، ويكمل مأساة المصريين في ذلك الزمن البعيد.

يعجز أكثر المناطقة الرياضيين رخاوة عن أن يجد أي منطق أو رياضيات في كل ما سبق.

والأمر الغريب أن المصريين آمنوا بدين الديمقراطية سنوات طويلة، وقاموا بتطبيقه بإصرار غير مفهوم بالمرة، فاختاروا الرؤساء وأعضاء البرلمانات بلا أدنى تدبُّر أو تفكير في عبثية الفعل نفسه. ولا بد من الإشارة إلى أن بعض الرؤساء حينها كانوا على علم بمدى تفاهة ذلك الدين، فتحايلوا على كل ذلك حتى يحكموا مصر بوعي يقارب وعي إله[20].

جدير بالذكر أن المصريين اعتادوا الإيمان بدينين اثنين في وقت واحد، فآمن بعضهم بالديمقراطية والإسلامية معًا، أو بالدكتاتورية والمسيحية معًا، وهو أمر غير مفهوم أيضًا، خاصة مع غياب أي معلومات عن الديانات المسماة الدكتاتورية والإسلامية والمسيحية.

عندما نقرأ الفقرات القليلة السابقة مرة أخرى، ندرك تمامًا أي ظلام كان يعيش فيه المصريون، وأي نور خرجوا إليه ويعيشون فيه حتى اليوم، وأن كل هذا بفضل آلهة مصر وحدها.

•••

لا أحد يعرف الآن اسمه، على الرغم من أنه كان حريصًا

أثناء حياته على كتابته في صفحات كل جريدة وكتاب، وذكره في كل مناسبة عامة وخاصة. لكن بعدما تخلّص المصريون منه قرَّروا جميعًا أن ينسوا اسمه تمامًا، بل قرَّروا ألا يطلقوا عليه اسمًا آخر، وهكذا اختاروا أن يسمُّوه «مايتسمَّاش». ولأن أفعال مايتسمَّاش كلها لا يمكن وصفها إلا بالكُفريَّات الصريحة، فقد أضاف المصريون بعد ذلك إلى اسمه لقب «الكافر». وهكذا، بدلًا من أن نمحوَ تاريخه كما فعل **خيزو الأول** بتاريخ الظلام، قرَّرنا أن نكتب تاريخه كما نراه نحن، التاريخ الحقيقي لمايتسمَّاش الكافر.

البداية كانت مع مايتسمَّاش الكافر طفلًا وليدًا، صغير الحجم قليل الوزن هزيلًا ضعيفًا، حذَّر الأطباء أمه من إرضاعه، وقالوا إن الرضاعة الصناعية أفضل لها كثيرًا، والرضاعة الطبيعية ستضرها حتمًا وستهدِّد حياتها، لكن الأم الحنون لم تقتنع بكلام الأطباء، وقرَّرت إرضاع طفلها الضعيف، وكانت تلك بداية اللعنات؛ بعد شهرين فقط ماتت الأم لأن جسدها لم يتحمَّل كل هذا الإرهاق الناجم عن إرضاعه، بدأ الكافر أفعاله بقتل أمه، واستمر الكفر يشعُّ منه حتى نهاية حياته.

اعتاد رفاقه على إقصائه بعيدًا عنهم طوال الوقت، أثناء اللعب وأثناء الدراسة، في الشارع وفي المدرسة، كانت تلك فراسة الأطفال البريئة، هم أول من شعر بلعنته الملازمة له، لكن الطفل الفاسق لم يهتم لرفضهم وطردهم وغضبهم

المستمر، وكان يفسد ألعابهم ويفرض وجوده عليهم بصفاقة، كان يفهم تمامًا أنهم لا يريدونه وسطهم، وأن وجوده يوتِّرهم ويضايقهم، وكان هذا سببًا إضافيًا لكي يحشر نفسه وسطهم بسخافة لا تنتهي. اعتادوا جميعًا على ضربه ضربًا عنيفًا مبرحًا كي يرحل بعيدًا عنهم، وكان الطفل اللعين يرحل بالفعل في كل مرة، ثم يعود بعد أيام قليلة ليكرِّر ما استحق بسببه الضرب.

استمرت حياة مايتسمَّاش الكافر هكذا، لعينة من دون أي رحمة بما حوله، فتضرَّر الجميع خلال الخمس عشرة سنة الأولى من حياته، وعمَّ المرض والفقر والفشل أسرته كلها. على سبيل المثال، أصيب أبوه بشلل كامل عندما كان الطفل في الخامسة من العمر، وظل يتعذَّب راقدًا في فراشه ثلاثين سنة بعد ذلك إلى أن مات. في عمر الخامسة انتقل الطفل المنحوس إلى بيت عمه، وخلال سنتين أصاب المرض والفقر كل من يعيش في ذلك البيت، وفي السابعة انتقل إلى بيت خاله، بعد ثلاث سنوات احترق بيت خاله دون أن يعرف أحد السبب، وأصيب أفراد العائلة بحروق بالغة شوَّهت وجوههم، بينما لم يصب الطفل الألعن إلا بحروق طفيفة في جبهته وحاجبيه، مجرد آثار بسيطة غير مؤثرة، لكنها خلقت وجهًا جديدًا أكثر كفرًا مما كان عليه، وكأنها علامة اختارها لنفسه عامدًا متعمِّدًا كي يعلم الناس مقدار خبثه بمجرد النظر إلى وجهه.

انتقل بعدها إلى بيت جده لأمه، حينها كان الجد يدرك تمامًا أن هذا طفل لعين، في العاشرة من العمر لكنه مليء بالكفر والظلام، فاعتاد أن يضربه كل يوم بالعصا عند الاستيقاظ وقبل النوم، واعتاد الطفل كذلك أن يتلقى الضربات دون أن يبكي أو يتألم، كان الطفل ميتًا من الخارج كما كان ميتًا من الداخل. وكلما مرت السنوات ازداد عنف الجد، وازداد الكفر الكامن داخل الطفل المجنون.

ومع أن تصرفات الجد كلها كانت حميدة ومطلوبة، إلا أنه ارتكب أبشع خطأ في حياته عندما بلغ مايتسمَّاش الكافر سن السادسة عشرة، فبدلًا من أن يقتله قتلًا أو يذبحه ذبحًا، أرسله إلى كلية الحقوق في مدينة بعيدة، ظنًّا منه أنه يتخلص من الولد الشاذ إلى الأبد، لكنه في الحقيقة كان يضرُّ بمصلحة بلد كامل.

لا يمكننا إغفال ذكر حادثة غير شهيرة وقعت في السنة الأولى أثناء دراسته في كلية الحقوق، نسيها الكثيرون لأنها لم تبدُ مهمة في ذلك الحين، لكنها الآن توضح بجلاء أسباب كفر مايتسماش، ونعني بها قضية «خلية همبورجر». لقد تم إجراء تحقيق موسَّع مع خمسة وثلاثين طالبًا في الكلية، لم تكن هنالك تهم محدَّدة موجَّهة إلى أي منهم، فقط اقتصر التحقيق على أسئلة كثيرة حول مجموعة من الكتب اعتادوا قراءتها أثناء تناولهم

الهمبورجر، في ذلك الوقت كان هنالك ملايين الكتب في مصر بالطبع، فصناعة النشر كانت مزدهرة جدًا، لكن التحقيق تعلَّق بمجموعة الكتب التي أفلتت من المنع في عصور الآلهة، ونعني بذلك كتب عصر الظلام.

تنوَّعت مواضيع مجموعة الكتب بين الفلسفة والدين والأدب والعلم، في أثناء التحقيق أنكر كل طالب أن يكون قد تأثَّر بما قرأ في تلك الكتب، بعضهم قالوا إنهم قرأوها فقط ليزجوا الوقت، وادعوا أن ما يُكتب اليوم رديء للغاية، وأن تلك الكتب القديمة، على أفكارها الكاذبة، مكتوبة بأساليب شديدة البلاغة والعذوبة. لاقى هذا الرد استحسانًا لدى المحقِّقين، ووافق رأيهم المتعلق بكتَّاب عصرهم السيئين، فصرفوا من قال ذلك بلا حساب. بينما قال آخرون إنهم كانوا يرغبون في معرفة الأفكار التي كانت سائدة في عصر الظلام فقط، كي يتنبَّهوا لها إذا تكرَّر ذكرها أمامهم. والحق أن تلك الأفكار الظلامية كانت منتشرة فعلًا بين الناس، لكنها اتخذت صورًا جديدة مختلفة عن صورها الأصلية؛ تحتفظ الفكرة بقلبها الحي، وبالتالي بشرِّها المطلق، بينما يتغيَّر شكلها الخارجي، وطريقة شرحها، واسم من يردِّدها ويشرحها، كل ذلك في كتاب حديث. لقد تسلَّلت تلك الأفكار البغيضة عمدًا بأقلام الكتَّاب الكفَّار إلى الناس، وكان من الجدير بالطلاب القانونيين أن ينتبهوا إلى ذلك الشر، لذلك كان رد

المجموعة الثانية من الطلاب مفهومًا.

كان مايتسمَّاش الكافر أحد أعضاء المجموعة الثانية من خلية همبورجر، ادَّعى - مثلهم تمامًا - أنه قرأ تلك الكتب لكي يميز الخير من الشر، لكنه لم يكن يريد في الحقيقة إلا الشر. ولأن عدد الطلاب كان كبيرًا، لم يلتفت أحد من المحقِّقين إلى كل ما قيل في التحقيق، ولم يروا أن أيًا من الطلبة يكذب، لِمَ يكذب طالب قانون أصلًا؟ لكننا الآن نعلم تمام العلم أن الخبيث كان كاذبًا.

لم يكن مايتسمَّاش الكافر متفوِّقًا في دراسته، يجلس دائمًا في الصفوف الخلفية في المحاضرات، يحصل على أقل الدرجات، يعادي جميع زملائه، يكره كل من حوله وكلهم يكرهونه أيضًا، وحالما تخرَّج من كلية الحقوق تنفس أساتذته الصعداء، لكنهم لم يعرفوا أن كابوسهم الخاص انتهى، فقط ليبدأ كابوس بلد كامل بعد سنوات قليلة.

بالطبع، شخص كهذا لم يكن ليعمل في مهنة خطيرة كالمحاماة قَطُّ، بل عمل في أعمال البناء ولصق السيراميك ودهان الحوائط، واستمر سنوات في هذه المهن البسيطة، ومع بساطتها لم يتقنها بل ظل مجرد مساعد للصنايعية المحترفين ولم يتعد تلك المكانة قَطُّ.

تفوُّقه الوحيد تحقق في مهنة أشد بساطة من كل ما سبق، لقد أعجب به مدير شركة المقاولات التي يعمل فيها

عندما شاهده وهو ينظف زجاج نافذة مكتبه، يرش الزجاج بالجلانس، ثم يكرمش ورقة من إحدى صحف الأمس ويبدأ بمسح الجلانس مزيلًا التراب وآثار الأوساخ، ثم يعيد العملية كلها حتى يصير الزجاج نظيفًا تمامًا، يا له من عمل تافه حقًّا.

ولشدة مهارته قرر مدير الشركة أن يجعله منظف الشركة الأول، يشرف على نظافة المكاتب كلها وينظف بنفسه زجاج نوافذها، وأخيرًا وجد الرجل الفاشل مهنة نجح في أدائها، كان يقوم بها بحب وتقدير لنفسه لم يشعر بهما قط من قبل، يتأمل الجلانس وهو يسيل على الزجاج، ثم يتأمل الورقة وهي تتشرب الجلانس عندما يضغطها على الزجاج، نعم، لقد كان الكافر أمهر منظف نوافذ في مصر كلها. وعندما طُلب من صاحب الشركة أن يحضر خبير تنظيف الزجاج المشهور إلى القصر الإلهي، بناء على طلب شخصي من **خخو الشاعر**، أرسل له ميتسمَّاش الكافر.

والحادث الأهم في حياة مايتسمَّاش الكافر جاء بمحض المصادفة لا أكثر، ففي اليوم الأول لعمله في القصر الإلهي، كان مايتسمَّاش الكافر موجودًا في المكتب الإلهي يجهز معداته كي يبدأ بتنظيف أهم زجاج في القصر، وبينما كان التلفزيون الموجود قرب المكتب الإلهي ينقل صورة **خخو الشاعر** وهو واقف بين الجماهير في ظهوره الأخير، كان مايتسمَّاش يرش الجلانس على زجاج النافذة الواقعة

خلف الكرسي الإلهي مباشرة، وعندما سمع قصيدة **خخو الشاعر** الأخيرة، التفت بمصادفة لا تتكرر إلى شاشة التلفزيون، ورآه يختفي عن الوجود.

على الفور، ودون أي إبطاء، انتقل مايتسمَّاش الكافر إلى موقع الإله؛ قاعدًا على الكرسي الإلهي، في المكتب الإلهي، ثم وضع زجاجة الجلانس على يمينه، وفي تلك اللحظة دخل أكثر من عشرين موظفًا إلى المكتب، متنافسين أي منهم يصل إلى الكرسي الإلهي أولًا، لكنهم فوجئوا به قاعدًا على الكرسي الإلهي ناظرًا إليهم ساخرًا منهم، لقد سبق الكافر الجميع وأعلن أنه صار إلهًا.

في خلال السنة الأولى لألوهيته المزعومة سمح مايتسمَّاش الكافر للمصريين جميعًا باعتناق أي دين من أديان عصر الظلام، فعاد المصريون جميعًا للإيمان بالمسيحية والإسلامية والدكتاتورية والديمقراطية، وآمن البعض بأديان أخرى صغيرة غير معروفة ولم يؤمن بها المصريون من قبل. لم يجبر مايتسمَّاش المصريين على الكفر بالآلهة المصرية، كذلك لم يجبرهم على الإيمان بها، ولأول مرة منذ قرون سُمح للمصريين بحرية دينية بغيضة، سيظهر أثرها المدمر في السنوات القليلة اللاحقة.

وضع مايتسمَّاش نظامًا بائدًا لإدارة الدولة، فأعاد ما سُمِّي قديمًا دين الديمقراطية، وتبعًا لذلك أكد على مبدأ الفصل بين السلطات، فعيَّن حكومة تتولى إدارة شؤون

البلد، وأعلن استقلال القضاة استقلالًا تامًا، ووضع قوانين تعاقب من يحاول التأثير - من رجال الحكومة - على أحد القضاة. ثم أعاد تأسيس ما سُمّي قديمًا «البرلمان»، وجعل من حق أعضائه وحدهم وضع القوانين وإلغاءها وتعديلها، وأقر انتخاب المحافظين فاستمرت الانتخابات لاختيارهم مدة طويلة، وحول مصر إلى دولة «فيدرالية»، وهذا كفر غير مفهوم لا نعلم مصدره، وخلاصته أن كل محافظة تختص بإدارة شؤونها وميزانيتها بعيدًا عن سيطرة الإله أو الدولة، وإنما تُوكل تلك الشؤون إلى المحافظ يديرها كما يشاء، وهكذا صارت هناك محافظات أغنى من الأخرى، وأكثر انفتاحًا أو أقل، وخاضعة أو غير خاضعة للإله، كل هذا حسب رؤية ورغبة المحافظ.

كانت تبعات كل هذا كارثية، وهو أمر كان متوقّعًا بالطبع حذّر منه الكثير من العقلاء لكن مايتسمّاش لم يلتفت إليهم على الإطلاق.

في عامه الثاني بدأ مايتسمّاش تنفيذ خطة دقيقة لتدمير التراث المصري الإلهي العريق، فأعاد نشر كتب عصر الظلام كلها، وكلّف بذلك الحكومة نفسها وسعّرها بأسعار رمزية، ما أدى لانفجار هائل في عادة القراءة البغيضة والمدمّرة للعقل، واستغل المصريون كل هذا أسوأ استغلال، فقرأوا كتبًا بائدة كان أسلافهم قد نسوها منذ سنين عديدة، وظن الآلهة والعقلاء أن تأثيرها على الناس

انتهى، ولأن أفكار تلك الكتب لم تكن إلَّا مؤامرات خبيثة على المصريين، غرقوا جميعًا في كل تلك الأفكار المتضاربة المتلاطمة، ولم ينتبه أي منهم للتحذيرات التي خرجت ضعيفة من أفواه المصريين العقلاء.

وكانت الكارثة الكبرى عندما اختار مايتسمَّاش مجموعة من المصريين ضعيفي الإيمان ليكتبوا ما سمَّاه «الدستور»، ولا بد هنا من نظرة مدقِّقة إلى هذا الشيء اللعين.

في عصر الظلام، كان الدستور بمثابة عقد بين المصريين وحاكمهم؛ كتاب يحدِّد ما على الحاكم من واجبات، ويحدِّد طريقة إدارته لمصر، كان قيدًا يقيِّد الحاكم إن أردنا أن نصفه بدقة. والأمر المثير للتعجُّب أن مايتسمَّاش قرر بلا ضغط من أحد أن تكتب مجموعة مختارة من المصريين هذا الدستور اللعين، بمعنى آخر، قرَّر أن يقيِّد نفسه بنفسه، والأنكى أن الآخرين هم من صمَّموا هذا القيد، لا ليقيِّدوا مايتسمَّاش فقط، بل ليقيِّدوا أي حاكم يأتي من بعده. بوضع الدستور اللعين أنهى مايتسمَّاش عصر الآلهة المصرية العريق، أو هكذا ظنَّ.

أما هذا الدستور اللعين فلا يمكنني الحديث عنه هنا، من فرط ما فيه من كلام لا يقبله أي عاقل، أو حتى مجنون مختل العقل، وبالتأكيد لا يقبله المصريون الآن وقد عادوا جميعًا إلى الإيمان بآلهة مصر بعد سنوات قضوها في الكفر والتيه، لكني سأتحدَّث قليلًا عن طريقة كتابة هذا الدستور

اللعين.

اختار مايتسمّاش مجموعة من المواطنين يختلفون فكريًا عن بعضهم، ولا يتفقون فيما بينهم أبدًا، وهو ما يدل على غبائه التام، وحدد لهم مهلة زمنية محدَّدة لكتابة هذا الدستور اللعين، كما أنه، من فرط جنونه، لم يقيِّدهم بأي قيود، بل ترك لهم حرية كتابة ما يرونه مناسبًا من دون العودة إليه أو إلى أي شخص آخر، وسمَّى هذه المجموعة «لجنة كتابة الدستور». بالطبع، ولأن تلك اللجنة مكوَّنة من مصريين يخطئون ويصيبون، بل ويغلب الخطأ على أفعالهم مثل باقي المصريين، فقد استمروا يتناقشون في كل كلمة في الدستور اللعين حتى قبل كتابته شهورًا طويلة، وما إن بدأوا في عملية الكتابة حتى ثار بعضهم على الأغلبية وانسحبوا من اللجنة، فاضطر مايتسمّاش لاختيار عدد آخر ليحل محل المنسحبين، وما إن كُتبت أول نسخة، كانوا يسمونها «مسوَّدة»، حتى دب الخلاف بينهم على أجزاء معينة في الدستور اللعين فقاموا بتغييرها، فغضب بعض آخر من اللجنة نفسها فقاموا بعمل تغيير ثانٍ، فغضب الكثيرون هذه المرة، واضطروا أخيرًا إلى كتابة مسوَّدة ثانية للدستور اللعين نفسه، وهو ما أثار غضب معظم اللجنة، فألغوا المسوَّدة الثانية وكتبوا مسوَّدة ثالثة!

وللقارئ أن يرى مدى التخبُّط والفوضى الحاصلين في

كل ما سبق، وله أيضًا أن يستنتج، وهو استنتاج صحيح، أن النتيجة النهائية لهذا الكتاب اللعين كانت جديرة بالحرق.

وما إن اتفق الذين لا يتفقون على ما سموه «صيغة الدستور النهائية»، حتى قاموا بعرضه على المصريين، وطلبوا منهم قراءته بتمعُّن، والتشاور فيما بينهم فيما قرأوه، وعلى الفور انتشرت الاعتراضات آتية من كل مكان في مصر، كارثة هائلة أن يترك الجميعُ العملَ والحياة برمتها، فقط من أجل الاشتراك في الجدل الدائر حول كتاب لعين لا قيمة له. وأخيرًا، قام أعضاء اللجنة بتغيير بعض البنود بما يجاري رغبة ما كان يسمَّى «الرأي العام»، وظهرت صيغة سُمِّيت «صيغة الدستور النهائية النهائية». لكن المهزلة لم تنتهِ، فقد ثارت اعتراضات عارمة من مجموعات مختلفة من المصريين على بعض البنود، ولم يسأل أحد منهم نفسه لماذا لم يعترض أول مرة، فاضطر أعضاء اللجنة لإخراج صيغة أخرى سمُّوها «صيغة الدستور النهائية النهائية النهائية». وكما قد يتوقَّع القارئ العاقل، فقد استمرت الاعتراضات على الصياغات حتى صدرت بعد مدة: «مسوَّدة الدستور النهائية النهائية النهائية النهائية النهائية النهائية النهائية النهائية».

أثناء كتابة هذه الكلمات لا نكاد نتخيَّل مدى انحدار المصريين الرهيب في ذلك الزمن البغيض.

أما ما أتم السقوط، فكانت دعوة مايتسمَّاش المصريين لاستفتاء على الدستور اللعين، طلب من ملايين المصريين أن ينزلوا في يوم محدَّد للموافقة عليه أو لرفضه، ولم يسأل نفسه ماذا إن رفضت الأغلبية الدستور؟ هل عليه أن يشكل لجنة أخرى لكتابته مرة أخرى؟ بل مرة عاشرة؟ لكن يبدو أن المصريين كانوا قد أدركوا جنونه واختلال عقله، فوافقوا على إقرار الكتاب اللعين أملًا في إسكاته، وطلبًا للراحة بعد انتخابات عديدة لا تكاد تنتهي.

ومع انتهاء مهزلة الدستور اللعين، بدأت مهزلة أخرى أشد فتكًا بالمصريين، لم يسكت مايتسمَّاش، بل استمر يروِّج لمصيبته المقبلة، ولا بد أنك تنبهت أيها القارئ للَّعنة المقبلة في سيرة هذا الرجل الخبيث.

كانت وسائل الإعلام في ذلك الزمن تتداول كُفريَّات تنتمي إلى عصر الظلام، تنشرها بألسنة مجموعة من ضعيفي الإيمان والكفار، ومجموعة أخرى ممن ينتمون إلى جمعيات سرية أجنبية، وعملاء دول أخرى لا تريد بمصر إلا السوء والدمار. لم يصلنا أي شيء مما كُتب وقيل في ذلك الوقت نتيجة الحرص البالغ على مسح تاريخ مايتسمَّاش تمامًا، وهنا في هذا الكتاب، نحن أيضًا حريصون على عدم ذكر ما قيل في ذلك العصر البغيض. لقد انتشرت أفكار وكلمات وآراء الكفار في ذلك الوقت بين المصريين انتشارًا هائلًا، ولا ألومهم أبدًا على الاستماع إليها وقبولها، لكني

ألوم مايتسمَّاش الكافر على كل ما حدث. ولا بد أن تلك الأفكار أفزعت المصريين أول الأمر، الذين كانوا لا يزالون تحت تأثير الإيمان بآلهة مصر، ولا بد أنهم ردوا بالصمت مترقِّبين ما سيحدث في الأيام المقبلة، ولا بد أنهم استمعوا إلى أفكار الكفار يتم تداولها في الإعلام، ولا بد أنهم أدركوا أن مايتسمَّاش الكافر يحاول بشتى الطرق إقناع المصريين بأفكاره الظلامية الخبيثة، ولا بد أنهم نظروا بعين الحسرة إلى جيرانهم وإخوتهم وأبنائهم يكفرون بآلهة مصر واحدًا تلو الآخر، وينسون عصر النور والأمل والحياة، ويتجهون تحت تأثير تلاعب وسائل الإعلام بهم نحو عصر الظلام والدمار الأكيد، ولا بد أن قلة منهم فقط ظلوا على إيمانهم بآلهة مصر ولم يؤمنوا بأي إله آخر، لكنهم كتموا هذا الإيمان في قلوبهم ولم يطلعوا أي إنسان عليه، ربما خوفًا من بطش مايتسمَّاش الكافر - مع أنه لم يتمكن من البطش بذبابة - وربما خوفًا من سخرية الآخرين الذين اتَّبعوا البدعة الجديدة، وظلوا صامتين في انتظار من يخلصهم من الكافر الأكبر.

وبعدما هيَّأ الإعلام المصريين لتلقِّي الصدمة، خرج مايتسمَّاش الكافر ذات يوم على الناس وأعلن أنه ليس إلهًا، وأن من سبقه لم يكونوا آلهة بل بشرًا عاديين، وأن المصريين سوف يختارون حاكمهم من الآن فصاعدًا طبقًا للدستور اللعين الذي وافقوا عليه منذ شهور.

لا يحتاج العاقل لكثير من التأمل حتى يدرك أن مايتسمّاش الكافر اللعين أخطأ فيما فعل، فبإعلانه أنه ليس إلهًا سقطت عنه كل السلطات، في ذلك الحين كانت الألوهية لا تزال هي مصدر كل السلطات في مصر. أيضًا، لا يمكن لمايتسمّاش أن يكون صاحب سلطة حتى بقوانينه الشاذة، فلم تتم دعوة المصريين للتصويت على اسمه، ولم يحصل على أغلبية الأصوات، كيف لرجل يبلغ هذا المقدار من الحماقة أن يحكم مصر؟ وأتساءل أيضًا، كيف لرجل كافر داعر كهذا أن يحصل بعد شهرين فقط مما فعل على أصوات أغلبية المصريين؟

نعم، لقد استمرت وسائل الإعلام تروّج لكل هذا الكفر مدة شهرين كاملين، تنافس بين مجموعة من المصريين الجهلاء على منصب الرئيس، أحدهم وأكثرهم جهلًا وكفرًا كان مايتسماش، ودارت بين المصريين نقاشات لا تنتهي، ترك الجميع العمل والجهد واختلفوا اختلافًا كبيرًا، رفضوا إلهًا واحدًا وصار كل واحد منهم إلهًا يفكر ويخطط ويختار، كانت أيامًا سوداء على العقلاء في مصر.

كما أشرنا من قبل، لم يردنا الكثير مما حدث في ذلك الوقت، هناك فقط شهادة واحدة تصف تلك الأيام بصدق، نقول «بصدق» لأن كاتبها صادق في كفره وفسوقه.

منذ ثلاثة أعوام تقريبًا، عثر الموظفون في دار الكتب المصرية على نصف صفحة من إحدى الصحف المصرية

القديمة، تضمَّنت وصفًا للمصريين قبل موعد انتخاب مايتسمَّاش بأسبوع واحد، قام رئيس دار الكتب بالحضور إلى القصر الإلهي وطلب أن يقابلنا شخصيًا، وهو أمر بالغ الغرابة ولم يحدث طوال فترة حكمنا، لكننا استشعرنا أن في الأمر خطرًا بالغًا فدعوناه إلى الدخول إلى مكتبنا. بعدما أبدى كل علامات الخضوع والطاعة، أخرج المدير من حقيبته نصف الصفحة، ووضعها على الطاولة أمامنا من دون أن ينطق، كان صمته بليغًا، وآيات الرعب مرتسمة على وجهه وكأنه في انتظار لعنة منّا. بهدوء قرأنا نصف الصفحة، وهالتنا الأفكار الكافرة التي وردت بها، لم نهتم لاسم الجريدة أو لتاريخ صدورها، أو حتى لاسم الكاتب، ولم نفكِّر في تأثير تلك الأفكار على عقول المصريين، بل كل ما فكرنا فيه مقدار الجهل والكفر والفسوق في ذلك العصر البغيض.

سنورد هنا فقرة واحدة مما كُتب في تلك الصفحة: «قد خرجت مصر من الظلام إلى النور، وها هم المصريون يعودون مرة أخرى إلى تقاليدهم الديمقراطية العريقة الخيِّرة، وتعود الأمة مرة أخرى لتصبح مصدر السلطات. بعد سبعة أيام فقط سينزل المصريون جميعًا ليختاروا رئيسهم، بطريقة حضارية ديمقراطية، رئيس له سلطات محدودة ولنا سلطاتنا اللامحدودة، كلمتنا فوق كلمته، ورأيه يأتي بعد رأينا، ليس إلهًا مزعومًا مثلما كنّا نؤمن من

قبل، بل إنسان عاديٌّ مثلنا تمامًا».

ولا يمكن للعاقل أن يقرأ الفقرة السابقة من دون أن يتقيأ[(21)].

في ذلك الأسبوع البائس انتهى كل أمل في مصر والمصريين، كان تعداد مصر حينها أربعمئة مليون إنسان، كل واحد منهم له رأي يختلف عن الآخر، أربعمئة مليون رأي تتصارع في عقول المصريين، كل واحد يدعي أنه ليبرالي، أو علماني، أو اشتراكي، أو رأسمالي، والأسوأ أن بعضهم كان يؤمن بفكرتين معًا، كأن يقول إنه ديمقراطي-مسيحي، أو اشتراكي-إسلامي، أو ديمقراطي-اشتراكي، أو رأسمالي-شيوعي، أو بوذي-سلفي، أو ماركسي-تفكيكي. تفكيكي؟! ما هذا أصلًا؟ انظر أيها القارئ كيف يرمي الناس بأنفسهم إلى الخراب، انظر كيف عادوا إلى عصر الظلام، انظر كيف تخبطوا وتفرَّقوا وأصبح لكل واحد منهم رأي مستقل، صدق المؤرخ عبخـخو التافه التلباني عندما وصف بدقة ما حدث للمصريين: «كفر المصريون بإله واحد حقيقي وأصبحوا أربعمئة مليون إله زائف»[(22)].

وكما هو متوقع بالطبع، انتهى كل التعب والجدل والمليارات التي أُنفقت على ما يسمَّى «الانتخابات» إلى فوز مايتسمَّاش بمنصب الرئيس، ولا يسعنا إلا التعجب حينما نرى من ادَّعى أنه إله وهو يتخلى طوعًا عن ألوهيته ثم يصبح بعد إنفاق ثروة ضخمة رئيسًا، نتعجَّب لأن هذا

القرار الوحيد الصحيح الذي اتخذه مايتسمًاش.

ولأن الكفر يودي بصاحبه إلى الغرور، فقد أعلن مايتسمًاش عن احتفال هائل في يوم محدَّد، حيث يقف أمام أعضاء البرلمان ويقسم على أن يحافظ على الدستور اللعين، ويقسم على أن يحترم القوانين التي أقرها البرلمان، وأن «يراعي مصالح الوطن»، بعدما هدم الوطن تمامًا.

كان يومًا حزينًا على المصريين العقلاء، حين تابع كل مصري جاهل مايتسماش الكافر وهو ينهي خطته لوضع مصر تحت حكم زائف كاذب، بالطبع كانت الأغلبية الساحقة سعيدة لا تشعر بالكارثة المحدقة بها. في ذلك اليوم وقف مايتسمًاش أمام أعضاء البرلمان، ممسكًا ورقة صغيرة حقيرة مستعدًا ليقرأ منها القسم الرئاسي بصوت حاد بغيض مشوَّه، زاده تشوُّهًا وجهه القبيح وملابسه المهلهلة، توقف لثوانٍ قليلة أمام الميكروفون، ثم بدأ القراءة.

قبل أن يُتمَّ القسم، اقترب منه أحد أعضاء البرلمان، كان شعره طويلًا غزيرًا، وإحدى خصله سوداء سميكة ساقطة على جبهته تغطيها بالكامل، أخرج مسدسه وأطلق النار ثلاث مرات على مايتسمًاش الكافر فقتله على الفور. ساد الهرج والضوضاء القاعة الكبيرة، فأطلق الرجل عدة رصاصات في الهواء التزم بعدها الجميعُ الصمت. اقترب

من الميكروفون وقال بهدوء: «أنا **خللو الأعظم**، إله مصر الرابع».

---

(19) للمزيد انظر كتاب الدكتور عبخللو الشنيطي، *الضفدع في تاريخ الأديان القديمة*، دار الجمجمة، الطبعة السابعة بعد المئة.

(20) هؤلاء هم أنصاف الآلهة؛ رجال حكموا مصر في عصر الظلام المتأخر الذي سبق عصر **خِيزو الأول**، وادعوا أنهم يؤمنون بدين الديمقراطية، لكنهم حكموا كآلهة من دون أن يعلنوا ذلك نتيجة لضعفهم الشديد في ذلك العصر، ونتيجة لتبعية مصر كلها للأجانب، لكنهم مع ذلك زرعوا - بطريقة غير مباشرة وخفية - في لاوعي المصريين الجمعي أنهم آلهة تجب عبادتهم بشتى الطرق. استمر حكم أنصاف الآلهة مدة قصيرة، هؤلاء نكن لهم كل عرفان وكل تقدير على المجهود الجبار الذي بذلوه، لكن لا يمكن أن نعدهم من ضمن آلهة مصر بأي شكل، بل نتجاوز ونتسامح إذ سميناهم «أنصاف آلهة»، لذلك لن يتم ذكر اسم أي منهم في هذا الكتاب.

(21) إن لم تتقيأ الآن أيها القارئ فأنت متعاص.

(22) عبخخو التافه التلباني، *اللعنة الكبرى*، دار الكلام، الطبعة الألف.

خُلَلُو الأعظم
(712-1725)

من دون أي كلمات أخرى، أزاح **خللو الأعظم** الميكروفون وأطلق الرصاص على كل أعضاء البرلمان، فقتلهم جميعًا خلال دقائق.

لكن تاريخ **خللو الأعظم** يبدأ من قبل تلك الحادثة بكثير. منذ نعومة أظفاره ظهرت علامات النبوغ على الطفل **خللو الأعظم**، استطاع الحصول على دكتوراه الفلسفة في الفيزياء الكونية وهو في الشهر الثالث من عمره، وأتبعها بمئة وست وتسعين رسالة دكتوراه في الشهر الرابع من عمره، وخلال السنة الأولى من عمره حصل على خمسة آلاف وثلاثمئة وخمس رسائل دكتوراه، ما يثبت أنه ذكي جدًّا.

لم يهدأ **خللو الأعظم** قَطُّ، وإنما استمر - منذ عامه الثاني - في تأسيس شركات وإنتاج منتجات وإنجاز إنجازات، لقد عمل كل شيء، وكان قلبه يُعتصر حزنًا على مصير مصر تحت حكم مايتسمَّاش الكافر، فقرر أن ينضم إلى الكافر بطريقته، فرشح نفسه لكي يُنتخب في البرلمان، وكسب أصوات الأغلبية وأصبح عضوًا، ثم صار ما صار، وهو ما يثبت أنه ذكي جدًّا.

لا يمكن لنا وصف مشاعر الفرح والسعادة التي سيطرت على المصريين فور إعلان **خللو الأعظم** نفسه إلهًا، لقد نزل

المصريون إلى الشوارع - كعادتهم عند كل حدث كبير - وبدأوا يرقصون بلا وازع، كانت الرقصات معتادة في البداية. رقص بلدي، ورقص إفرنجي، ورقص سلو، ورقص باليه، ثم تطوَّرت الرقصات كلها لتتحد في رقصة واحدة جديدة. كان الواحد من المصريين يرقص وكأنه موصول بسلك كهربائي، لم نرتح يومًا للاسم الشعبي الذي تم إطلاقه على تلك الرقصة؛ «كهربا»، لكننا فضلنا دائمًا أن نسميها باسمها الرسمي؛ «الرقصة الارتجافية».

ومع كثرة نزول المصريين إلى الشوارع للتعبير عن الفرح لعودة الآلهة مرة أخرى، تم اعتماد الرقصة الارتجافية رقصة رسمية للمصريين، وطبقًا للقانون الذي أصدره **خللو الأعظم** بخصوصها، صار من الواجب على كل مصري أن يرقصها في أوقات عديدة؛ عند الاستيقاظ، وقبل النوم، وقبل الخروج من المنزل، وقبل الدخول إليه، وقبل الدخول إلى العمل، وعند الخروج منه، وقبل الدخول إلى الحمام، وقبل الخروج منه، وقبل الدخول إلى قاعة الدراسة، وقبل الخروج منها، وقبل السفر خارج مصر، وعند الوصول إلى أي بلد آخر، وقبل مغادرة أي بلد آخر متجهًا إلى مصر، وقبل دخول أرض مصر، وبعد الولادة، يرقصها المولود والطبيب والأم، وأيضًا يرقصها المتوفى قبل الوفاة مباشرة.

ومن مزايا الرقصة الارتجافية أنها تنشِّط الجسد وتمنع

انسداد الشرايين والصداع والجرب والحمى المخية الشوكية وتعالج التهاب الكبد الوبائي والإيدز والطاعون والكوليرا والسعال الديكي والانشراح العضلي والانسكاب الدملي. ومؤخرًا اعترف علماء الغرب بأن الرقصة الارتجافية تعالج جميع الأمراض التي تصيب الإنسان والحيوان إذا تم تنفيذها بدقة وفي مواعيدها المحدَّدة.

لا نريد لحديثنا عن الرقصة الارتجافية أن ينسينا الحديث عن إله مصر الرابع، فنعود مرة أخرى إليه.

كما تعجّلَ **خيزو الأول** بدء العمل بعد كلمتيه الخالدتين، تعجل **خللو الأعظم** العمل أيضًا. فقام بإلغاء الدستور والبرلمان، وأوقف العمل بجميع القوانين الموجودة ما عدا قانون **خيزو الأول**، وطالب المصريين بالعمل فقط، ونصحهم بالرقص إن تعبوا من العمل، وعلى الرغم من أن العمل كان لا يهدأ في تلك الأيام، لم يشعر المصري بأي إرهاق أو تعب خلالها، بل ظل سعيدًا مرِحًا يعمل طوال اليوم، ويرقص في الشارع أثناء عودته إلى بيته وهو يتخيَّل مستقبله المبهر المقبل بلا شك.

لكن يوم الفرح الحقيقي كان يوم ظهور **خللو الأعظم** لأول مرة علنًا على المصريين بعد ألوهيته.

في الساعة التاسعة من صباح اليوم التاسع من ألوهية **خللو الأعظم**، أُعلن في التلفزيون الرسمي أنه سيظهر لأول مرة ليهنئ الشعب المصري بتأليهه، وعلى الفور بدأ جميع

المصريين استعداداتهم لمشاهدة الحدث الأعظم، فأخذوا يحضّرون المشروبات والطعام الخفيف للاستمتاع بهما أمام شاشات التلفزيون في البيوت، كما اتصلت كل عائلة بالأقارب والأصدقاء للاتفاق على التجمع في بيت واحد أمام شاشة واحدة لمتابعة الحدث الأعظم، واهتمت الدولة كثيرًا بالمناسبة الكبرى، فأقامت آلاف الشاشات العملاقة في الحدائق والملاعب والميادين، وخلال الساعات الأولى بعد الإعلان ترك البعض أعمالهم ودراستهم وبدأوا في التجمع حول الشاشات، وخلال الساعات التالية تضاعفت الأعداد في الشوارع والميادين الكبيرة. من المؤكد أن الجميع كانوا سعداء، حتى المرضى أحسّوا بشفاء مؤقّت لا يعلمون كيف حدث، فنزلوا من أسرّة المرض إلى الشوارع، وشُوهدت آلاف الكراسي المتحرّكة تصطف أمام الشاشات بنظام دقيق صارم، ومن المؤكد أيضًا أن من كان على وشك الموت استطاع أن يتماسك ويبقى على قيد الحياة حتى يشاهد الظهور الإلهي. وفي تمام الساعة الثامنة أعلن التلفزيون المصري عن مفاجأة أخرى، فلأن القمر كان بدرًا في تلك الليلة، تقرّر أن تقوم المحطة الفضائية المصرية ببث ظهور **خللو الأعظم** الإلهي على سطح القمر، عن طريق آلة عرض فضائية عملاقة تم تصنيعها خصيصًا لتلك المناسبة، ونقل التلفزيون المصري بثًا مباشرًا للمحطة الفضائية وهي تقترب من القمر ببطء، ثم وهي تستقر

أمامه بهدوء، ثم تشغل آلة العرض الفضائية العملاقة ليظهر نورها باهرًا على سطح القمر، بثّت آلة العرض العد التنازلي وارتسمت الأرقام متتابعة؛ 5 4 3 2 1، ثم اسودَّ السطح للحظات، قبل أن تظهر صورة **خيزو الأول**، فتنفجر الجماهير في الهتاف وتتنابها الفرحة العارمة، ثم صورة **خايرو الفلاح**، فتنتشر الفرحة أكثر وأكثر ويتذكّر المصريون اللون الأخضر الذي غمر مصر في عصره، ثم صورة **خخو الشاعر**، فيصاب الجميع بالجنون وهم يسترجعون عصر الشعر الذهبي ويأخذون في إلقاء القصائد بشكل عشوائي ارتجافي بهيج، ثم تظهر الجملة التالية على سطح القمر «في انتظار **خللو الأعظم**» فيتأكد حينها المصريون أنهم على أعتاب حدث كونيٍّ عظيم.

من كانوا ينتظرون البث على شاشات التلفزيون فضّلوا أن يروا صورة إلههم على سطح القمر، نظر البعض من الشبابيك أو الشرفات، بينما نزل الكثيرون إلى الشوارع فامتلأت عن آخرها، وتعلّقت أعين جميع المصريين بالقمر في انتظار الصورة الألوهية، وأخيرًا في تمام الساعة التاسعة ظهرت صورة **خللو الأعظم** تملأ سطح القمر المستدير، ولم يهمس إنسان.

خلال الأيام السابقة للحدث الأعظم، انتشرت في وسائل الإعلام صورة واحدة **لـخللو الأعظم**، بالبدلة الزرقاء وهو يمسك مسدسه ويقتل الأعضاء الخونة، كان طويل القامة

جدًّا ممشوق القوام ذا شعر شديد الغزارة، وخصلة سميكة منسدلة على جبهته تغطيها بالكامل. هذه الصورة المكرَّرة لم يملها المصريون خلال الأيام التسعة، بل تم نحتها بإزميل الزمن في وجدانهم إلى الأبد، لكنهم كانوا في حاجة إلى صورة أكبر وأوضح وأهم، لهذا كانوا ينتظرون صورة القمر بصبر نافد.

بحث الكثير من المصوِّرين والصحافيين عن صور **خللو الأعظم** قبل إعلان نفسه إلهًا، فعادوا إلى أرشيفات الصحف والمجلات، لم تكن آلاف الصور التي وجدوها تحمل العظمة الألوهية مثل تلك الصورة التي التقطت في البرلمان، كانت كلها صورًا عادية لشخص عادي، طويل جدًّا لكن دون هيبة، أنيق أحيانًا وأحيانًا يرتدي ملابس بسيطة، شعره غزير دائمًا والخصلة تغطي جبهته في كل الصور، شخص عادي تمامًا.

في ذلك الزمن البعيد، رأى المصريون وجه **خللو الأعظم** كاملًا، ولم يهمس أحد منهم، كما رآه كل إنسان في النصف المعتم من الكرة الأرضية، وجرى بث صورته عن طريق شاشات التلفزيون إلى النصف الآخر، وأيضًا لم يهمس إنسان.

ظهر **خللو الأعظم** مرتديًا بدلة سوداء تظهر رشاقة الجزء الأعلى من جسده، وربطة عنق حمراء عليها زخارف دقيقة صفراء وخضراء، كانت بالغة الأناقة، خصلة غزيرة من

شعره منسدلة على جبهته كالعادة، شعره أسود بلا شعرة بيضاء واحدة، عيناه واسعتان لامعتان، أنفه مستقيم قصير قوي، وفمه حازم وشفتاه حادّتان. قبل أن يبدأ الحديث مدَّ يمناه وأزاح خصلته السوداء إلى الخلف، ثبتها برفق وأبقى كفه عليها لثوانٍ قليلة، ولأول مرة لاحظ كل من يراه جبهته الواسعة العريضة، منها برز عضوه التناسلي كاملًا، خصيتان كبيرتان بيضاوان تظهران بوضوح في كيس الصفن الحليق الواسع، اليسرى مرتفعة بضعة ملليمترات عن اليمنى، وقضيبه المختون يتدلى أمامهما بسكينة بالغة، ينحني رأسه قليلًا نحو اليمين، حليق أيضًا، وشعر كثيف يكلل أصله كأنه تاج أسود لامع، ثم ينتشر لأعلى حتى يتّصل بمنبت شعر الرأس الغزير.

نحن على يقين أن أحدًا لم يسمع كلمة مما قاله **خللو الأعظم** في تلك الخطبة، إذ كان الجميع مندهشًا مستغرقًا في تأمل قضيبه بهدوء. الصدمة كانت عنيفة لا ريب، والظهور الإلهي كان إلهيًا فعلًا، في تلك اللحظات شغلت كل عقل فكرة واحدة: نعم، هذا حقًا إله، إله جميع المصريين، وإله مصر.

لم يهدأ **خللو الأعظم** لحظة واحدة بعد ذلك اليوم، ولأنه أدرك أن مشكلة مصر والمصريين تكمن في أديان عصر الظلام العديدة، وخاصة الديمقراطية، فقد عقد العزم على أن يتخلّص منها جميعًا، لقد أصدر قانونًا يأمر بإطلاق لقب

«متعاص» على كل مؤمن بأيّ دينٍ، وسمَّى الجريمة نفسها «العوصة»، كانت عقوبة العوصة هي تقييد المتعاص ورميه في النيل. ولم يكن المجرم بحاجة إلى محاكمة لإثبات عوصته، لكن مجرَّد شهادة شخص واحدٍ كانت كافية لتطبيق العقوبة عليه. كذلك، قرر **خللو الأعظم** أن يعبده المصريون وحده فقط، وأن ينسوا كل إله أو دين سابق عليه.

خلال الأسابيع الأولى بعد إصدار ذلك القانون انتشرت على ضفتي نهر النيل مجموعات عديدة من موظفي الحكومة تقوم بتنفيذ الأحكام على المتعاصين، اعتادوا أن يبدأوا العمل في السابعة صباحًا، اعتاد المواطنون أن يأتوا إلى النيل وهم يسحلون أحد المتعاصين، إلى أن يسلموه إلى الموظفين المختصين، ويقول أحد المواطنين كلمة واحدة مشيرًا إليه: «متعاص»، فينفِّذ الموظفون الحكم على الفور؛ يربطون كفَّي وقدمَي المتعاص، يحملونه إلى أحد القوارب الكثيرة المنتشرة على الضفة، حيث تستقبله مجموعة أخرى من الموظفين، ينتظرون حتى يمتلئ القارب بالمتعاصين، ثم يتَّجهون نحو منتصف مجرى النيل، وحالما يصل القارب يبدأون في إلقاء كل المتعاصين في النهر واحدًا تلو الآخر، وبعد الانتهاء يعود القارب إلى الضفة في انتظار مجموعة جديدة منهم.

ومع مرور الأيام قل عدد المتعاصين كثيرًا، وإن استمرت

مجموعات الموظفين على ضفتي النيل موجودة دائمًا تنتظر ما قد يأتيها، ومع تضاؤل عدد المتعاصين في مصر، خشيَ القلة الباقية منهم العقاب، وأظهروا الإيمان **بـخللو الأعظم** وأضمروا العوصة، فلم يعلنوا عن إيمانهم إلا بينهم فقط، وقرر بعضهم ألا يعلن إيمانه أبدًا، فأخفاه عن أقرب الناس إليه، هؤلاء ماتوا من دون أن يشعر بهم أحد على الإطلاق.

وبعد القضاء على المتعاصين، لم يعد هناك معنى للإبقاء على معابدهم، فأمر **خللو الأعظم** بتحويلها إلى معابد له ولآلهة مصر جميعًا، وانتشرت تماثيل الآلهة الضخمة في الشوارع، كما انتشرت تماثيل صغيرة ومتوسطة الحجم للآلهة كافة، في بيوت المصريين ومقار عملهم ومعلقة في سلاسل ذهبية وفضية في أعناقهم.

اهتم المصريون بمسح أي علامة على وجود أديان عصر الظلام، فقاموا بتغيير الكلمات والجمل المعتادة والمرتبطة بتلك الأديان وآلهتها، واهتم الصحفيون والمثقفون والكتاب والشعراء كثيرًا بتلك الجمل، فاللغة هي أداتهم، وقاموا بحثّ الناس على استبدالها بأخرى تتوافق مع آلهة مصر، فروَّجوا لتعبير «الحمد **لـخيزو الأول**» و«حمدًا **لـخايرو الفلاح** على السلامة» وغيرها من تعبيرات مستخدمة حتى يومنا هذا. وواجهوا العادات والتقاليد والمناسبات التاريخية المبنية على أديان عصر الظلام،

فغيَّروا أسماءها جميعًا، واكتشفوا بعد بحث أن لكل واحدة منها أصلًا مصريًّا ولا يمكن نسبتها إلى تلك الأديان أبدًا، وهذا عمل خارق نشهد أنهم نجحوا في تحقيقه بنجاح مبهر.

كما انتبه **خللو الأعظم** للكتب وأفكارها التي أدت إلى تعثُّر الدولة المصرية في عصر مايتسمَّاش، ولم يكن بحاجة إلى منع كتب عصر الظلام، فهي ممنوعة بالفعل، لكنه قام بما هو أكثر كفاءة من مجرد المنع، كان يدرك أن اللغة هي أساس المشكلة وأن وجود كلمات بعينها هو ما يؤدي إلى وجود تلك الأفكار، ولذلك قام بمنع ذكر مجموعة كاملة من الكلمات وبحذفها من المعاجم. ننقل هنا فقرة من إحدى خطبه المهمة:

«الأشياء تنقسم إلى ثلاثة أجزاء؛ «فستوفيسو» وهي الأشياء اللي يمكن أن يُسأل عن حجمها أو شكلها أو وزنها أو لونها أو مذاقها ويمكن الإجابة عن السؤال، وهذه مسموح بذكرها أو الكلام عنها للجميع. و«مستوفيسو» وهي الأشياء التي يمكن أن يُسأل عن حجمها أو شكلها أو وزنها أو لونها أو مذاقها لكن لا يمكن الإجابة عن السؤال، وتلك يمكن للمصريين الكلام عنها، لكنهم لن يدركوا إلا جزءًا منها ولن يدركوها كاملة أبدًا، وهي معظم الأشياء الموجودة. و«سترستفيسو» وهي الأشياء التي لا يمكن أن يُسأل عن حجمها أو وزنها أو لونها أو مذاقها، وبالتالي لا

يمكن الإجابة عن السؤال، وهذه لا يمكن أن يذكرها أو يتكلم عنها سوى الآلهة لأنها من دقائق المنطق الإلهي. وعلى هذا يجب أن تُزال الكلمات الدالة على الـ«سترستفيسو» ومشتقاتها من كل المعاجم».

تحيَّر رجال القانون في تفسير الفقرة السابقة، كما تحيَّر أعضاء مجمع اللغة العربية ولم يفهموا المقصود بالضبط بالأقسام الثلاثة للأشياء، وخلال الأيام التالية على الخطبة المهمة تطوَّع الكثير بشروحات عديدة لإيضاح ما قصد **خللو الأعظم**، لكنها كلها كانت خاطئة. بعد شهر من المحاولات المضنية، قام **خللو الأعظم** بإرسال قائمة بالكلمات المراد حذفها من المعاجم إلى مجمع اللغة العربية، يائسًا تمامًا من غباء المصريين وجهلهم وانعدام قدرتهم على فهم كلامه الإلهي، وعلى الفور انتهى الجدل وتوقَّفت الشروح.

أما ما قصده **خللو الأعظم** بـ«الفستوفيسو»، فهي الكلمات التي تصف الأشياء مثل تفاحة وسيارة وطاولة، وكما هو واضح هي أشياء يمكن قياس صفاتها الفيزيائية، وهو أسهل الأقسام الثلاثة. أما «المستوفيسو»، فهي مشاعر البشر التافهة، مثل الحب والكراهية والغضب والإحباط، ومن الواضح أن الواحد يمكن أن يسأل عن مقدار حب شخص ما لآخر، مع استحالة إدراك هذا الحب إدراكًا كاملًا. ونصل إلى «السترستفيسو»، وهي كلمات

مثل العدالة والظلم والمجد والضعة، ولا ضير من كتابتنا إياها الآن، فقد ماتت معانيها بحذفها من المعاجم منذ أكثر من ألف عام، وأصبحت مجرَّد عدد قليل من الحروف المتصلة.

إن إنجازات **خللو الأعظم** لا يمكن أن تُعَدُّ، فكل ما فعل إنجاز في حد ذاته، وتزداد إنجازاته تميزًا عن إنجازات من سبقه من الآلهة لأنه كان يعتمد في الأساس على الإنجاز المعقَّد، وببساطة لا تخلُّ بالمعنى، يتميز الإنجاز المعقد بتعدد خطواته ومستوياته، وبكون كل خطوة أو مستوى إنجازًا متميزًا ومنفردًا يقود إلى إنجاز أكثر تميزًا وانفرادًا، وربما كان إنجاز التخفيض هو أهم إنجاز معقد قام به.

تنبه **خللو الأعظم** منذ أول يوم من أيام ألوهيته الأول إلى أن عدد المصريين في ازدياد بالغ، واستنتج أن خصوبة المصريين غير الطبيعية لا بد وأنها مؤامرة؛ فبعد أن نظر في معدَّلات تكاثر شعوب العالم وجد أن المصريين أكثر الشعوب تناسلًا وزيادة خلال السنوات الخمسمئة السابقة على عصر ألوهيته، لم تقلّ تلك الخصوبة يومًا خلال تلك الأعوام، بل ازدادت بمعدل ثابت، بحيث يمكن أن نقول عنها إنها خصوبة متعاظمة. لقد تضاعف عدد السكان بشكل رياضي طبقًا لمعادلة صارمة، ويمكن ببساطة تخيُّل مقدار تضاعف عدد السكان إن علمنا أنه في العام العاشر من حكمه بلغ عدد المصريين تريليونًا وخمسمئة وتسعة

وتسعين إنسانًا، وهو أكبر عدد سكان بلد في العالم كله، لهذا قرَّر أن يقوم بخطته المفاجئة لتخفيض هذا العدد الضخم.

لكن علينا أولًا أن نذكر حكاية صغيرة مهمة.

في أثناء بحثه عن وثائق قديمة متعلِّقة بتاريخ عصر الظلام، اكتشف **خللو الأعظم** أن ثمَّة نظامًا معقَّدًا لتفجير السد العالي الواقع جنوب مصر، صمَّم المهندس الذي بنى السد ذلك النظام بأمر من الحاكم المصري في ذلك الوقت بشكل سرِّي، فلم يعرف أي إنسان وجود هذا النظام، وربما عرفه بعض الحكام لا أكثر، ومع مرور السنوات لم يعد للسد أهمية كبيرة - بعدما كان يولِّد مقدارًا كبيرًا من الطاقة الكهربية - فانتهى دوره مع الانخفاض المستمر لمنسوب النيل، وأصبح مجرَّد خزَّان يحجز كمية كبيرة من الماء، ولا تزيد على ما كانت عليه عند إنشائه إلا في سنوات مواسم قليلة فقط. لم يهتم أحد بهذا السد قَطُّ في عصر النور، وظل مجرَّد منشأة هائلة استمرت قائمةً من عصر الظلام، ومع اكتشاف **خللو الأعظم** لوثيقة تفجير السد لمعت في ذهنه فكرة مبهرة.

كانت ثمة طريقتان لتفجيره، التفجير البطيء، وكما هو واضح من الاسم يتم تحطيم السد على مدى عدة أيام، والتفجير السريع حيث يتم تحطيم السد كله في لحظة واحدة. بعد بحث قليل عرف **خللو الأعظم** أن ثمة زرَّين

أحمرين يفجران السد، زرًّا لكل طريقة، وبحث عن زرِّ التفجير إلى أن وجده، وحالما رآه قرَّر أن يضغط عليه ليتم التفجير على الفور، لكنه فكَّر قليلًا، ووجد أن هذه فرصة مناسبة لاختبار إيمان المصريين به إلهًا.

أعلن **خللو الأعظم** في خطبة شهيرة أنه قرَّر أن يخفِّض عدد المصريين بنسبة كبيرة، عن طريق تفجير السد العالي والسماح للماء المحجوز خلفه بالانفلات ليغرق مجرى النيل والدلتا حتى ساحل البحر المتوسط، وقال إنه يمكن أن يذكر مبرِّرات كثيرة لقراره هذا، لكنه لن يكلِّف نفسه حتى ذكرها ليقينه بأن المصريين يؤمنون به بلا حدود، وأنهم سيظلون يؤمنون به حتى وإن قتلهم، ثم أعلن أنه سيفجِّر السد بعد أربعة أيام بالضبط.

انتهز الجميع الفرصة، فاهتمت وسائل الإعلام المرئية والمسموعة بقرار **خللو الأعظم** الحكيم، واستمرَّت لأربعة أيام متواصلة تشير إلى حكمته الألوهية وذكائه، كما أشادت بقراره الإلهي الذي قد يبدو للمصريين غير مفهوم، لكنه مفهوم حتمًا بالنسبة لإله مصر، وأعلنت جميع وسائل الإعلام أن «الطوفان الخللي» سيأتي بالخير حتمًا، وذلك لأن **خللو الأعظم** لا يمكن أن يقصد الضرر بالمصريين، بل يفكر ويقرر ويتصرف دائمًا طبقًا لمصلحتهم. وفي اليوم المعلوم، استيقظ المصريون كعادتهم، وذهب كل عامل إلى مصنعه وكل موظف إلى مكتبه وكل فلاح إلى حقله وكل

تلميذ إلى قاعة الدراسة، وعمل كل إنسان بجد واجتهاد، كأنهم يعيشون يومًا عاديًا آخر في مصر الجميلة.

انفجر السد كله فجأة، واندفع ماء البحيرة ليغمر مجرى النيل بسرعة هائلة، وخلال ساعتين فقط كان قد قطع المسافة من السد في أقصى الجنوب حتى ساحل البحر المتوسط في أقصى الشمال، مغرقًا كل ما وجد في طريقه. في تلك الدقائق المثيرة من تاريخ مصر، استمر العامل يعمل في مصنعه والموظف يكتب في مكتبه والفلاح يزرع في حقله والتلميذ يدرس في قاعة الدراسة. لم يتحرَّك أحد ليشاهد تيار الماء وهو يجرف كل شيء أمامه، لم يتوقَّف المصريون لحظة عن العمل المقدَّس، وبالطبع لم يفكِّر أحد في الهرب من الطوفان الخللي الهائل.

توقَّع الكثيرون أن يأتي الطوفان الخللي على نصف المصريين، وتوقَّع البعض أنه سيغرق ثلثيهم، وتوقَّعت قلة أن عُشر المصريين سيتبقى حيًّا بعده، لكن التخطيط الإلهي تفوَّق عليهم جميعًا؛ لم يتبقَّ بعد انحسار الماء سوى مئة وخمسين مليونًا من المصريين، وخلال الشهور الأربعة التالية مات منهم مئة وثلاثون مليونًا نتيجة قلة الغذاء والماء الصالح للشرب وانتشار الأوبئة وندرة الأطباء والأدوية، وبعد سنة واحدة من الطوفان الخللي لم يتبقَّ سوى خمسة ملايين مصري. هؤلاء كانوا مجموعة متألِّقة من الأصحَّاء الأذكياء المتفوِّقين، لقد قام **خللو الأعظم**

بإنجاز التخفيض للتخلُّص من كل ضعيف وجبان وغبي خلال سنة واحدة فقط، والأهم أن من تبقَّى أصبحوا أكثر المصريين إيمانًا **بـخللو الأعظم** إلهًا، بعدما رأوا كيف أنهى حياة الملايين بضغطة زر. وفي أحد الأيام، بعد انخفاض معدَّل الوفيات واستقرار عدد المصريين عند خمسة ملايين إنسان، أعلن **خللو الأعظم** عن مشروعه الهائل «العاصمة الجديدة».

لقد رأى **خللو الأعظم** أطلال العاصمة القديمة مثيرة للحزن والأسى، تنتشر فيها الحرائق والمباني المهجورة وشبه المنهارة، لم يعجبه كل ذلك خاصة أنها ليست من صنعه، فقرَّر أن يدعو المصريين جميعًا لبناء مدينة جديدة تصلح عاصمة فخمة لمصر. مشروع هائل الحجم سيستغرق عشر سنوات حتى ينتهي، وعلى الفور بدأ خمسة ملايين من المصريين، وعشرة ملايين من الأيدي، ومئة مليون إصبع، العمل باجتهاد وجَلَد وحزم لإنشاء العاصمة الجديدة.

بعد عشر سنوات كان المصريون على وشك الانتهاء من المشروع، حين أعلن **خللو الأعظم** عن بناء العاصمة الجديدة 2. طار الجميع من الفرحة، فها هو **خللو الأعظم** يطلب منهم تكرار ما قاموا به سابقًا، بل ما قاموا به طوال حياتهم وحياة أجدادهم بلا كلل أو ملل، أن يقوموا بتعمير مصر والبناء على أرضها.

ثم قرَّر **خللو الأعظم** بناء العاصمة الجديدة 3 في عشر سنوات، فلما أتم بناءها أمر ببناء العاصمة الجديدة 4 في عشر سنوات أيضًا، واستمر يبني عواصم جديدة حتى اكتملت العاصمة الجديدة 9. حدث هذا في السنة رقم مئة من ألوهيته، في تلك السنة تمَّت عملية تعمير مصر بالكامل، تمَّت إعادة بناء كل المدن كما كانت في الماضي بالضبط، حتى السد العالي أُعيد بناؤه، وخلال المئة سنة ازداد عدد المصريين زيادة هائلة ووصل إلى 3 تريليونات إنسان. ثم أعلن **خللو الأعظم** في السنة الأولى بعد المئة أنه سيقوم بإنجاز تخفيض ثانٍ؛ سيفجِّر السد العالي مرة أخرى لكي يغرق البلد بطوفان خللي ثانٍ ويخفِّض عدد السكان إلى أقل ما يمكن، وكما اعتاد المصريون فقد تلقُّوا خبر إنجاز التخفيض الثاني والطوفان الخللي الثاني بالفرح والحبور، وسار الأمر في المرة الثانية كما سار في المرة الأولى بالضبط، وهكذا دمَّر **خللو الأعظم** كل شيء ليعود فيبنيه مرة ثانية، واستمر يهدم ويبني مصر طوال فترة ألوهيته، فأنجز عشرة إنجازات تخفيض، وأطلق عشرة طوفانات خللية، وهدم مصر وبناها عشر مرات خلال ألف سنة.

قبيل نهاية عصره المجيد، ختم **خللو الأعظم** أعماله بتأليف كتابه الوحيد «إنجازاتو»[23]، وهو الكتاب الذي يحوي ذكر كل ما أنشأ وهدم، كل الإنجازات التخفيضية

وكل الطوفانات الخللية، وأسماء كل من قُتل أو أغرق أو حُبس، لم يضع أي أجزاء من خطبه وحِكمه وآرائه المنطقية الإلهية، لكنه حوى شرحًا تفصيليًا للمنطق الإلهي، لم يفهمه أحد بالطبع وذلك أكبر دليل على أنه إلهي، وأخيرًا خُتم الكتاب بعبارة **خللو الأعظم** التي تمثل جوهر المنطق الإلهي: «أنا إله مصر، إذن أنا إله مصر». ستجد أيها القارئ كتاب «إنجازاتو» موجودًا بالكامل في الفصل الرابع من «كتاب مصر» وهو الفصل الخاص **بخللو الأعظم**، بالإضافة إلى كل ما قال وكتب خلال عصر ألوهيته.

عشرة قرون من السعادة والفرح الخالص عمّت المصريين، بلا هموم أو أعباء، فقط عملٌ واصطفاف وراءه، وسمع بلا حدود، وطاعة كاملة، لقد كان عصر ألوهية **خللو الأعظم** العصر الذهبي لآلهة مصر.

---

(23) لعنوان الكتاب حكاية طريفة؛ كان العنوان في البداية «إنجازاتي»، لكن **خللو الأعظم** بحكمته الإلهية أدرك أن المصري قد يقرأ عنوان الكتاب هكذا: «إنجازاتي»، فينسب إنجازات **خللو الأعظم** إلى نفسه من دون أن يقصد، وهو بالطبع خطأ هائل لا يود أحد الوقوع فيه، فقرر أن يغير العنوان إلى «إنجازاتو» كي يكون قارئ الكتاب في أمان عند قراءة عنوانه.

خِربْتو المطلق
(1725-...)

ثم نأتي أيها القارئ لتاريخ وسيرة الإله كاتب هذه السطور.

نحن **خربتو المطلق** إله مصر الخامس، عملنا في القصر الإلهي طيلة السنوات العشر الأخيرة من ألوهية **خللو الأعظم**؛ في البداية كنا مؤرخًا إلهيًا يدرس تاريخ آلهة مصر من خلال الوثائق والتسجيلات المحفوظة في المكتبة الإلهية، ثم قام **خللو الأعظم** باختيارنا كي نكون مساعدًا وسكرتيرًا شخصيًا، منذ اليوم الأول في وظيفتنا تلك كنًا قريبين منه، نتابع أعماله منذ الخامسة صباحًا حين يبدأ العمل، وحتى الثانية عشرة ليلًا حين يطفئ أنوار المكتب ويذهب إلى حيث لا يعلم أحد، فكما يعلم الجميع هو إله لا ينام. اعتدنا أن نقرأ كل ورقة يقرؤها أو يكتبها، نستمع إلى كل تسجيل يستمع إليه، ونشاهد كل فيديو يشاهده، كنًا واحدًا من عشرات الأشخاص المحيطين به، مساعدين وخادمين، لكنا كنا الأقرب على الإطلاق.

خلال عملنا في القصر اكتسبنا خبرة حل المعضلات بالطرق الإلهية عن طريق متابعة كل حركة يقوم بها **خللو الأعظم**، وعرفنا كيف يُدار القصر الإلهي بكل دقة، لأننا اهتممنا كثيرًا بمكالماته التلفونية، كنا نتنصّت عليها يوميًا، ونستمع إلى المؤامرات والدسائس والإشاعات التي يقوم

بخلقها وتحريكها ونشرها، كي يفكّك خلية من الخونة أو المتعاصين أو الجواسيس، أو كي يُقبض على أحد الطامعين في السلطة أو الفاسدين. كما فهمنا طريقة تفكير المصريين البسيطة الساذجة من خلال الاحتكاك بهم من حين لآخر، وأذهلنا مقدار الجهل الذي يسودهم ويحكم حياتهم، وآلمنا مقدار الغباء الذي وُلدوا به في جيناتهم فلا سبيل إلى الخلاص منه أبدًا، لكننا أدركنا أن آلهة مصر فعلوا الكثير لأجلهم دون فائدة تذكر، وأدركنا حتى قبل أن نصبح إلهًا، أن المشكلة تكمن في المصريين أنفسهم وليس في الآلهة أبدًا، ونحن متأكّدون في هذه اللحظة، تأكدًا ناتجًا من ألوهيتنا، أن مصر ستكون بخير ما دام المصريون جهلة وأغبياء.

تاريخنا السابق على ذلك ليس مهمًا على الإطلاق، وإن ذكرنا منه لمحة صغيرة في مقدمة كتابنا هذا، يكفي أن نقول إننا كنّا واحدًا من ملايين المصريين، ولا ننكر أننا طمحنا إلى الألوهية وسعينا منذ زمن بعيد لنصبح إلهًا.

•••

لا زلنا نذكر ذلك اليوم بكل تفاصيله المختلفة، حتى إننا نذكر وقع خطواتنا على رخام قاعة الاستقبال في الطابق الأول من القصر الإلهي، مشينا بخطوات بطيئة نحو الحمام العمومي، كنّا نفكّر في مشكلة بالغة التعقيد كلّفنا الإله **خللو الأعظم** بإيجاد حل لها، كنّا أيضًا نفكّر أنه يستطيع حلها

بالطبع، لكنه كان معتادًا على تكليف من يعملون معه بحل مشاكل كهذه طوال الوقت، فقط كي نعتاد العمل الإلهي. نذكر كيف دفعنا باب الحمام العمومي المكوَّن من قاعتين كبيرتين إحداهما أمامنا مباشرة تحوي الأحواض، والأخرى على يسارنا مختفية خلف حائط ضخم وتحوي الكبائن والمباول.

نذكر كيف غسلنا وجهنا طلبًا لبعض الانتعاش، ثم غسلنا يدينا بينما ننظر إلى المرآة متأمِّلين جبهتنا الخالية. بعدما أتممنا غسل يدينا، فوجئنا بصوت غامض يأتي من وراء الحائط الفاصل، على الفور استيقظت حاستنا التاسعة، وتحرَّكنا بهدوء نحو الحائط في وضع الاستعداد للهجوم على أي كائن خطر موجود خلفه، بالطبع لم يكن هنالك داعٍ لكل هذا، لكننا شعرنا بشعور شديد الغرابة يحيط بنا ويتوغَّل داخلنا، وبدا لنا أن اليوم سيحمل الكثير من الإثارة على غير عادة العمل الرتيب في القصر الإلهي. حالما وصلنا إلى الفتحة في الحائط قفزنا إلى القاعة الأخرى، في لحظة مسحنا بعينينا القاعة كلها، ست كبائن على يسارنا أبوابها مفتوحة، وست مباول على يميننا، وثلاث مباول أمامنا مباشرة، وشخص واحد يضع رأسه في المبولة التي في المنتصف، كان المشهد مربكًا للغاية، لِمَ يضع أي إنسان رأسه في مبولة؟ إلا إذا كان... أهو **خللو الأعظم**؟ لكن لا، لا يمكن أن يكون هو أبدًا، وتساءلنا لوهلة إن كان هذا مصريًا

مختل العقل تسلَّل إلى القصر في غفلة من الحرَّاس ليضع رأسه في إحدى المباول، وبسرعة نفضنا هذه الفكرة عن عقلنا لأن هذا مستحيل. مدَّ الرجل يده إلى رأسه وأخذ يهزها، استغرقت تلك العملية وقتًا طويلًا، ثم انتصبت قامة الرجل وهالنا التشابه الواضح بين ظهره وكتفيه وبين ظهر وكتفي **خللو الأعظم**، استدار إلينا ببطء، وظهرت ابتسامة الإله **خللو الأعظم** واسعة على غير عادته، كانت ذراعاه متدلِّيتين في استسلام غريب إلى جانبيه، وبدا ظهره منحنيًا قليلًا، ولاحظنا لأول مرة أن الغضون قد اجتاحت وجهه، وتعجَّبنا لأننا لم نلاحظ ذلك من قبل قَطُّ، نظر إلينا الإله قليلًا ثم قال وهو لا يزال يبتسم: «معك منديل؟»، كانت قطرات صغيرة من البول تسقط من قضيبه وتسيل على أنفه وباقي وجهه، لم تبلِّله بالكامل لكنها التمعت في مشهد بالغ الغرابة لم نعتَد أيًّا من تفاصيله، وخلال تلك اللحظات، الإله واقف أمامنا في انتظار منديل، ونحن نقف أمامه في حالة الجهوزية الكاملة، تساءلنا لماذا لم يستخدم حمَّامه الخاص؟ ولماذا يقف وقفة متراخية هكذا أمامنا؟ ولماذا تبدو عليه البلاهة؟ وتساءلنا أخيرًا إن كان ذلك الرجل إلهًا بالفعل. وتذكرنا في لمحة خاطفة الرجل الكافر الذي تنبَّأ بلحظة كهذه منذ سنوات عندما أشار إلينا وقال: «أنتم».

اقتربنا منه بهدوء، مددنا ذراعنا نحو جبهته، والتقطنا

خصيتيه في راحتنا وعصرناهما بعنف شديد، على الفور صدرت عنه حشرجات بائسة تدل على اختناقه، لكن ذراعيه لم تقاوما قَطُّ، أخذ جسده ينهار ببطء شديد حتى استقرت ركبتاه على بلاط الحمام، كل هذا ولا تزال خصيتاه في قبضتنا نعتصرهما بكل قوة، ثم سمعنا صوته خافتًا يأتينا من أسفل، فسحبنا خصيتيه إلى الأعلى بعنف كي نسمع ما يقول بوضوح، ولم نسمع إلا ما يشبه: «ظْلَقْ، ظْلَقْ، ظْلَقْ» ظل يكررها كثيرًا وهو يسعل ووجهه يزداد احمرارًا، ثم تراخى جسده رويدًا رويدًا حتى فقد اتزانه وأصبح معلقًا من خصيتيه، أخيرًا لم نعد نشعر بنبض فيما نعصره بين أصابعنا، فتركنا جثته تسقط.

في تلك اللحظة علمنا أننا إله حقًّا وصدقًا، وعلمنا أن لقبنا سيكون: «المُظلَق».

وهنا علينا أن نشير إلى حقيقة أجّلنا ذكرها كثيرًا كي نضفي هالة من الغموض والإثارة على كتابنا التاريخي هذا، إن الألوهية لا تنتقل من إله إلى آخر بشكل سلس كما قد يُفهم من الفصول السابقة، بل تُنتزع انتزاعًا، ويتم هذا الانتزاع بأن ينفّذ الإله الجديد ما نسميه «الشقلباظ» على الإله القديم. لقد تشقلظ **خايرو الفلاح** على **خيزو الأول**؛ ركب حمارته إلى القصر الإلهي، ثم ربطها في مقبض باب المكتب الإلهي ودخل ليشتبك مع **خيزو الأول** في عراك عنيف، انتهى بأن كسر فقرات من عموده الفقري وجزءًا من

جمجمته، ثم حمل جثته ورماها من الشرفة. وتشقلظ **خخو الشاعر** على **خايرو الفلاح**؛ اقتحم المكتب الإلهي وأطلق عليه رصاصة واحدة تعطَّل بعدها المسدس، ولم يكن يحمل معه ما يمكن أن يستخدم سلاحًا، ولم يجد أي شيء في المكتب الإلهي يساعده على إنهاء حياته، فرفعه على طاولة الاجتماعات وأخذ يمزِّق رقبته بأسنانه بينما كان **خايرو الفلاح** يقاوم بكل قوته، في النهاية عندما سكن جسده تمامًا لم يتوقَّف **خخو الشاعر** عن قطع أجزاءٍ من رقبته بأسنانه وبصقها حتى فصل رأسه عن جسده تمامًا، ثم وقف إلى جانب جثته وهو يلقي أطول قصائده: «لن آكل حنجرتك. فقرات رقبتك صلبة تحت أضراسي. معدتي تحب الزيوت النباتية». كان **خخو الشاعر** الإله الوحيد الذي اختفى دون أن يتشقلظ عليه إله آخر، ثم تشقلظ **خللو الأعظم** على مايتسمَّاش، وها نحن قد تشقلظنا على **خللو الأعظم** فأصبحنا إله مصر الخامس.

إن الشعور بالألوهية يأتي فجأة دون تدرُّج، لا تسبقه سوى لحظات مبهمة وكأنها مقدِّمة قصيرة جدًّا للتغيُّر المفاجئ من حال إلى حال، ونحن بالتأكيد نستطيع أن نشرح هذا الشعور هنا بكل تفصيل، قد نقوم بذلك في صفحات لانهائية أو في كلمة واحدة، لكن كل هذا سيذهب سدى، لأن المصريين لن يفهموا هذا الشعور الإلهي أبدًا، لذلك نفضِّل أن نبدأ على الفور في سرد سيرتنا الإلهية.

•••

لقد نظرنا في أرض مصر فوجدناها عامرة، مليئة بالعواصم والبشر والمباني والإنجازات، فمن سبقنا من الآلهة لم يهتم سوى بالبناء والهدم والهدم والبناء، ووجدنا أن البلد تغصُّ بالمصريين، ووجدنا أن الشعور بالضيق يغمرهم جميعًا من فرط الرفاهية، حتى نحن **خربتو المطلق** إله مصر الخامس أصابنا الضيق.

ونظرنا في أعمال الآلهة الأربعة قبلنا فوجدناها مثال الكمال والعظمة، ورأينا أن مصر تغيّرت بأفعالهم جميعًا، وأن كل واحد منهم ترك شيئًا يدل على عظمته وألوهيته، ونظرنا في المستقبل فوجدناه مشرقًا بالنور المبهر لنا وللمصريين.

ونظرنا للعالم حولنا فوجدناه غامضًا غير مفهوم بالنسبة لنا، فمددنا بصرنا بعيدًا وتأمّلنا فرأينا العالم على حقيقته.

وجدنا كُفريّات عديدة، وجدنا أديان عصر الظلام لا تزال تنتشر بين الناس خارج مصر، وجدناهم يلهون ويضحكون ولا يعملون، وجدنا قادتهم ضعفاء وليس فيهم إله واحد، وجدنا جيوشهم ساكنة لم تدخل في حروب لآلاف السنين، فضاعت قوتهم تمامًا وأصبحوا كالبهائم في حال بائس من كثرة النوم والكسل والجهل والغباء.

ثم قرّرنا أن نور آلهة مصر يجب أن يعم العالم وإن أبى.

فأعلنّا أن كل من على أرض مصر هو مقاتل من أجل نشر

نورنا، وأمرنا أن يتَّجه الجميع رجالًا ونساءً إلى مقار التدريب للاستعداد للحرب، وأمرنا المدرِّبين بأن يبدأوا عملهم على الفور.

بعد خمس سنوات من التدريب صار جميع المصريين مقاتلين أشداء، لا يهابون شيئًا وعلى استعداد للتضحية بأنفسهم من أجلنا، لكننا لم نهمل قَطُّ مصر، فقسَّمنا جميع المصريين إلى قسمين، قسم يبقى في مصر يرعى شؤونها ويدافع عنها ويعمل لأجل راحتنا، والنصف الآخر سيخرج ليغزو ويحارب وينشر نورنا.

خلال الخمسين سنة الأولى من عصرنا أرسلنا نصف المصريين إلى الأفريقيا، حاربنا كل من فيها بلا تمييز، وفرضنا على الجميع الإيمان بآلهة مصر، وسيطرنا على الأموال والأراضي والمصانع والشركات، وأمرنا ببناء المعابد لتخليد اسمنا وأسماء من سبقنا من آلهة مصر، ولما تحقق كل ذلك فرحنا فرحًا شديدًا.

وخلال الخمسين سنة التالية قمنا بالسيطرة على الأوروبا، وفعلنا فيها ما فعلناه في الأفريقيا، ففرحنا فرحًا شديدًا.

وخلال الخمسين سنة التالية غزونا الآسيا وقاتلنا سكانها قتالًا عنيفًا أفنى تسعة أعشار جيشنا، إلا أننا استطعنا في النهاية أن نبيد تسعة وتسعين في المئة من سكانها، وسيطرنا عليها بالكامل، ففرحنا فرحًا شديدًا.

وخلال الخمسين سنة التالية أمرنا بنقل نصف المصريين الموجودين في مصر إلى الأمريكا، كنا نعلم أن عدد سكانها هائل، لكننا لم نهتم بهم وقاتلناهم قتالًا عنيفًا، ففرحنا فرحًا شديدًا، وانتهت الخمسين سنة بفناء المصريين الذين أرسلناهم بالكامل، فغضبنا غضبًا شديدًا، وظلت الأمريكا خارج سيطرتنا.

وخلال الخمسين سنة التالية نظرنا إلى سكان الآسيا فوجدناهم في حال بالغ البؤس، ذهبت عنهم الحضارة وعاشوا في بيوت بدائية من أغصان الشجر، وعادوا إلى الوحشية القديمة فأكلوا ما يسقط من الأشجار وما ينبت من الأرض، وتركوا الصناعة والزراعة والرعي، وانحدرت لغتهم فلم يعودوا يكتبون شيئًا، بل تكلّموا بلغة بدائية ليس فيها سوى الصراخ الحاد والأنين. وللأسف لم نتمكّن من فرض الحضارة عليهم لأنهم أصبحوا غاية في التخلُّف، ووجدنا أخيرًا أنهم أصبحوا مثل الحيوانات، لن يفهم الواحد منهم ما آلهة مصر، وأدركنا أن وجودنا هناك لن يفيدنا أو يفيدهم في شيء، فأمرنا المصريين في الآسيا بالانتقال إلى الأمريكا، وأرسلنا نصف المصريين الموجودين في مصر إليها، وقاتلنا سكانها قتالًا عنيفًا، ففرحنا فرحًا شديدًا، لكن المصريين هُزموا كلهم ولم يعد منهم أحد، فغضبنا غضبًا شديدًا.

وخلال الخمسين سنة التالية نظرنا إلى الأوروبا ووجدنا

سكانها وقد أفنوا بالكامل، ورأينا أن حال سكان الآسيا أفضل فهم لا يزالون أحياء، ووجدنا أن أرض الأوروبا لم يعد فيها شيء؛ لا حيوانات أو طيور أو ذباب أو صراصير أو بكتيريا، حتى النباتات ماتت وعادت أرضًا قاحلة كما كانت قبل البشر، فتركناها غير نادمين ونقلنا المصريين منها إلى الأمريكا، وقاتلنا سكانها قتالًا عنيفًا، ففرحنا فرحًا شديدًا، لكن المصريين هُزموا كلهم ولم يعد منهم أحد، فغضبنا غضبًا شديدًا.

وخلال الخمسين سنة التالية نقلنا كل المصريين في الأفريقيا إلى الأمريكا، بالإضافة إلى نصف المصريين في مصر، وقاتلنا سكانها قتالًا عنيفًا، ففرحنا فرحًا شديدًا، لكن المصريين هزموا جميعًا، فغضبنا غضبًا شديدًا.

وخلال الخمسين سنة التالية ازدادت حماسة المصريين كثيرًا، وطالب الجميع بالذهاب إلى الأمريكا لقتال سكانها، وأعلنوا أنهم على استعداد تام للموت في سبيل نشر نورنا، نذكر جيدًا الرسالة التي جاءتنا في ذلك الوقت وجعلتنا نمتلئ بالفخر، أرسلها أحد المصريين المخلصين، سنضعها في كتابنا هذا كي تعلم أيها القارئ كيف يحب المصريون إله مصر: «إلهي، إني على استعداد كامل وجهوزية مطلقة للانتقال إلى الأمريكا لقتال سكانها حتى يخضعوا لكم، وأطلب من ألوهيتكم أن أنقل معي زوجتي وأبنائي وجميع أقاربي حتى والدي المسن، كي أضعهم خلفي في ميدان

القتال ليسندوا ظهري ويقاتلوا معي، فلا يمر سكان الأمريكا إلا على جثثنا جميعًا. لقد قمت ببيع جميع ما أملك للذهاب للقتال والموت هناك إن لزم الأمر، ونحن جميعًا الآن نعيش في خيمة أمام القصر الإلهي في انتظار أمركم بالتحرُّك لقتال سكان الأمريكا وفرض نوركم عليهم».

لقد تحرَّك قلبنا عندما قرأنا تلك الرسالة، وأمرنا بنقل المصري الشجاع مع أسرته إلى الأمريكا، وعلمنا بعد ذلك أنه قاتل قتالًا عنيفًا، ففرحنا فرحًا شديدًا، لكنه هُزم مع جميع مَن رافقه، فغضبنا غضبًا شديدًا.

وطلب جميع المصريين أن يذهبوا مع أسرهم إلى الأمريكا اقتداءً بالمصري الشجاع، فأمرنا بنقل نصفهم مع أسرهم، وقاتلوا قتالًا عنيفًا، ففرحنا فرحًا شديدًا، ثم ُهزموا جميعًا مع كل مَن رافقهم، فغضبنا غضبًا شديدًا.

وفي الخمسين سنة التالية أرسلنا نصف ما تبقى من المصريين مع عائلاتهم إلى الأمريكا، مرة تلو مرة، كل مرة نرسل نصف ما تبقَّى مع أسرهم، وفي كل مرة كانوا يقاتلون قتالًا عنيفًا، فنفرح فرحًا شديدًا، ثم يُهزمون جميعًا، فنغضب غضبًا شديدًا.

واليوم، ونحن نتذكَّر سنوات حكمنا الخمسمئة العامرة بالنور، وننظر إلى الأرض فنرى الأفريقيا خالية، والأوروبا خالية، والآسيا تعيش عصرًا وحشيًا بدائيًا، والأمريكا تعاني بسبب المصريين الشجعان وعائلاتهم، نرى كل ذلك ونطمئن

إلى صنيعنا الإلهي. لقد أكّدنا بالفعل على قدرتنا على تحويل المصريين إلى مقاتلين، وعلى قدرتنا على أن نقاتل، وقدرتنا على أن نُهزَمَ، وعلى أن نقوم مرة أخرى لنقاتل ثم نُهزم، وهذا هو جوهر الإنسان المصري؛ فما هزيمة المصري ونصره إلا انعكاس لفرحنا وغضبنا.

•••

لقد قل عدد المصريين كثيرًا خلال الأيام الأخيرة، حتى لم يعد في مصر إلا اثنان فقط، حارسنا الشخصي ومصري يُدعى عبخربتو برعي. فقررنا أن نرسله إلى الأمريكا ليحارب هناك فنفرح فرحًا شديدًا، ثم يُهزم فنغضب غضبًا شديدًا.

تركنا مكتبنا الإلهي وخرجنا إلى باحة القصر الخالية، حيث وقف حارسنا الشخصي على يمين البوابة، ووقف عبخربتو برعي في منتصف الباحة الخالية منتظرًا الأمر بالتحرُّك، وقفنا أمامه وتلونا عليه أمر التحرُّك من الورقة التي معنا، ثم حيانا بصرامة يُحسد عليها، ففرحنا فرحًا شديدًا، أعطيناه الإذن بالتحرُّك، فتحرَّك بالخطوة السريعة ليقطع باحة القصر الإلهي الواسعة ويخرج من البوابة الرئيسية في طريقه إلى الأمريكا.

استدرنا عائدين ونحن نفكِّر في موعد إرسال حارسنا الشخصي نفسه إلى الأمريكا، ربما غدًا أو بعد غد نوقِّع أمر التحرُّك. يا لها من سنوات طويلة قضيناها نوقِّع الأوراق

فيُنقل المصريون إلى كل أنحاء العالم لنشر نور إله مصر فوق جميع أديان عصر الظلام والآلهة المزعومة، لنؤكِّد ألوهيتنا على جميع الشعوب.

قبل أن ندخل إلى القصر، نظرنا إلى حارسنا الشخصي فوجدناه واقفًا الوقفة القتالية المعتادة، صرامة وانضباط، التزام وإيمان، شجاعة ودقة، وفكَّرنا أننا كنَّا ناجحين إلى أبعد حد ممكن، إننا أنجح إله مصري على الإطلاق، فقد حاربنا حربًا حقيقية إلى درجة أن عدد المصريين انخفض إلى واحد فقط، وفرحنا فرحًا شديدًا، فهذا نجاح آخر يضاف إلى قائمة نجاحاتنا. ووجدنا أن تذكُّر كل هذه النجاحات مناسبة طيبة للحديث معه، فاقتربنا منه وابتسمنا ابتسامة ألوهية فرد الابتسامة إلينا، ففرحنا فرحًا شديدًا.

أسند حارسنا سلاحه إلى الحائط، وأخذ يفتش في جيوبه عن شيء ما، تعجَّبنا كثيرًا لأن هذا فعل غير معتاد من أي مصري، ثم أخرج علبة سجائر وفتحها وأخرج نصف السيجارة منها بطرف إبهامه، كانت ابتسامته ودودة جدًّا، لكن نظرة عينيه أثارت شكوكنا، ثم أدركنا بعد إطالة النظر إلى عينيه وابتسامته أنه يسخر منا، قرَّب العلبة منَّا وعرض علينا:

- سيجارة يا خربتو

1

البلاط بارد تحت قدمي إسماعيل نوح، السيجارة بين إصبعيه توشك أن تنطفئ ولا يجد موضعًا ليطفئها، يمسكها بيمناه ويتلفت حوله باحثًا، الغرفة نظيفة وواسعة، نور الشمس يأتي من النافذة ساطعًا، مرتبة السرير باردة وليِّنة تحت فخذيه، يده اليسرى تتحسّس الغطاء الناعم، يقوم ويتجه نحو النافذة، يفتحها فتأتيه ضوضاء خفيضة جدًّا من بعيد، يرمي عقب السيجارة إلى الحديقة الواسعة أمام النافذة، تبدو الصورة أمامه وكأنها مكوَّنة من لونين فقط، أخضر يحتل الثلث الأسفل، وأزرق يحتل الباقي، نور الشمس يغمره، يخطو خطوتين إلى الخلف فيغيب عن جسده، يفرد كفيه في النور ويتذكَّر ملمس الدفء على جلده، يقلبهما ويتأملهما طويلًا، شعرات سوداء قليلة وسط الشعرات البيضاء، وبقع صغيرة غامقة تنتشر على ظاهر كفيه، يضع يمناه على الحائط القريب، بارد.

يمشي نحو باب الغرفة، قبل أن يخرج يلتفت نحو النافذة ويرى النور الذي تركه للتو.

الممر طويل تنيره مصابيح عديدة، خالٍ وأبيض، وكرسيٌّ بسيط في آخره. يظهر رجل في آخر الممر متقدِّمًا نحوه. ثم يظهر آخر خلفه وتتسارع خطواته بعد أن رآه، يركِّز بصره عليه، ترهق عيناه بسرعة فينظر إلى الأرض

ويغمضهما بقوة، يعود فيفتحهما خائفًا، قد يختفي كل هذا إن أغمضهما مدة طويلة. يدرك أنهما قادمان إليه، يعود إلى الغرفة ويجلس على السرير.

الاثنان بزيَّين أبيضين، يفهم أن الأول ممرض والثاني طبيب، يحييه الطبيب فيرد، يسحب كرسيًا ويقعد أمامه، يسأله عن حاله فيرد. بدا له أن الطبيب لا يعرف كيف يبدأ الكلام، يسأله إن كان يميز ما المكان.

- هذا مستشفى، وأنت طبيب.

- جيد، هلَّا عرَّفتني بنفسك؟

يتحيَّر قليلًا، أيذكر اسمه بالكامل أم مجرد اسمه الأول، قال إن الطبيب يعرفه حتمًا، هو فقط يتأكد من أنه يعرف اسمه، دون تفكير كثير قال:

- إسماعيل نوح. أنا أستاذ في آداب القاهرة، قسم تاريخ.

- طيب يا دكتور، أتعلم لِمَ أنت هنا؟

كل الأشياء بيضاء مبهرة حوله، عيناه معتادتان الآن على النور الساطع، حاول أن يتذكر الدقائق السابقة لكنها كانت بعيدة وغائمة، آخر ذكرى وهو يمشي في الشارع؛ أشجار كثيرة تظلله، الجو بارد وهو متعرِّق. لا شيء له علاقة بالمستشفى والطبيب، يحاول مرة أخرى لكنه لم يتذكَّر شيئًا، الطبيب ينتظر.

- أنا مريض، ربما القلب؟

- القلب بحالة جيدة، أنت هنا لأسباب أخرى.

الطبيب بلا سمّاعة، الممرض لا يحمل جهاز قياس الضغط، ينظر قرب رأس السرير فلا يرى أي محاليل معلّقة إلى جانبه. لا أدوية على الطاولة الصغيرة هناك. يفكّر أنه في مستشفى من نوع آخر.

- هذا مستشفى مجانين؟

يستقيم ظهر الطبيب، ينظر إليه باهتمام.

يقوم مرة أخرى ويتّجه نحو النافذة، يلاحظ للمرة الأولى القضبان الحديدية السميكة، يمسك اثنين، إنهما دافئان بفعل نور الشمس، وكثيرون يمشون في الحديقة أمامه، عمارات عالية بعيدة خارج السور.

- هذا مستشفى للأمراض العقلية؟

يشير الطبيب برأسه للممرض، يقترب منه ويعطيه كوبًا ورقيًا صغيرًا فيه حبتا دواء، متردّدًا يتناولهما، ويشرب جرعة ماء.

- هذا سيساعدك أن ترتاح، نعم، أنت في مستشفى للأمراض النفسية، أنت هنا منذ مدة للعلاج والراحة.

فجأة يتذكّر سارة.

- هل ستأتي زوجتي؟ اتصل بها.

ويتذكّر ابنه كريم أيضًا، طفلًا صغيرًا ملامحه ضبابية.

- يجب أن تستريح قليلًا، لا تتعجل.

- سأتمدّد.

يعود ببطء نحو السرير، يستلقي عليه، يقف الطبيب

ويبدو طويلًا جدًا.

- لا تذهب، منذ متى أنا هنا؟

يقترب الممرض منه بهدوء، يحمل مرآة بين يديه. يقول الطبيب:

- انظر إلى نفسك، هل تذكر آخر مرة حلقت ذقنك؟

يمرر أصابعه على وجهه ومن الملمس يعرف أن ذلك كان منذ أيام قليلة، الشعر ليس طويلًا جدًا لكنه يحب ذقنه ملساء دائمًا، اعتاد أن يحلقها كل يوم صباحًا.

في المرآة وجه قريب الشبه منه، للحظة فكَّر أن هنالك خطأً كبيرًا، هذا ليس وجهه، ثم عرف أنه وجهه من لمعة عينيه واتساعهما، رفع شفتيه وأزعجه غياب أسنان كثيرة، لكنه ميَّز البقية من أشكالها وتشوُّهاتها. عاود النظر إلى وجهه ولاحظ الغضون الكثيرة، أنفه أكبر، خداه متهدِّلان، الجلد ينخفض تحتهما، جبهته متجعِّدة، شعر رأسه انحسر كثيرًا.

- أنا هنا منذ مدة، خمس سنوات، ست، لا أذكر متى دخلت.

يأخذ الممرض المرآة، يضع يده على كتفه ويساعده ليفرد ظهره على السرير، يغطيه فيشعر بالغطاء البارد على قدميه ورقبته، يرتجف ارتجافة خفيفة.

- يجب أن ترتاح الآن، غدًا نتكلَّم.

ينظر نحو النافذة، الممرض يغلق المصراعين الزجاجيين

نصف المعتمين. يتسلل شعاع نور قبل أن يغلقا بالكامل، يجلس فجأة ويمد ذراعه ليمسكه.

- اطمئن، كل شيء على ما يُرام.

يفرد ظهره مرة أخرى على السرير، قلق قليلًا لكنه يريد أن يرتاح الآن، سيستيقظ غدًا ويغادر إلى البيت. يغمض عينيه فتغمره راحة هائلة، يغيب الشعور بالوسادة والسرير والغطاء رويدًا رويدًا، ينسى وجود الطبيب والممرض.

•••

حالما يستيقظ يفكّر فيما حدث، يتحرّك أسرع قليلًا ويفتح الباب، ممرض آخر جالس في الخارج، يطلب منه أن ينتظر قليلًا.

يغيب دقائق ويعود طالبًا منه أن يمشيا معًا، يلاحظ أن الممرض يبتسم له من دون سبب، ينظر إلى الأمام ويتجاهله.

في الغرفة الواسعة يجلس الطبيب على كنبة وثيرة، ويجلس هو على الكرسي أمامه.

- كيف الحال يا دكتور، هل نمت جيدًا؟

- نعم، أظن ذلك. لكن هناك أسئلة كثيرة.

- هذا طبيعي، أنت مريض قديم لدرجة أنك أصبحت صديقًا.

- مرت ست سنوات؟

- أكثر قليلًا، حاول أن تتذكّر.

- عشر؟ خمس عشرة؟

- أكثر، ربما أساعدك قليلًا، ما آخر ذكرى؟ هل تذكر يوم مجيئك؟

لا يتذكّر شيئًا، فقط المشي في الشارع، نظر إلى محلات على يمينه، وبلاط الرصيف، لا أحد معه.

- لا، أذكر أني كنت أمشي في الشارع، لا أعلم إن كان هذا يوم مجيئي هنا.

- أي شارع؟ أي منطقة؟

أشجار كثيفة، وسيارات كثيرة مركونة إلى جانب الرصيف، صفان شبه متلاصقين من السيارات، الرصيف يضيق جدًا، ورجل هرم بعينين ضيقتين وملابس بسيطة يقعد على كرسي أمام جراج، يتسع الرصيف فجأة ويرى علب بلاستيك مملوءة بماء نظيف موضوعة قرب جدار مبنى، وُضعت كي تشرب منها قطط الشارع، شجرة كبيرة تظلله، الجو بارد ونور الشمس لا يصل إلى الشارع، يتفرّع شارع آخر نحو اليسار ويمضي فيه.

- جاردن سيتي.

- هل كنت في جاردن سيتي؟ هل تذكر اسم الشارع؟

- لا أذكر اسمه، لكني أذكر أن كل شيء راح بعدما دخلت الشارع الفرعي. كل شيء راح تمامًا.

- حاول أن تتذكّر، هل هناك أي شيء حدث بعد ذلك؟

- لا، أنا متأكد أن كل شيء راح، اختفى.

- لا تذكر حتى متى كان ذلك؟

- لا.

- ألا تعرف اسمي؟

- اعذرني، ما اسمك؟

- أنا هادي عبد الله.

- أهلًا، طيب أنا أعرف جيدًا أني هنا منذ مدة طويلة، ويبدو أنك لا تريد أن تصدمني.

- نعم.

- أرجوك.

- على كل حال أنت الآن في مرحلة ممتازة، عبرت مرحلة الخطر تمامًا، ربما تعود، لكننا سنعمل على أن تظل معنا.

أقلقته كلمة «الخطر»، أقلقه عزوف الطبيب عن الكلام الواضح. نظر إليه يستجديه.

- أنت هنا منذ عشرين سنة.

فجأة تعاوده ذكرى سارة، جسدها وملامحها، ملابسها المحببة، تختار نمطًا معينًا من الملابس، على عكسه، تمشي وكأنها تطفو على الماء.

يتشاجران كثيرًا، هي غاضبة جدًا، تبكي بصمت عندما تعجز عن الاستمرار في مواجهته. هو عنيد ولا يريد أن يلين، في يوم ما فكّر أن يكتب اتفاقًا لحل كل المشاكل، نقاطًا محددة وواضحة وقصيرة، يشتركان معًا في كتابتها، دستورًا، عقدًا، ثم يوقّعان معًا. بدت له فكرة سخيفة

حينها، وتبدو له فكرة سخيفة الآن، دكتور تاريخ يسيطر عمله عليه. لكن كل شيء يتغيَّر. ما أحبه أثناء حياتهما معًا هو النظام، نظام صارم ولا شيء غير ذلك.

يسأل الطبيب:

- نحن في أي عام؟

- عام 2040.

تتجمد عينا إسماعيل تمامًا، يسأل الطبيب بخفوت:

- يعني عمري 64 سنة؟

- نعم.

يقوم الطبيب ويأتي بمجموعة أوراق من على مكتبه، يعود إلى كنبته ويضع الأوراق بينهما على الطاولة.

- طبعت هذه الأوراق البارحة، توقَّعتُ أن تكون ذاكرتك مشوَّشة قليلًا، هذه صور من صحف صدرت منذ مدة طويلة، أنا أذكر الأحداث كلها لأني كنتُ شابًا، أنت أيضًا كنت كذلك لكن أكبر وأنضج مني، وكنتَ في قلب كل الأحداث، أنت شاركت على عكسي. بالطبع حدثت لك تغيرات عديدة خلال السنوات التالية، أنت مؤرِّخ، تفهم ما أعنيه حتمًا.

تمر عيناه على الورقة الأولى، صفحة أولى من الأهرام، العناوين واضحة لكن متون الأخبار نفسها مكتوبة بخط صغير، يقرأ لكن عينيه ترهقانه بعد ثوانٍ، فيعود لقراءة العناوين فقط.

- حالتك معتادة بالنسبة لنا الآن، لم تكن كذلك حينما جئت إلينا، الطب النفسي تقدَّم كثيرًا خلال السنوات العشرين الماضية، حاول الكثيرون علاجك على الرغم من أن الأمل كان مفقودًا في البداية. أنت بالذات كنت حالة خاصة جدًا، منذ أعوام وجميع من عالجك متأكد من أن حالتك بدأت قبل أن تأتينا بمدة، حسب السجلات أنت دخلت مستشفى العباسية أول مرة عام 2020، لكن من الواضح أن ضلالاتك بدأت تقريبًا عام 2016، عرفنا هذا بعد دراسة مدققة لكل ما كتبت خلال تلك السنوات.

- أربع سنوات.

- نعم، أربع سنوات من دون متابعة أو علاج، وربما هذا أدى إلى تثبيت الضلالات في عقلك.

يومئ الطبيب برأسه إلى الأوراق بينهما بسرعة ثم يعيد النظر إليه ويقول:

- هذه الأوراق ستساعدك لتتذكَّر، هذه أفضل طريقة، جربناها مع مرضى كثيرين وهم الآن بخير حال. لكن التعافي مرهون بك، برغبتك.

يقلب إسماعيل الورقة الأولى ليجد صورة صفحة أولى أخرى من الأهرام، يقرأ العناوين، أخبار معتادة جدًا، كان يعلم أن الأخبار تتكرَّر في الصحف، الناس ينسون ما يقرأونه، ومع الوقت تترسخ الأخبار في الذاكرة فيشعرون بالملل قليلًا، ثم يشعرون بالاطمئنان لأن لا جديد. خدعة

يعرفها جيدًا.

- كل من كانوا في مثل حالتك تعافوا تمامًا الآن، لسبب ما أنت أكثر مريض قاوم العلاج، لا نفهم لماذا، أرجو أن تقبل على التعافي التام، لا تيأس أبدًا وتطلَّع دائمًا إلى المستقبل، حتى إن رأيت أن التغيير حولك كبير وغير متوقَّع، لا تيأس أبدًا.

يرفع رأسه عن الأوراق، التغيير كبير بالفعل مع أنه لم يعلم ما حدث بعد. وجه الطبيب لم يعد محايدًا كما كان منذ دقيقة، يبدو عليه الإشفاق، يبدو حزينًا، يعلم تمامًا أن الحياد ضروري كي يطمئن المريض، مهم أيضًا بالنسبة للطبيب نفسه، كي تستمر حياته طبيعية، لو اهتم الطبيب بحالة كل مريض سيُجن.

- نحن بانتظار صديقة قديمة، زوجتك الأولى، هل تذكر اسمها؟

مريم، كان يقول لها دائمًا أنا المسيح وأنتِ مريم المجدلية، وهي تضحك وتقول له إنه لو كان مسيحيًا لراح في ستين داهية.

- دكتور إسماعيل؟

- اسمها مريم، أتذكرها جيدًا، انفصلنا منذ سنوات عديدة.

- طيب، ستكون هنا خلال دقائق.

- سارة ماتت؟

الآن يبدأ في توقُّع الأسوأ.

- تعيش أنت، سرطان لم يمهلها.

يستمر في توقُّع الأسوأ:

- وكريم مات؟

- الله يخليه، هو في أمريكا الآن، سافر منذ سنوات.

ولوهلة يفكر أن كل من عرفهم ماتوا ما عدا ابنه.

- من بقيَ حيًا؟

لا يسمع من الطبيب ردًا، ويفكر أنه تسرع لأن السؤال نفسه غير منطقي، الطبيب لا يعلم كل شيء عن حياته الشخصية، يتخيَّل أنه ربما يعرف زوجته وابنه فقط لأنهما كانا يزورانه، عشرون سنة وأملهما يتضاءل، يتخيلهما يأتيان معًا ويجلسان بقربه، يطعمانه، وهو ينظر إليهما ولا يعرفهما، مريم بكت في الزيارات الأولى، لكنها اعتادت مع مرور الوقت، وكريم الصغير مذهول يحدق في وجهه، هو يدير عينيه في الغرفة كأنه يبحث عن شيء، عيناه تصطدمان بعيني كريم، لامعتان مثل عينيه، ثم ينفجر في البكاء ولا سبيل لإسكاته، أحدث كل هذا حقًّا؟ يبتسم لثوانٍ، لكن كل شيء راح.

- ماذا حدث؟

يبدو له وكأن الطبيب عاجز عن الإجابة، يحاول بقدر ما يستطيع لكن الإجابات صعبة. يعيد النظر في الورقة أمامه، يقلبها ويقرأ غيرها، تغير طفيف، تغير حاد، تذبذب، أخبار غير معتادة بالمرة، والناس ينزلون إلى الشارع، والفوضى

تعم، ويحتلون ميدان التحرير، يفكر أن الناس كانوا خائفين من التغيير الحاد.

انهار عليه تيار باذخ يصف بالتفصيل كل ما حدث؛ كل شيء يتضح وكأنه حدث أمس، والذهول ينتابه فلا يبقي على أي طمأنينة، والآمال لا حدود لها في لحظة هائلة، وفكّر أنه سيكتب ويكتب، سيكتب كل شيء، وتلاشى المؤرخ وبزغت الفرحة بلا حدود ولهث من فرط الانفعال، ورأى نفسه يمشي وسط الزحام، والناس أمامه بلا عدد، والهتاف يأتيه قويًا بلا خوف، وهتف معهم بكل قلبه، ورأى صدره ينفتح وهو يخرج منه بعد أن ظل حبيسًا، ورأى نفسه يرتفع فوق الناس، ويحلق فوقهم بمسافة قريبة جدًا، ثم علا فوق الجميع حتى وصل إلى سواد الفضاء الواسع، ورأى مجرّة في الفضاء بعيدة حمراء، واقترب منها كثيرًا، وعلا فوقها كثيرًا واستمر يعلو متسارعًا، واقترب من مكان لا يوجد له مثيل، لم يصل إليه شيء من قبله، وقبل أن يصل بلحظة عاد يسقط، سُحبَ إلى أسفل وهو لا يعلم ما الخطأ، ماذا فعل ليستحق السقوط.

- ماذا حدث؟

تأتيه الذكرى تحمل قدرًا هائلًا من السعادة لكنها الآن تحزنه كثيرًا، المسيرة ضخمة والناس يهتفون، صالح إلى جانبه بهدوئه البالغ يبتسم بسعادة لامتناهية، سأله شاب بعدما تعرّف عليه: «متى ستكتب تاريخ ما يحدث؟»، ثم

التفت إلى إسماعيل وسأله السؤال نفسه، لم يجد سوى إجابة علمية جافة فقرر أن يصمت، لكن صالح قال للرجل: «سنكتب معًا».

- الآن أتذكّر، هل صالح سليمان حي؟

- تعيش أنت، منذ مدة طويلة.

- كان مريضًا؟

- قُتل، أقاويل كثيرة انتشرت حينها، ولأنه مات في أمريكا شوّهوا سيرته تمامًا.

- قُتل؟ من يمكنه أن يفعل هذا، صالح قُتل؟ هل قتله لص؟

- لا، لا أحد يعلم، يقول الكثيرون أنه اغتيل.

- صالح؟ متى حدث هذا؟

- كنتَ في الخارج حينها، لم تأتِ إلينا بعد، كيف لا تذكر الحادث؟

- لا أعرف، لا أذكر شيئًا كهذا، آخر ما أذكره أننا ابتعدنا عن بعض كثيرًا، أنا بقيتُ وهو سافر.

- ألا تذكر أي حدث مهم قبل دخولك المستشفى مباشرة؟

لا يرد، لا يذكر شيئًا، يستمر الطبيب:

- أحاول أن أعرف متى توقّفتَ عن التذكر، متى بدأت الحالة بالضبط، يبدو لي الآن أنها لم تبدأ قبل أن تأتينا مباشرة، بل ربما قبل ذلك بشهور أو حتى سنوات.

يتذكّر أن حالته لم تكن مستقرة تمامًا، عصبية زائدة،

الكثير من السجائر والكحول، حشيش أحيانًا، شجار مستمر مع سارة، قرأ كثيرًا وكتب كتابًا جديدًا.

- كنتُ قد نشرتُ كتابًا، «فصام أمَّة»، آخر ما كتبت.

- آخر كتبك؟ «فصام أمَّة» ليس آخر كتاب، بعده كتبت عدة كتب، ألا تذكر «يقظة أمة»؟

- لا، أنا لن أستخدم كلمة سخيفة مثل «يقظة» في عنوان كتاب بالتأكيد.

- للأسف هذا ما حدث، وكتاب «فصام أمة» لم يعد موجودًا منذ مدة طويلة، لا أذكر متى صدرت الطبعة الأولى بالتحديد.

- أتذكر جيدًا أنها صدرت في عام 2015، ربما في أكتوبر أو نوفمبر، هل كتبت كتبًا أخرى بعده؟

- نعم، بالإضافة إلى «يقظة أمة» هناك «ضرورة الدكتاتورية».

- ماذا؟ ما هذا العنوان؟ ما محتواه؟

- نظريتك الشهيرة، ضرورة الدكتاتورية كطريقة للحكم أفضل من الديمقراطية.

- هذا ضد أفكاري تمامًا.

ويفكر أن أشياء كثيرة قام بها في تلك الفترة كانت ضد أفكاره ولا يتذكرها، ينتظر توضيحًا من الطبيب، لكنه يسأله:

- ألا تذكر شيئًا آخر؟ حادثة شهيرة مثلًا؟ خبرًا دوليًا

مهمًّا؟

تذكر الشاب الذي قتل قريبه، وفي نوبة عصبية أكل جزءًا من أمعائه، لا يزال يذكر الصورة على الإنترنت، جثة على الأرض ورجل يقف إلى جانبها، الجثة ووجه الرجل مموّهان لا يمكن رؤية تفاصيلهما، الرجل يضع يديه في جيبيه، يشعر بالبرد، لامبالٍ، الصورة فقط ما بقي في ذاكرته، الولد البردان.

- جريمة عنيفة في المنصورة، شاب يقتل صديقه أو قريبه ثم يأكل جزءًا منه، أصابني الرعب.

- لا أذكرها، كثرت حوادث القتل العنيف في تلك الفترة، لكن أظن أني سمعت شيئًا كهذا في 2015 أو 2016، قبل أن تأتينا بسنوات. هل تذكر شيئًا بعدها؟

- نعم، كلام كثير معتاد حول الخبر، لماذا حدث وكيف نتجنبه، ولوم للقاتل واتهامات بالجنون، وبعد أيام انعطفت في الشارع، بعدها كل شيء راح.

- أين كنت؟

- قلت لك في جاردن سيتي.

- لا أقصد حينها، بل قبل أيام، أين كنت تعتقد أنك موجود قبل أن تعود إلينا، هل كان المكان حولك مظلمًا؟ هل كنت نائمًا؟ بلا وعي؟

- لا أعرف، لا أذكر أصلًا، أنا مرهق.

- لا تهتم، انسَ الموضوع الآن، ستتذكره مع الوقت، هل

تريد أن تتابع القراءة؟

- أتذكر الكثير الآن، تفاصيل قليلة جاءتني، هناك ثغرات كثيرة جدًا، لكن أظن أني كنت سأنساها لو عشت حياة طبيعية، ما يسقط من الذاكرة في العادة. المشكلة ليست فيما سبق، المشكلة في أني لا أذكر أي شيء من العشرين عامًا السابقة، لا أذكر أني عشت هنا أصلًا.

- لا تهتم، سنواتك هنا طويلة بالفعل، آسف على أننا لم نعالجك مبكرًا، لكن على الأقل أنت تذكر بعض ما حدث قبلها.

يتذكَّر أنه كان يراجع المسوَّدة الأخيرة من الكتاب، لم يرسله إلى صالح كما اعتاد، قرر أن ينهي الصداقة تمامًا، وصالح بدوره لم يرسل بحثه الأخير ليقرأه. حين أمسك النسخة المطبوعة حزن قليلًا، اعتاد أن يهدي النسخة الأولى من كل كتاب إليه، كانا يذهبان معًا إلى مكتبة ويشتريها صالح ثم يوقِّعها هو ويشعر دائمًا بالسعادة حينما يعيدها إليه، كان يسميه «صالح اللامع»، للحظة يندم على كل ما راح منه، صالح اللامع وسارة وكريم وسنوات عديدة.

- لا، الآن أنا متأكد، كل شيء يعود، حتى الآن لا شيء سيئ، لكني أخشى كثيرًا القادم.

- ما القادم؟

- أخشى ما بعد أن انعطفت. أعرف أنني كنت هناك في

مكان بعيد، لا أذكره الآن وأخشى أن أذكره، أعرف أنه مخيف.

- ربما، هذا سنعرفه معًا.

- لا أريد.

- وربما لا تتذكَّره أبدًا، وربما هذا أفضل لك، صحيح أني لا أعلم أين كنت، لكننا جميعًا نعلم تمامًا ماذا كنت تعتقد.

- ما معنى هذا؟ ماذا كنتُ أعتقد؟

- كنت تعتقد نفسك شخصًا آخر.

وبابتسامة صغيرة ساخرة يسأل:

- من؟ نابليون؟

يتذكر إسماعيل ياسين وهو يتكلم مع من يظن نفسه نابليون في الفيلم الشهير، كانا أيضًا في مستشفى المجانين.

- لا، شيئًا آخر، شخصية أخرى.

- أخبرني، كنت أظن نفسي شخصًا آخر طول الوقت؟ أعني أني لم أفِق قطُّ؟ لم أعد نفسي قطُّ؟

- ظللت هكذا طوال عشرين عامًا هي فترة مكوثك في مستشفيات نفسية متعددة، ويظن معالجوك السابقون أنك كنت في الحالة نفسها قبل أن تأتي إلينا بعدة سنوات، ألا تريد أن تجرِّب؟ اختر شخصية شهيرة تحبها.

يتذكر هيجل، كان يحب عمله كثيرًا.

- هيجل؟

- لا.

- من إذن؟

- كنت تظن نفسك إلهًا.

- نعم؟

- نسميها «عقدة الإله»، حالة متطرفة من حب الذات.

- يعني كنت أظن نفسي الله؟ كيف هذا؟

- ليس كذلك بالضبط، كنت تظن نفسك إلهًا لمصر فقط، نسميها «ضلالات».

- كنت أظن نفسي آمون؟

- لا، الأمر معقَّد.

يطرق إسماعيل، يتعجب من الإرهاق الذي يصيبه فجأة، يريد أن ينام، لكن مريم قادمة ويجب أن يراها.

- هل ستتركني أذهب مع مريم؟

- إن أردت أن تخرج الآن فلا مانع، لكن أفضِّل أن تبقى معنا يومًا آخر.

يفكر في أنه سيقول له ذلك كل يوم، ابقَ معنا يومًا آخر، إلى الأبد.

- هل هناك أي شيء مطلوب مني؟

- سأتركك قليلًا تتصفح الأوراق، وسأخبرك بما ستفعله بعد أن تخرج، هذه بعض الصفحات الأولى من الأهرام، بشكل ما، يمكنك أن تقرأ تاريخ البلد كلها من خلال مانشيت الأهرام اليومي، مريم على وشك الوصول.

لا يقتنع إسماعيل بكلام طبيبه، يفكر أنه كان ملحدًا منذ مدة طويلة، كيف يؤمن بأنه إله إن كان ملحدًا؟ يصمت تمامًا ويحترم الطبيب صمته، ويفكر أنه مؤمن بشكل أو بآخر، لا تزال لمحات إيمانية تتسرب إلى عقله، من سوء حظه أنه آمن بنفسه. طرقات خفيفة على الباب تجعله يفيق من تأملاته، يخفق قلبه بقوة الآن، مريم على وشك الدخول.

2

نوح - والد إسماعيل - كان نحّاتًا فاشلًا، في الأصل هو موظف حكومي عادي، واحد من ملايين، عاش مع عائلته في فيلّا صغيرة في المعادي ورثها عن والده. لكنه للأسف ظن أنه فنان حقيقي، كان يستطيع عمل تماثيل صغيرة لأشخاص وحيوانات ومبانٍ وأشياء، سمَّاها «مينيسكيورات»، ويبدو أنه استمر يصنعها دون أن ينتبه إلى أنها أشياء بلا قيمة، كانت تماثيله صغيرة، الواحد بطول عشرة سنتيمترات؛ فلاحة واقفة تحمل مشنَّة خضار، فلاحة تحمل بلاصًا، عسكري شرطة بشارب كبير، وتهوَّر فصنع تمثالًا لامرأة عارية تضع يديها في جنبيها وتبرز ثدييها، ظل ينظر إليه ويبتسم من جمال اللمحة الجنسية البادية على التمثال. كان يمكن لأعماله أن تُباع للسياح بأسعار جيدة نسبيًا، كان من الممكن أن يتحول النحات نوح إلى فنان شعبي يصنع الكثير من النسخ الصغيرة لمينيسكيوراته، لكنه قرر أن يكون فنانًا، يصنع قطعة مينيسكيور واحدة مميزة فقط لكل شخصية، ثم يصنع قطعة أخرى لشخصية أخرى وهكذا، فنان كبير مثل سلفادور دالي، وليس فنان شعبيًا حقيرًا يصنع تماثيل حقيرة ليبيعها لتجار خان الخليلي.

عندما وصل أخيرًا إلى ناجي عناني، الرسام المشهور،

تعامل معه بأريحية ومحبة، كأنهما فنانان زميلان على القدر نفسه من الموهبة والخبرة، بعد جلسة طويلة تكلما فيها عن موضوعات متنوعة أخبره أنه صنع مئات التماثيل الصغيرة، قال له: «مينيسكيورات»، وناجي عناني فهم منذ لحظة أن بدأ حديثه عن الفن أن الرجل ضايع، ومنعه الأدب والتواضع من إنهاء الجلسة والإعراض عنه، وبعد دقائق تجرأ الفنان نوح وطلب من الفنان ناجي أن يزوره في بيته، كي يطلع على مينيسكيوراته.

كان نوح يتمتع بالسماجة المصاحبه لمن يعرف أنه ليس فنانًا أصلًا، مع أنه - للأسف - كان يظن أنه فنان حقيقي، آمن بأنه فقط بحاجة إلى شخص معروف يساعده في الوصول إلى الشهرة، إلى معرض أو جاليري أو ناقد فني أو فنان شهير. وعندما أحس أن ناجي قد يهرب منه، استخدم كل ذكائه، وقص عليه الحكاية الشهيرة، عندما سجد أحد المهووسين أمام ناجي في أحد المعارض، وأعلن بصراحة أنه يعتبره إلهًا ويعبده. وكما تراجع ناجي مرتعبًا حينها، تراجع على الفور عن أي رفض وقبل دعوة نوح. وعلى الفور أيضًا، طلب منه نوح أن يرافقه إلى البيت الآن في هذه اللحظة.

في البيت أخذ نوح يخرج مينيسكيوراته واحدًا تلو الآخر من الدولاب القديم الذي يحتجزها فيه، ووضعها متراصة على طاولة أمام ناجي، الذي أدرك، عندما رأى أول

مينيسكيور، أنه ورَّط نفسه، وعندما اكتملت المجموعة لم ينتظر سؤاله، بل قال له كل ما في جعبته من مديح للمينيسكيورات وله كفنان نحّات محترف.

لكن نوح لم يقتنع بسرعة، ثمَّة شيء غريب في الموقف كله، مثلًا، كان يعلم أن مينيسكيور «الميكانيكي الأبيض» سيئ جدًا، زبالة، وأن مينيسكيور «الإوزة التي تبيض بيضًا عاديًا وليس بيضًا ذهبًا» أفضل منه بكثير، وإذا كان هذا واضحًا له كفنان هاوٍ، فبالتأكيد واضح أيضًا لناجي الفنان المحترف، لكنه لم ينتقد مينيسكيور الميكانيكي، ولا مينيسكيور الإوزة، ولا أي مينيسكيور وسط المينيسكيورات الكثيرة المعروضة على الطاولة أمامهما.

غاضبًا قليلًا، سأله:

- طيب، ما الذي ينقص المينيسكيورات؟

- لا شيء، لا أرى أي شيء ناقصًا.

- لا شيء؟ مثلًا، ماذا عن الخطوط العامة؟

- لا لا، الخطوط العامة ممتازة، مثالية.

- طيب والتلوين؟

- التلوين ممتاز، تابع التلوين بهذه الطريقة الممتازة.

- ماذا عن الكتلة؟

- الكتلة؟

- نعم الكتلة، ماذا عنها؟

- الكتلة موفَّقة!

- موفقة؟

- نعم، أفضل ما يمكن أن يحدث للكتلة أن تكون موفقة، وهذه كتلة موفقة!

- موفقة!

- نعم، موفقة جدًّا!

- موفقة جدًّا؟

- نعم، موفقة جدًّا!

كان نوح قد بدأ يتأفَّف، وحينما أدرك ناجي أنه سينكشف قريبًا جدًّا قال له:

- لكن ينقص التما... المينيسكيورات، الإطار ذو المعنى.

كاد نوح يقع أرضًا من الرعب، ها هو شيء كبير جدًّا، إطار وله معنى ينقص مينيسكيوراته، سأله بلهفة:

- ما هذا؟ هل هو تكنيك جديد في النحت؟

- لا لا، هذا ليس شيئًا مهمًّا، يمكنك أن تنتج فنًّا ممتازًا دون أن يكون له إطار ذو معنى.

- لكن من الأفضل أن أنتج فنًّا له إطار ذو معنى!

- هذا صحيح.

وأطلق ناجي رصاصة الرحمة:

- بالطبع أنت لن تسألني كيف تفعل ذلك.

- لماذا لن أسألك؟

وتلقى نوح الرصاصة في رقبته:

- لأن الفنان الحقيقي ليس بحاجة إلى أن يسأل هذا

السؤال.

ظل نوح يبحث عن الإطار ذي المعنى شهورًا طويلة، لم يسأل أحدًا بالطبع، فالرصاصة لا تزال في رقبته، لكنه أخذ يعيد قراءة كتب الفن في مكتبته بسرعة شديدة، باحثًا بعينيه عن كلمتي «إطار» و«معنى» دون أن يوفَّق في إيجاد ما يمكن أن يكون إطارًا ذا معنى.

ويبدو أن كثرة متابعة التلفزيون ساهمت بقوة في إيجاد ما يبحث عنه.

أثناء التنقل بين القنوات التلفزيونية الثلاث في أحد أيام الجمع، لفت سمع نوح اسم «لوط» عندما ورد على لسان الشيخ الشعراوي، كان الشعراوي حاضرًا كعادته كل يوم جمعة في التلفزيون المصري، يفسِّر آيات قليلة من القرآن للناس بعد صلاة الجمعة، وبصفته فنانًا ملحدًا، لم يكن نوح يهتم بالشعراوي أو الصلاة أو أي شيء له علاقة بالأديان بشكل عام، كان يتعالى على هذه الأشياء ويرى أنها غيبيات وخرافات لا يجدر بعقله الانشغال بها، ومن الأفضل أن يفكر في فنه ومينيسكيوراته. لم يكن يكره تلك الأشياء، لم يكن يحبها أيضًا، كانت أشياء موجودة فقط.

لكن قصة لوط كانت بالذات تلفت نظره، كل ما فيها غريب جدًا، بداية من البلد الذي يحب رجاله بعضهم بعضًا، وحتى النبي الذي بقيَ فيه دون سبب واضح. كعادته أعاد الشعراوي حكاية القصة كلها، لم يكن هناك جديد بالطبع،

فقد قرأها نوح وسمعها مرات عديدة، وقرب النهاية عندما هرب لوط وزوجته من قريته بناء على نصيحة الملائكة، قال الشعراوي إن التوراة تقول إنها - زوجته - تحوَّلت إلى عمود من الملح، وإن القرآن قال إن الله أهلكها، وكعادته سأل الشعراوي الحاضرين أمامه سؤالًا استنكاريًا: «لماذا يا ترى أهلك الله امرأة لوط؟». كان هذا الجزء غير مهم بالنسبة لنوح حتى تلك اللحظة، ذلك أنه كان يظن أن الحكاية المهمة كلها تنتهي عند تدمير قرية لوط، وأن هذا هو الهدف من الحكاية كلها، ولم ينتبه من قبل إلى أن الحكاية الصغيرة الملحقة بالحكاية الكبيرة مهمة أصلًا.

انتبه نوح بشدة لما سيقوله الشعراوي، أجاب عن سؤاله قائلًا: «لقد أهلكها الله لأنها...». وانقطعت الكهرباء.

ومع انقطاع الكهرباء، والصمت الذي اتضح جليًا جراء انعدام صوت الشعراوي الرخيم، ومع الضوضاء التي تأتي خافتة من الشارع، قرَّر نوح أنه وجد الإطار ذا المعنى الذي سيضيفه إلى مينيسكيوراته؛ سيصنع مينيسكيورات صغيرة للأنبياء كلهم، سيضعهم في المشاهد الشهيرة المذكورة في الحكايات التوراتية/القرآنية. دارت في رأسه ملايين الصور والتماثيل للأنبياء المرسومين والمنحوتين في عصر النهضة، وقرَّر أنه سيعيد هذا التراث البشري المهم إلى الواجهة مرة أخرى، هذه المرة منحوتًا على شكل مينيسكيورات صغيرة لا يتجاوز طول الواحد منها عشرة

سنتيمترات، كان هذا الإطار، وهو من الواضح أنه ثابت، أما المعنى فسيتغيَّر طبقًا لكل حكاية.

خطَّط في رأسه لمينيسكيور لوط، مشهد كبير يظهره وهو يسير مبتعدًا عن سدوم الظالمة، بينما تشتعل فيها النار بلهب أصفر براق يعلو نحو السماء، أما بالنسبة لزوجته، فكانت الخطة أن يضع لمبة نيون بشكل رأسي بدلًا منها، في لمسة ما بعد حداثية جميلة. والمعنى في حكاية لوط يتمثل في الآتي: لقد حذَّر الملائكة لوط وعائلته من النظر إلى الخلف، حيث المدينة المحترقة بغضب الله، لكن زوجته نظرت، على الرغم من التحذير، وتألمت لمشهد مدينتها وهي تحترق، وحزنت، وشعرت بأن ظلمًا ما وقع على أهل مدينتها، ومن أجل كل هذه المشاعر الإنسانية غضب الله عليها وعاقبها بتحويلها إلى عمود من الملح/لمبة النيون.

عندما عادت الكهرباء بعد ساعة، كان نوح لا يزال جالسًا في الصالة الخلفية للفيلًا يحدق في شاشة التلفزيون، لا يميز الشخصيات والألوان والضوضاء الصادرة عن الصندوق المضيء، بل كان يخطِّط لصنع مشاهد توراتية/ قرآنية أخرى، تخيل الأنبياء كلهم منحوتين على طاولة كبيرة في هذه الصالة بالذات، طبقًا لترتيب ظهورهم الزمني، تخيل أن ينهي صنع التاريخ التوراتي/القرآني كله على الطاولة، ثم تخيل نفسه وهو ينظف الصالة كلها من

بقايا الصلصال والأخشاب والألوان، ويدهن حوائطها باللون الأبيض، ثم يدعو أصدقاءه وفناني مصر جميعًا للاطلاع على موهبته الهائلة.

كان إسماعيل الصغير يلعب كعادته في الحديقة الصغيرة الملحقة بالصالة على بعد خطوات من أبيه، دخلت أمه دليلة إلى الصالة وألقت نظرة سريعة على التلفزيون وعلى نوح المستغرق في خيالاته وسألته: «ما لك؟»، وعندما لم يرد عليها نظرت عبر النافذة العريضة المطلة على الحديقة إلى إسماعيل، فتحت الباب ومرقت إلى الحديقة وجلست قربه على الكرسي البامبو الذي تحبه، قالت له إن الجو حار جدًا، وإن عليه أن يشرب الكثير من الماء حتى يعوِّض النقص الناجم عن التعرق، ثم بدأت وصلة طويلة من الحوار الباسم الضاحك مع إسماعيل، سألته عن آخر اكتشافاته في الحديقة، أعلن أنه اكتشف دودة جديدة، رفع إصبعيه الممسكين بدودة لا تزال حية، فكرت دليلة أن هذا وقت مناسب تمامًا لتشرح له دورة النيتروجين في الطبيعة، ترددت للحظة وفكرت أنه في الثالثة عشرة ولن يفهم كل ما تقول، وربما فهم تفصيلة من كلامها بطريقة خاطئة، وفي النهاية قررت أن تبسِّط كلامها بقدر الإمكان، وشرحت له وكأنها تحكي حكاية ما قبل النوم.

•••

عالم إسماعيل كان منحصرًا بين المدرسة واللعب في

الحديقة الخلفية والمذاكرة نهارًا، أما ليلًا فاعتاد أن يبقى مع نوح في مرسمه، متنقلًا بين مقعد وثير كبير مكلمًا أباه، ومقعد خشبي عالٍ يجلس عليه كي يرى ما يصنع على طاولة العمل، وعندما يمل ما يرى، يخرج إلى الحديقة ويلعب حتى موعد نومه.

لم يهتم نوح بالكلام مع ابنه عن الدين قَطُّ، لكنه اهتم بأن يحفظ إسماعيل سور القرآن القصيرة لجمالها اللغوي، اعتاد أن يشغل الشيخ المقرئ عبد الباسط ليسمع إسماعيل صوته الجميل، كان يحب أيضًا صوت الشيخ المقرئ أبو العينين شعيشع، كان يرى أنه صوت يليق بمغني أوبرا محترف، يستطيع أن يصل بسرعة من طبقة التينور إلى طبقة الكاونتر-تينور، قدرة نادرة الوجود بين البشر، إسماعيل لم يكن يعجبه صوت أبو العينين قَطُّ لأنه آلم أذنه كثيرًا، لكنه مع ذلك استمتع كثيرًا بمتابعة نوح كل يوم وهو يصنع المينيسكيورات، اعتاد أن يتابعه وهو يجلس إلى طاولة العمل ممسكًا بقبضة من الصلصال في يده، يعبث بها لتصبح أكثر طراوة ثم يشكلها ببطء ثم يلونها بألوانه الصارخة، وعندما ينتهي من عمل جميع المينيسكيورات المشتركة في المشهد التوراتي/القرآني، يشرع في وضعها على لوح خشبي رقيق، يضع كل مينيسكيور في موضعه ليشكل الجميع المشهد المطلوب. في أثناء ذلك كان نوح يحكي لابنه الحكاية التوراتية/

القرآنية التي يصنعها، وعندما لاحظ أن الولد بدأ في مناقشته بخصوص الحكايات، وأخذ يبدي التعجب والدهشة والذهول وعدم التصديق أحيانًا، شرع نوح في عقد مقارنات بين الحكاية التوراتية والحكاية القرآنية، ووضَّح له أن الحكايات تتعارض وتتشابه طوال الوقت، وأن التشابه مفهوم بالطبع، لكن اكتشاف سبب التعارض يحتاج بحثًا طويلًا.

اعتاد نوح أن يعمل على المينيسكيور ويحكي حكايته في الوقت نفسه، واعتاد إسماعيل أن يستمتع كثيرًا بأداء أبيه؛ يحكي وهو مندمج في العمل، ثم يصمت قليلًا لأن هناك جزءًا من العملية يحتاج إلى تركيز، ثم يتابع العمل والحكي بصوته ذي النبرات المسرحية المتغيرة، ثم يكف عن لهجته الحكائية الهادئة، ويتوقف عن العمل على المينيسكيور، ويطلب منه أن يأتيه بقبضة جديدة من الصلصال، أو بعلبة لون، أو بسكين رفيعة، أو بقطعة قماش قديمة، وبعدما يأتيه بما يطلب متحمسًا لأنه ساعد أباه، يعود إلى مقعده ويعود أبوه إلى عمله وحكاياته.

•••

يومَ سأل الأستاذ أحمد - أستاذ اللغة العربية والدين - إسماعيل عن عمل أبيه، قال له بفخر طفولي:

- نحَّات، فنَّان يعني.

شخص آخر غير الأستاذ أحمد الهادئ كان ليسخر من

الطفل الفخور، لكنه فكر بشكل إيجابي، وسأله أن يوضح لزملائه ماذا يفعل النحات:

- ماذا يفعل النحّات الفنان يا إسماعيل؟

- ينحت مينيسكيورات، ينحت الأنبياء، ينحت يوسف وهو شابٌّ جميل وزليخة تجري خلفه.

منعت الصدمة الأستاذ أحمد من إيقاف إسماعيل عن الكلام، فتابع بحماسة:

- ينحت محمد مع أبو بكر وهما مختبآن من الكفار في كهف مظلم.

لم يتمكن الأستاذ أحمد من البقاء صامتًا، لكنه أيضًا سيطر على نفسه ولم يغضب، لم يصرخ أو يصيح، فقط شكر إسماعيل والتفت إلى أحد زملائه وسأله عن عمل والده.

في اليوم التالي، وفي حصة الدين، قال الأستاذ أحمد إن من ينحت تماثيل سيدخل النار مع الكفار، وقال أيضًا إن من ينحت تماثيل للأنبياء سيدخل النار ولن يخرج منها أبدًا. قال إن ذلك حرام حرام، وكعادته، استطرد الأستاذ أحمد في وصف عذاب القبر، وعذاب النار، وأعاد للمرة العاشرة وصف حرق جلد المعذَّبين في النار، ثم استبدال الجلد بجلد جديد، قال إن كل هذا مذكور في القرآن الكريم، وأكد على أن العلم الحديث أثبت أن الإنسان يشعر بالألم في جلده فقط، وهو ما يؤكد الإعجاز العلمي

في القرآن الكريم.

في ذلك اليوم عاد إسماعيل إلى البيت وهو خائف وحزين، النار ستأكل جلد أبيه، ثم سيعطيه الله جلدًا جديدًا، حسب كلام الأستاذ أحمد، ثم سيحرقه مرة أخرى، ولا يبدو أن العملية ستنتهي. كان موضوع النار يحزنه جدًا، لم يكن يريد أن يحترق هناك في الظلام والحر والماء الساخن والفحم والنار المشتعلة والبوتاجاز والفرن والشواية، لم يكن يريد أن يرى أباه يحترق دون أن يستطيع أن يساعده، بل كان يريد أن يبقى مع أبيه وأمه في المكان الجميل الذي يسمى «الجنة»، وتمثل الحل الوحيد في أن يطلب من أبيه أن يكف عن عمل المينيسكيورات.

في ذلك الوقت كان نوح قد عمل جميع مينيسكيورات التوراة/القرآن على أتم ما يكون، مرتّبة ترتيبًا زمنيًا من آدم وحتى محمد، من البداية حتى النهاية. وبدا كل شيء جميلًا حقًا، عالم نوح الصغير الذي أخذ يتأمله أثناء بنائه، والأجمل أنه حافظ على الإطار، وعلى المعنى أيضًا.

مثلًا، ولأنه كان مهتمًا بشكل خاص بالتاريخ اليهودي، ولأن حكاية التيه في سيناء مدة أربعين عامًا كانت مثيرة جدًا بالنسبة إليه، صنع نوح مينيسكيورات لعدد هائل من اليهود، مئات المينيسكيورات الصغيرة كل واحد بطول سنتيمترين، كلهم مستلقون على الأرض في واحة ظليلة

وسط الصحراء، وضعهم قرب الرقعة البلاستيك الزرقاء النحيلة التي تمثل نبعًا، أو تحت النخلات الخشب التي تفرقت هنا وهناك، أو داخل الخيام العديدة المنصوبة حول النبع، وكتب على صفيحة معدنية رقيقة قرب إحدى خيامهم: «التيه البيزنطي»، كان يريد أن يؤكد من خلال ما صنع أنهم لم يتيهوا قط، بل فقط كانوا كسالى. وعندما أنهى المينيسكيور، أخذ يتأمله وهو يفكر إن كان ذلك المعنى سيصل للمشاهد أم لا، ثم قرر أن يتركه دون تغيير، فربما يخدم الغموض عمله الفني.

وأيضًا، كيف نقل نوح، النبي وليس النحات، كل تلك المخلوقات في السفينة؟ صنع نوح كرة أرضية صغيرة، قطرها عشرون سنتيمترًا تقريبًا، وفوقها، عليها، تكاد تمسها من المنتصف، وعدد قليل من العصي الصغيرة تحافظ على اتزانها على الكرة، تستقر سفينة ضخمة في حجم الكرة تقريبًا، ترتفع حوالى عشرين سنتيمترًا، وطولها من الأنف إلى الذيل قرابة ثلاثين سنتيمترًا. الكرة الأرضية زرقاء تمامًا بفعل الدهان البلاستيك الذي يغطيها بالكامل، بينما يبدو من حجم السفينة أنها كبيرة بما يكفي لاستيعاب كل المخلوقات الأرضية في جوفها، ولا بد لمشاهد المينيسكيور أن يتساءل عن حجم الأخشاب المطلوب لصنع سفينة كهذه، وإن كانت الكرة الأرضية قادرة على إنتاج كل هذا الخشب أصلًا، وكل مساحة القماش المطلوبة

لصنع كل تلك الأشرعة، وعن ضرورة الأشرعة أصلًا في حالة غريبة كهذه، وعن مدى اتزان السفينة على الكرة، ومدى اتزان عقل الفنان نفسه. كتب نوح على الكرة الزرقاء: «هناك مكان للبكتيريا أيضًا».

وأيضًا، صنع نوح مينيسكيوره الأثير «يسوع، ثلاث دراسات فيزيقية»؛ صنع ثلاثة صلبان كبيرة نسبيًا ومتطابقة، وحول كل واحد منها تقف المجموعة نفسها من الأشخاص؛ عدة نساء، وعدد أكبر من الرجال، وجنود يابانيون يرتدون ملابس عسكرية من الحرب العالمية الثانية. المجموعات الثلاث متطابقة تمامًا، في الأشكال والألوان والأماكن، لكن على الصليب الأول وضع نوح مينيسكيور صغيرًا لرجل أبيض البشرة، ذي لحية بنّية مصففة بعناية، وعينين واسعتين شديدتي العمق، مصلوبًا ينظر إلى الأمام، جسده متناسق رشيق رجولي موضوع على الصليب بأناقة لا تُصدَّق. وعلى الصليب الثاني وضع مينيسكيور لرجلٍ مشوَّه الوجه يميل إلى الجانب ويبدو فاقد الوعي، جسده عارٍ تمامًا ومتسخ ومليء بالجروح وتغطيه الدماء ورأسه شبه محطَم ويظهر قضيبه صغيرًا بائسًا. بينما لم يكن هناك أي شيء معلق على الصليب الثالث.

اعتاد إسماعيل الصغير أن يتأمل المينيسكيورات الموضوعة على الطاولة الكبيرة وينبهر بمهارة أبيه في

النحت، اعتاد أن يفتح الكتب الفنية الكبيرة الخاصة بأبيه ويرى أعمال الفنانين العظام مرتبة زمنيًا، رأى رسومات وتماثيل المسيح المختلفة، رجل مثبت على خشبتين بشكل سحري غير مفهوم، أحيانًا حزين، أحيانًا مبتسم ابتسامة خفيفة، وفي أغلب الصور بوجه محايد، وعندما ينتهي من تأمل كل الصور في أي كتاب، صور المسيح وغيره، ينقل بصره إلى مينيسكيور «يسوع، ثلاث دراسات فيزيقية»، ويدرك أخيرًا أن لا فارق بين ما فعله كل هؤلاء الفنانين وما نحته أبوه. ويزداد حزنه كلما فكر في أن كل هؤلاء من حقهم أن يرسموا وينحتوا المسيح وباقي الأنبياء، لكن أباه سيدخل النار لأنه فعل الشيء نفسه.

ومع مرور الوقت، انشغل إسماعيل الصغير بما أخذ يتعلمه ويكتشفه عن العالم الصغير المحيط به، وبدأت مشكلة دخول أبيه النار تختفي رويدًا رويدًا.

في أحد الأيام، بعد سنتين على انتهاء أبيه من صنع مينيسكيورات التاريخ التوراتي/القرآني، كان إسماعيل جالسًا على الأرض يتابع الحلزونات الصغيرة في حديقة الفيلّا، يعيد اكتشافها للمرة المئة ويتأمل حركتها البطيئة على التربة أو على أوراق النباتات، حينها كان قد بدأ يهتم كثيرًا بالتوراة والإنجيل والقرآن، قرأ أجزاء كثيرة من الكتب الثلاثة وكما هو متوقع لم يفهم شيئًا، لكن أكثر ما أزعجه هو وضع التوراة والإنجيل في مجلد واحد اسمه

«الكتاب المقدس»، ووضع القرآن في مجلد آخر اسمه «القرآن الكريم»، مع أن الله هو مصدر الكتب الثلاثة فلا معنى لأن يتم التفرقة بينها، أزعجه أيضًا أن عدد السطور في صفحة الكتاب المقدس، ونوع الخط المستخدم في الكتابة، يختلفان بشدة عن عدد السطور ونوع الخط المستخدم في صفحة القرآن الكريم، كان يفكر كل يوم أنه من الأفضل لو وضع أحدهم الكتب الثلاثة في مجلد واحد على حسب تاريخ الكتابة والصدور، التوراة ثم الإنجيل ثم القرآن، في ذلك اليوم البعيد قرر أنه سيعود إلى مرسم أبيه، سيأخذ أوراقًا كثيرة من الدرج، وبواسطة الدبابيس والغراء سيصنع منها مجلدًا ضخمًا، ثم سيكتب فيه بخطه الدقيق الكتب الثلاثة معًا، فكَّر كثيرًا بخصوص اسم الكتاب، فكر إسماعيل أن التوراة والإنجيل اسمهما «الكتاب المقدس»، وأن القرآن اسمه «القرآن الكريم»، ولأنه كان يحب القرآن جدًّا لأن لغته العربية جميلة ومفهومة، قرر أن يسمي الكتاب الذي يحوي الكل «التوراة المقدس الإنجيل الجميل القرآن الكريم جدًّا»، كان يأمل بينه وبين نفسه أن يرضى الله عن عمله هذا، ومن ثم يعفو عن أبيه ويدخله الجنة.

كان قد ترك الحلزونات ونفض يديه في بنطلونه عندما سمع صوت دخول أبيه إلى الصالة.

ظل إسماعيل ساكنًا مكانه، سمع أباه يصرخ غاضبًا

بكلمات غير مفهومة، ظن في البداية أن معه شخصًا آخر، ولما لم يسمع أي رد على صراخه تأكد أنه وحده يكلم نفسه. أحنى ركبتيه وتحرك ببطء وصمت نحو النافذة الكبيرة بين الصالة والحديقة، ثم رفع رأسه ببطء شديد إلى النافذة، سمع صوت خبطات عالية متتالية.

عندما أطل إسماعيل على أبيه، كان الفنان نوح قد حطّم كل ما قبل النبي نوح، توقّف قليلًا، ثم رفع مقشته إلى الأعلى وهبط بها على الطاولة وهو يصرخ غاضبًا ويرتجف بعنف، تابع تحطيم باقي المينيسكيورات على الطاولة مباشرة، ثم أزاح الحطام بالمقشة إلى الأرض ووطأه بقدميه فتفتت تمامًا، كان يشتم ويصرخ بغضب، يكلم المينيسكيورات ويلومها، لم يكن كلامه مفهومًا بالنسبة لإسماعيل الصغير، لم يكن غضبه مفهومًا أيضًا.

أخفض إسماعيل رأسه ببطء وحذر، ثم أحنى ركبتيه وتحرك ببطء مرة أخرى إلى أقصى الحديقة الصغيرة خوفًا من أن يراه أبوه، إلى أن استقر خلف جذع شجرة قصيرة، كان حزينًا جدًّا لأن المينيسكيورات تحطمت، ولأن أباه كان غاضبًا، ولأنه كان يصرخ ويكلم نفسه ويغضب على أشياء لا تتكلم ولا تتحرك ولا عقل لها، أشياء هو من صنعها ولا تمثل أي ضرر له أو لأي أحد.

بعد دقائق، رأى النار ترتفع من داخل الصالة، أخذ اللهب يزداد توهجًا إلى أن حطم زجاج النافذة، ثم خرج أبوه من

الباب وهو يحمل طفاية حريق حمراء كبيرة، وضعها إلى جانبه على الأرض ووقف يتأمل الصالة عبر النافذة، دخن سيجارة ببطء والنار تضيء وجهه وملابسه، انتظر إلى أن انتهى من السيجارة ونفضها إلى النار المشتعلة، أمسك بمقبض الطفاية ووجَّه فوهتها نحو النار، رش الرذاذ الأبيض عبر النافذة فانطفأت النار في ثوانٍ.

تسللت رائحة الدخان قوية إلى أنف إسماعيل، وعلى الرغم من حزنه بسبب كل ما حدث، وعلى الرغم من أن أباه جلس على الكرسي البامبو وعاد يكلم نفسه بجمل غير مفهومة لكن بهدوء وبطء هذه المرة، كان يشعر براحة داخلية تعمُّه، كان متأكدًا من أن كل شيء على ما يرام الآن، لقد حطَّم أبوه كل المينيسكيورات، وأخيرًا لن يدخل النار بعد أن يموت، بل سيدخل الجنة معه.

3

يلاحظ إسماعيل أن مريم امتلأت قليلًا، ساقاها وفخذاها وبطنها، يرى حلقات حول رقبتها، وجهها أيضًا أصبح أكثر امتلاءً، لكن ابتسامتها أصبحت دائمة، مبتسمة تقبله وتحتضنه طويلًا، تتركه ثم تنظر في وجهه بإمعان وهي ما تزال تبتسم، وتقول له أخيرًا: «حمدًا لله على السلامة»، ثم تمسك مرفقه وتقوده نحو الكنبة وتتركه يجلس.

خائف جدًا، لا بد أن أمورًا كثيرة تغيرت في المدة التي غابها، وهو يحاول أن يقول كلامًا يبدو عاقلًا، سيذهب معها إلى بيتها والآن يجب أن تكون هي مطمئنة تمامًا له. يفكر في الحياة بعد هذا اليوم، يقلقه أنه لن يجد عملًا ولا يجد مصدرًا للكسب، أي شيء ليسد احتياجاته، ويخطر في باله أن يسألها إلى أي مدى تضخمت الأسعار، إلى أي مدى انهار اقتصاد البلد، لكنه يتردد كثيرًا، ويفكر أن هذا السؤال قد يدل على جنونه، يسألها عن صحتها فتجيب بأنها على ما يرام، ويرى بوضوح أن صحتها الجسدية أفضل من صحته، الآن يفرق تمامًا بين الصحة الجسدية والصحة العقلية، ويتساءل إن كانت مستقرة عقليًا أم أن الكل مجانين؟

تقعد على الكرسي المجاور وتترك حقيبتها خلف ظهرها، تنظر إلى أوراق الصحف الموضوعة أمامه وتظهر عليها

الدهشة. يعيد النظر إلى الأوراق أمامه ويتذكر عشرات المانشيتات المكتوبة بالأحمر التي قرأها من قبل، يتذكر المانشيت التاريخي: «الشعب أسقط النظام».

تتحدث هي مع الطبيب بهدوء، ثم ينظر إليه ويقول إن عليه أن يذهب ليجهز حقيبته.

حالما يصل إلى غرفته يشعر بالتعب، ويفاجئه وجود مريض آخر في الغرفة، يرقد على السرير الآخر ويبتسم بوهن، أكان موجودًا طوال الوقت؟ أغاب عن الغرفة اليومين السابقين فقط؟ يفتح دولابه ليجد ملابس قليلة جدًا، فرشاة أسنان مهملة على الرف، ماكينة حلاقة مستعملة قديمة جدًا، وأخرى من النوع نفسه لكنها ما زالت في غلافها البلاستيك. مجلّد مهترئ قليلًا مليء بالكتابة، يفتحه ويقرأ لكنه لا يفهم الكثير، لا يذكره المكتوب بأي شيء قرأه قبل الآن، يحمل المجلّد والملابس ثم ينقل كل شيء إلى السرير. يبحث تحت السرير عن حقيبته لكنه لا يجد شيئًا، يعود للدولاب ويفتح الخزانة العلوية ليجد حقيبة سفر صغيرة، ليست حقيبته بالتأكيد فهو لن يختار واحدة وردية فاقعة كهذه، لكنه يأخذها ويضعها على السرير ويرص أشياءه فيها، يغلقها ويجرها إلى الخارج، نسي أن يودع الرجل رفيق غرفته، يعود ليجده مستغرقًا في النوم.

يطلب منه الطبيب أن يقعد، مريم تنظر إليه مشفقة،

يقول الطبيب:

- اتفقنا على أن تقرأ ما أعطيتك، وبالطبع لك أن تقرأ أي شيء آخر، صحيح؟

- صحيح.

- اتفقنا أيضًا على أن تظل هادئًا، ولا تنفعل أبدًا.

- نعم، لكني لا أفهم كيف أتحكم في ذلك، الإنسان ينفعل لأسباب عديدة.

- توقّع الأسوأ.

يصمت لأن هذا ما يفعله حقًّا.

- هل تفهم ما أعني؟

يومئ برأسه ووجهه جامد.

- لكننا لم نتكلم بخصوص شيء مهم للغاية، يجب أن تمر عليّ كل أسبوعين، اعتبرها زيارة صديق قديم لك، لا مفر من ذلك. يجب أن تحافظ على أن تتناول الدواء، حبة كل يوم، في نفس التوقيت، وليكن في الثانية عشرة ظهرًا، لا يجب أن يمر يوم دون أن تأخذها، وإن نسيت فاتصل بي فورًا، التوقيت مهم للغاية.

- ولو نسيتها، ثم تذكرت بعد ساعة مثلًا؟ أو ساعتين؟

- عليك أن تأخذها فورًا حتى أربع ساعات بعد التوقيت اليومي، إذا مر أكثر من أربع ساعات ستقل نسبة المادة الفعالة في دمك، ستتصل بي حينها وسأفكر في إعطائك جرعة إضافية، لا تأخذ أكثر من حبة واحدة يوميًا تحت أي

ظرف. هذا دواء تجريبي ولن تجده في الصيدليات، ستجده هنا فقط.

ثم يعطيه علبة أسطوانية بيضاء صغيرة وروشته.

- هذه علبة فيها 14 حبة، وفي الروشتة أدوية عادية ستجدها في الصيدلية، مجموعة من الفيتامينات، والدواء الأخير منوِّم آمن تمامًا، تأخذه فقط عندما تعجز عن النوم.

- فقط؟ لا أدوية أخرى؟ مهدئات؟

- لا تحتاج أي شيء، أنت لا تشكو من أي شيء على الإطلاق، وصحتك الجسدية أفضل من صحة الكثيرين.

- والعقلية؟

- هذه سنتابعها معًا.

يمسك علبة الدواء ويهزها فيسمع الحبات تتخابط، على الورقة الملصقة بها مطبوع اسم الدواء: Antifidei

- ما هذا؟ ضد الإيمان؟

- نعم، هذا دواء يجعلك لا تؤمن بالغيبيات.

- هل هذا ممكن أصلًا؟

- بالتأكيد، أنت تأخذ جرعات منتظمة من هذا الدواء منذ سنوات بعد تجربة الكثير من الأدوية، لم يكن أمامنا غيره، كنت تفيق ساعات من حالتك ثم تعود إليها، والآن أنت بخير لمدة يوم كامل، أنت آخر من تم شفاؤه بالكامل، لا تسألني عما حدث بالضبط، لكن يبدو أن عقلك استسلم للدواء في أوقات كثيرة، لكنه كان يعود بقوة ويرفضه،

تأخرك أقلقنا كثيرًا، والآن نحاول أن نفهم لِمَ تأخرت، لهذا أريدك أن تزورني كل أسبوعين.

- لكن هذا غير معقول.

- لِمَ؟ الكيمياء عالم ساحر، عفوًا، كلمة ساحر بالنسبة لك مضحكة الآن، لكنك ستتقبل المجاز بالتأكيد، وأهم شيء ألَّا تقلق.

- لا أقصد هذا، لكن أقصد موضوع أني بحاجة إلى شيء يعطل إيماني، كنت لا أؤمن بشيء قبل أن آتي إلى هنا، هذا شيء لا جدال فيه.

- يبدو أنك كنت مخطئًا، إيمانك بنفسك دليل على أنك لم تكن ملحدًا.

يصمت قليلًا ثم يقول:

- لا أجد ما أقول، أنا متعجب تمامًا.

- أشياء كثيرة ستتذكرها حتمًا وستضحك.

ينظر إلى الطبيب نظرة الخائف، لا يحب أن يبدو مغفلًا أو مثيرًا للسخرية. لا يدرك الطبيب ما يفكر به، يقول:

- ببساطة، خذ حبة يوميًا ولن تعود للإيمان مطلقًا، سيتساوى عندك الله وبابا نويل. بالطبع، من حقك أن تكف عن تناول الدواء، خلال عدة أيام سيأخذ الإيمان سبيله إليك، تعود للإيمان بالدين والتشاؤم والحسد وما إلى ذلك، وهذا كله غير مضر طبعًا، وربما يكون مفيدًا لأغلب الناس، لكن المشكلة حقًا إن عدت للإيمان بنفسك.

- غير مضر؟ لماذا؟

- الإيمان يساعد الإنسان على الاستمرار في الحياة، حتى إن آمن بحجر، لكن بالنسبة لك الأمر مختلف تمامًا، يجب أن تتأكد أن إيمانك بنفسك إلهًا أمر مضر يا دكتور.

ولأول وهلة يدرك فداحة ما فعل، ويرى كل شيء ينهار من حوله ويبقى هو والطبيب فقط قاعدين متقابلين، ويوشك على أن يطلب من الطبيب أن يعيده إلى حالته، أن يقطع عنه الدواء، أو أن يعطيه دواءً يعيد له الإيمان بنفسه.

يتابع الطبيب:

- انتبه، الزمن تغير كثيرًا عن سنة 2020، البلد أصبح بلدًا آخر، والحياة تغيرت بالكامل. والناس لم يعودوا كما كانوا من قبل، أنا متأكد أنك ستواجه صعوبات عديدة في التعامل مع من حولك، والحل أن تحاول دائمًا أن تختلط بالناس ولا تنعزل، مريم ستساعدك على الاتصال بالناس، وأنا سأكون موجودًا إن احتجت أن تكلمني، اتصل بي في أي وقت أو تعالَ إلى مكتبي هذا. كل ما أرجوه منك أن تأخذ دواءك بانتظام، عودتك إلى هنا لن تكون مفيدة أبدًا.

يحاول تذكُّر السنوات المظلمة الطويلة، عشرون سنة في مستشفيات متعددة كما قال الطبيب، وسنوات أخرى لا يعلم عددها قبلها، ما يقرب من ربع قرن مر من عمره دون أن يذكر منه شيئًا، ويتساءل إن كان قد أصاب أحدهم

بضرر، ماذا حدث لسارة قبل أن يدخل المستشفى؟ ماذا حدث لكريم؟ يفكر في مريم ويشعر بالامتنان لأنهما انفصلا قبل أن يمرض.

...

يمشي مع مريم التي تنطلق في الحديث فور أن يخرجا من المبنى، تقول إنها اشتاقت إليه كثيرًا وتسرد ذكرياتهما معًا، اللقاءات مع الأصدقاء والأقارب وتفاصيل عملها، تقول إنها أعدَّت طعامًا يحبه، يصلان إلى سيارتها وأول ما يفكر به أنها تعينه على تذكر ما حدث بشكل ما، تنفذ تعليمات الطبيب بشكل ما، وهو يشعر بالضيق قليلًا لأنها تعامله وكأنه طفل، ثم يغمره الامتنان لأنها ليست مضطرة لفعل كل هذا، ما زالت مريم صديقة رغم كل ما حدث.

تقود السيارة ببطء في الشارع العريض، السيارات حولها قليلة ومسرعة، لا يميز إسماعيل أي شيء مما حوله، المباني جديدة وقليلة حوله، بعد دقائق يسألها:

- أين نحن؟ ما اسم هذا الشارع؟

- هذا شارع 10، نتحرك من المستشفى إلى بيتي، الآن نحن في القاهرة الجديدة.

يقول:

- هذا متوقع، القاهرة القديمة أصبحت مهملة بالتأكيد.

- جزء كبير منها تحطم، لا تتوقع أن تجد الكثير من المباني على حالها.

تقود السيارة إلى شارع جانبي، ينشغل بمتابعة المباني والسيارات والمارة، عدد قليل جدًّا يمشي في الشارع. يسألها:

- أين الناس؟ أين الزحام؟

- عدد سكان القاهرة الجديدة تقريبًا ثلاثة ملايين نسمة.

يقاطعها مندهشًا:

- أين الباقي؟ القاهرة كان فيها عشرون مليون شخص.

تنظر إليه نظرة سريعة ثم تعود للنظر إلى الأمام:

- لا تتعجب طوال الوقت يا عزيزي، ستجد إجابة جاهزة عند كل من تكلمه، سيقول إن الزمن قد تغير، مصر لم تعد الدولة المركزية السابقة، السكان الآن موزعون على مدن كثيرة جديدة وقديمة، ولا تزال القاهرة الجديدة أكبر مدينة من حيث عدد السكان.

تتوقف السيارة عند مبنى بسيط صغير، الشارع هادئ تمامًا، وبالنسبة لإسماعيل يبدو المشهد كله وكأنه لوحة لفنان يقتصد كثيرًا في الألوان والخطوط. يترجلان معًا من السيارة إلى المبنى، يصعدان السلم وهي تحمل حقيبته، يشعر بالتعب بعد صعود طابقين فقط، تدير المفتاح وتقول له:

- استعد للمفاجأة.

تفتح الباب وتشير إليه ليدخل أولًا.

الشقة تربكه كثيرًا، يمشي خطوات قليلة ثم يدرك أنها

شقته القديمة في جاردن سيتي، لكن لا، هذه سقفها واطئ، لم يتغير شيء سوى السقف.

- هل تميز الشقة؟

- نعم، هي تشبه شقتنا القديمة تمامًا، لا فارق سوى ارتفاع السقف.

- سقف شقتنا القديمة كان عاليًا، أعلى من أسقف باقي الشقق في ذلك الوقت، هل تذكر تاريخ بناء المبنى؟

- لا، أظن في العشرينيات؟

- نعم، انهار ذلك المبنى منذ مدة.

- وهذه؟ كيف وجدتِ شقة تشبهها؟

- طلبت من المهندس أن يبنيها هكذا، تحمس كثيرًا عندما أطلعته على رسومات الشقة القديمة، كان قد انتهى من كل الرسومات فأعاد تصميم المبنى كله كي يطابق مبنانا القديم من الداخل، حاول أن يحافظ على الارتفاع طبعًا، لكن قوانين البناء الجديدة منعته، يمكنك أن تقول إنه نقل الشقة بالكامل، لكنه قرر أن يخفض السقف نصف متر فقط.

- نصف متر مؤثر جدًا، لكني أشعر بالاطمئنان.

النور يأتي من النافذة نفسها لينير الصالة والسفرة، لكنه ليس النور الذي اعتاده، اتجاهه وكثافته مختلفان، والأنتريه الذي كان يحبه كثيرًا ما زال على حاله وفي موضعه، يمشي بهدوء حتى يصل إلى كرسيه المفضل

ويجلس.

- استعنث بصورنا القديمة لأصنع أثاثًا يشبه أثاثنا القديم، مع ذلك هناك فارق واضح بين الاثنين، وأيضًا اشتريت أشياء جديدة لأملأ الفراغ.

تقولها وتضحك، يبدو أن لا شيء يقلقها.

- ألا تريد أن ترى باقي الشقة؟

عندما تزوج سارة لم يبدل الأثاث القديم، ابتاع غرفة نوم جديدة فقط، لم ترغب في شراء أثاث جديد، لكنه رأى أن اختيار وشراء غرفة نوم جديدة سيكون أمرًا مبهجًا. يقف في وسط غرفة النوم ويتمنى لو أنه لم يغيرها، فقط لتتماشى مع ذكرياته القديمة عندما كان يعيش مع مريم. ويقول لنفسه إنه لم يكن يعلم أن كل هذا سيحدث.

يمشي ببطء في الشقة ويحصي ما تغير، الثلاجة، الغسالة، أجهزة التكييف في الغرف، لكن يبدو له كل شيء آخر على حاله.

لوحات قليلة معلقة على الحوائط، وصور كثيرة على طاولة قرب الأنتريه، صور له ولمريم ولسارة، ثم صور عديدة لمنال في مراحل عمرية مختلفة، وصورتان لكريم، والمفاجأة كانت صورة جماعية تظهر فيها سارة ومريم ومنال معًا، يجلسن على ملاءة رقيقة في حديقة، وأخرى لهن يضحكن بقوة وكريم مراهق يجلس بينهن خجولًا فيما يبدو وكأنه مركب في البحر، جدار المركب أبيض خلفهم،

يعلوه شريط زرقة البحر، ثم خط الأفق وزرقة السماء الهادئة. غرفة مكتبه وكتبه لم يتغيرا، لكن هناك كتبًا كثيرة لا يعرف من أين جاءت، أخيرًا يجد ما يستريح له كثيرًا، يجلس على كنبة المكتب المكسوة بالجلد، والطاولة أمامه خالية من الكتب، اعتاد أن يقرأ عدة كتب في آنٍ واحد، وأن يضع ما يقرأ على الطاولة دون ترتيب أو تنظيم، فوضى يحبها كثيرًا.

تدخل مريم المكتب وهي ترتدي ملابس أبسط، تقول إنها تسخن الغداء الآن، دقائق ويأكلان معًا.

يأكل بشهية غير متوقعة، ملمس الطعام الدافئ في فمه ممتع بلا حدود، والماء أيضًا ممتع عندما يسري في حلقه، يقوم ويتجه إلى الحمَّام، ينعشه الماء عندما ينهمر على يديه ويبلل به وجهه، ثم يتحرك إلى المكتب ويشعر بالهواء لطيفًا حين يمر عليه من النافذة وهو جالس على كنبته. مريم تعود وتجلس على الكرسي المجاور، وتنظر إليه مبتسمة وهو محرَج تمامًا ولا يعرف ماذا يفعل. هذه ليست شقته الآن وإن كانت تشبهها، والوضع نفسه غريب عليه، يقلقه التفكير في الحياة معها على هذا النحو، يكره أن ينفق عليه أحد المال، يتساءل إن كان سيجد عملًا بعد سنوات المرض الطويلة. ويجد نفسه يقول لها إنه سيبحث عن عمل قريبًا، وهي تُدهش كثيرًا وتدرك أنه لا يريد أن يكون عبئًا عليها، تقول له باندفاع إن الشقة شقته أصلًا، إن

أراد أن تمنحها له الآن فلا مانع، ودون أن يدفع جنيهًا واحدًا، تقول له إن كليهما بحاجة إلى رعاية، وأن لا أحد باقٍ ليرعاهما، وأنهما عادا إلى زمن جميل جدًا من دون أي تخطيط. تبتسم وهي تقول ذلك وتلتمع عيناها، يتذكّر ما اتفقا عليه؛ قالت له في يوم كئيب إن الإنجاب جريمة وهو وافقها، واتفقا على ألّا ينجبا أبدًا، والآن هي تذكّره بما اتفقا عليه منذ سنوات بعيدة، تردد العهد القديم من دون أي نقصان؛ أن يكبرا معًا وحيدين وأن يهتم كلٌّ منهما بالآخر، هو تعهّد أن يسرّح شعرها عندما تكبر، هي تعهّدت أن تحلق ذقنه عندما يكبر، هو تعهد أن يقرأ لها إن كلّت عيناها، هي تعهدت أن يمليها لتكتب كلامه إن عجز عن الكتابة، هو تعهد أن يدلك ظهرها إن آلمها، هي تعهدت أن تطعمه إن عجز. وتقول إنها لا تفعل إلا ما تعاهدا عليه قديمًا، وتقول إن ما حدث بين هذه اللحظة وبين لحظة العهود يجب أن يُنسى تمامًا، هي تحاول نسيانه وهو عليه ألا يتذكّره، وتقول له إن ما حدث مفزع، وأفضل شيء أنه نسيه.

تقوم وتقول إنها ستستريح قليلًا، وله أن يبيت في غرفته أو في أي موضع يريحه، وينظر إليها وهي تخرج فيجدها تمشي ببطء وظهرها منحنٍ ووجهها مكتئب وعيناها عجوزتان.

يتساءل إن كان ما يزال قادرًا على الكتابة، يقوم إلى مكتبه ويبحث عن قلم في الأدراج فيجد واحدًا، يبحث

عن ورقة فلا يجد أي ورقة بيضاء خالية، يفتح درجًا آخر ويجد نسخة من كتاب لم يره من قبل، على الغلاف اسمه بخط صغير وفوقه عنوان الكتاب: «يقظة أمة»، هذا هو الكتاب الذي أخبره به الطبيب، العنوان قبيح وبعيد عن أفكاره، يفتح النسخة ويتصفحها، يقرأ جملًا عشوائية ثم يقرأ فصلًا كاملًا، أسلوبه نفسه وطريقته في عرض الأفكار وترتيبها لكنها ليست أفكاره أبدًا، ويعتريه الخوف لأن المكتوب مفزع حقًا، ثم يفتح الصفحة الأولى حيث العنوان، يشطب العنوان ويشطب اسمه، ولا يكفيه هذا فيضع خطوطًا كثيرة على اسمه حتى يختفي حبر المطبعة الأسود تحت حبر القلم تمامًا.

يتحرك نحو المكتبة وينظر إلى الرف الرابع، اعتاد أن يضع نسخًا من كتبه على هذا الرف، ينظر بلهفة إلى الجزء الأيسر حيث الكتب الأخيرة، يقرأ عنوان آخر كتاب يتذكره، «فصام أمة»، ثم بعده مجموعة أخرى لا يعرف عنها شيئًا، ها هي نسخة أخرى من «يقظة أمة»، ويفكر أنه ربما أراد أن يكتب «صحوة»، أو «بعث»، لكن الكلمتين توحيان بأيدلوجيات أخرى، ولهذا استخدم كلمة سخيفة مثل «يقظة»، وبعده يجد: «ضرورة الدكتاتورية»، ويتعجب مرة أخرى من العنوان ومن اسمه على الغلاف، وبعده: «إسقاط الدولة الدينية من أجل تجنب حرب أهلية تأكل الأخضر واليابس»، تملأ الكلمات الخضراء الغلاف الأسود

واسمه أسفله، ويفكر أنه لم يفقد ذاكرة تلك الأيام من فراغ، وأنه كان ثقيل الظل بشكل لا يحتمل بالتأكيد، وأن عنوانًا كهذا لا يأتي إلا من شخص مجنون. ثم يجد: «رحلة سعيدة إلى العاصمة الجديدة»، ولا يتعجب هذه المرة لأنه عرف أن القادم أسوأ، وبالفعل يقرأ على غلاف الكتاب الأخير: «الألْهَانِية»، يحمل كل الكتب ويعود ليجلس إلى مكتبه.

أخيرًا يتذكَّر أنه بحث عن ورقة بيضاء ليكتب شيئًا، أي شيء، ويفكر أنه لا بد قد نسي الكتابة في سنوات المستشفى. ثم يفكر أن لا جدوى من الكتابة الآن بعد كل الكتب الموضوعة أمامه.

ينظر إلى كومة الكتب، ثم يتناول «يقظة أمة» ويبدأ القراءة.

4

فيلًا نوح نظيفة تمامًا، جثث المينيسكيورات ملقاه بإهمال أمام البوابة، كل مينيسكيور فوق زميله أو إلى جانبه بلا ترتيب أو نظام، كومة نصف محروقة نصف محطمة، أبدع عمل فني خرج من تحت يدي نوح. جمع أيضًا لوحاته التي رسمها عندما كان شابًا، تقريبًا مئة لوحة كلها لا تمثل له أي شيء الآن، ومعها الفرش القديمة والأنابيب وعلب الألوان الفارغة ونصف الممتلئة والجافة، كل هذا وضعه في كومة عالية إلى جانب جثث المينيسكيورات.

عندما لاحظ بواب العمارة المقابلة للفيلًا أن نوح وضع أمام بوابة الفيلًا جثث المينيسكيورات لم يهتم كثيرًا، وتذكر الحريق المحدود الذي شب في الفيلًا منذ أيام وتمت السيطرة عليه بسرعة، لم تلفت نظره الجثث التي توزعت على مساحة كبيرة أمام الفيلًا، لكن كومة اللوحات الفنية وعلب الألوان أثارا اهتمامه قليلًا، توقع أن يخرج نوح بعد ذلك الكثير من الأشياء المصنوعة من المعادن وهو ما يهتم به مشترو الخردة والروبابيكيا، لذلك تقدم البواب ليشتري كومة اللوحات طمعًا في شراء ما بعدها، وأيضًا ليتأمل جثة المينيسكيورات، تعجب كثيرًا عندما لاحظ أن كل اللوحات مرسومة بالفرشاة على قماش

مشدود على إطار خشبي، لوحات حقيقية وليست مجرد نسخة مطبوعة، بحسب خبرته في الروبابيكيا كان يعلم أن هذه الأشياء نادرة جدًا، وقد تحمل قيمة كبيرة فقط لمن يقدرها، ازداد تعجبه عندما قال له نوح إنه لن يأخذ جنيهًا واحدًا ثمنًا لهذه اللوحات، وأنه إن أراد أن يأخذها فلن يمنعه.

•••

بعد الحريق بأسابيع قليلة قرر نوح أن يجتمع مساء كل يوم مع دليلة وإسماعيل؛ يجلس الثلاثة على أرض الصالة، تحتهم حشيات وثيرة، يتكلم معهما عن أشياء كثيرة كي يصحح الأخطاء التي وقع فيها خلال السنوات الماضية، سمى تلك الجلسات «السمر الحلال». في الجلسة الأولى من جلسات السمر الحلال قرأ نوح آيات قليلة من القرآن تتحدث عن الكفر، قرأ أحاديث قصيرة من ورقة تتكلم أيضًا عن الكفر، ثم تكلم مدة ساعة كاملة عن الأفعال التي تؤدي بصاحبها إلى الكفر، وقال لهما إنه سيتغير من الآن فصاعدًا، وأن هدفه الأساسي إزالة ما قد يؤدي للكفر من بيتهم الجميل الهادئ، ومن حياتهم السعيدة الهانئة، فهم إسماعيل معظم ما قاله والده، لكن لم يفهم تمامًا الكلمة التي وصف بها أفعاله السابقة وعلى رأسها صنع المينيسكيورات ورسم اللوحات، قال نوح: «كُفريَّات».

لم يتخل نوح عن هوايته الأخرى البعيدة عن الكفريات،

أهم تلك الهوايات غير الكفرية كانت التمشية في الشوارع المحيطة بالفيلًا قبل غروب الشمس، أضاف لها هواية أخرى أجمل هي الإشارة إلى الكفريات المحيطة به، أصدر أول إشارة إلى الكفريات عندما لاحظ سيدة لا يعرفها تمشي في شارع قريب وترتدي فستانًا قصيرًا يصل إلى منتصف ساقها تقريبًا، أسرع الخطى خلفها وحياها بهدوء فالتفتت إليه، قال لها بابتسامة ودودة وهو يشير إلى طرف الفستان السفلي: «كفريات»، لم يبدُ عليها أنها تأثرت بكلامه، لم يبدُ عليها أنها فهمت ما يقصده أصلًا، وقفت أمامه لثانيتين فقط ثم غادرت من دون كلمة واحدة، شجعه رد فعلها كثيرًا، وفكر أن التغيير يأتي ببطء عادة، وأنها ستفكر كثيرًا في كلمته السحرية كلما اشترت ملابس جديدة أو وقع نظرها على ملابسها المعلقة في دولابها، شجعه رد فعلها أيضًا على الاستمرار في رمي كلمته السحرية على كل من ترتدي ملابس تكشف جزءًا من الساق، أو تكشف جزءًا من الذراع، أو جزءًا من الشعر، كان رد الفعل دائمًا هو الصمت، وربما ردت واحدة أو اثنتان بكلمات قبيحة تجاهلها هو ببراءة تامة. ثم قرر أن يقترب من الرجلين اللذين يلعبان الطاولة كل يوم أمام محل الكهربائي القريب، أشار إلى الطاولة المفتوحة بينهما وابتسم وقال: «كفريات»، بشكل عفوي تمامًا دعاه أحدهما بمودة بالغة إلى شرب كوب من الشاي. ثم انتبه إلى صور

الممثلات على أغلفة المجلات عند فرشة الصحف والمجلات القريبة، تضايق عندما لاحظ أن كل المجلات تتبارى في عرض أكثر الصور إثارة على أغلفتها، وغضب قليلًا عندما رأى جريدة ذات طباعة رديئة مليئة بأخبار الجرائم، وعلى غلافها سيدات محترمات يرتدين قمصان نوم كاشفة جدًّا، لم يكنَّ رشيقات قَطُّ، لذلك قرر أن ينبه بائع الصحف إلى ما رآه، أشار إلى مجلة تلو الأخرى وقال له: «كفريات، كفريات، كفريات»، لم يردَّ الرجل إلا بالتحديق في عينيه، كان نحيلًا جدًّا، جسده ووجهه وذراعاه ويداه، بشرته بيضاء شاحبة، بدا سكونه وصمته لنوح وكأن الرجل سحلية لا تبالي بما حولها، عزز ذلك جلد يديه المغطى بقشور بلون الصدف، لم يدرك نوح تمامًا ما هي وكيف تكوَّنت، مضى مبتعدًا وهو متعجب قليلًا من برود الرجل السحلية. انزعج كثيرًا عندما اكتشف مراهقَيْن اثنين يجلسان على الرصيف المرتفع المحيط بحديقة صغيرة خلف كشك الزهور القريب، الولد يمسك بيد الفتاة ويبتسم لها، كانا صامتين، وبعد قليل تكلم الولد هامسًا فلم يسمع نوح ما قال، وعندما بدا الخجل واضحًا على وجه الفتاة توقع أنه ربما قال شيئًا ذا طابع جنسي، غضب كثيرًا وصرخ وهو يشير إليهما: «كفريات»، وعندما خرج بائع الزهور نظر إليه بغضب أكبر، واتهمه بأنه رجل غير محترم لأنه يسمح لهما بالاختباء خلف الكشك أملًا في بيع وردة

أو زهرة للمراهق، ثم أشار له بثقة: «كفريات». تكرر الأمر نفسه مع لاعبَيْ شطرنج يجلسان في إحدى الشرفات المنخفضة القريبة من الشارع: «كفريات»، ومع رجل يحمل صندوقًا يحوي زجاجات بيرة: «كفريات»، ومع ثلاثة أولاد يتبادلون حقن أذرعهم بسائل ما: «كفريات»، ومع رجل يقبِّل سيدة في سيارة مختبئة في آخر الشارع: «كفريات»، ومع بائع ربابات متجول يحمل ربابة بين يديه يعزف عليها لحنًا خشنًا: «كفريات»، ومع بائع يروِّج للعرقسوس بصوت رنان مؤكدًا أن فيه الشفاء والخمير معًا: «كفريات».

بالطبع امتد التغير إلى إسماعيل وأمه؛ الملابس السادة ذات الألوان المحايدة التي اهتم أبوه بشرائها له، وقَصَّة الشعر المتساوي التي أمر الحلاق أن ينفذها على شعر ابنه، ملابس دليلة أيضًا تغيرت، لم تفكر قط في مقاومة طلبات نوح المستمرة، فبدأت بتغيير الفساتين إلى التاييرات الواسعة ثم الحجاب ثم الخمار وأخيرًا النقاب والعباءة السوداء، وعندما لاحظ إسماعيل أنها تغير أزياءها بلا أدنى مقاومة قام هو بالفعل نفسه ولم يقاوم أباه، كان كل ما يهمها ألَّا تتكرر نوبة جنون نوح فيحرق البيت كله، ومع مرور الوقت كانت تطمئن نفسها إلى أنها ستقتل نوح يومًا ما، وبذلك ستفلت هي وإسماعيل من جنونه. عليها فقط أن تستجيب لكل ما يطلب وأن تحسن التخطيط وأن تصبر إلى أن تأتي الفرصة الأفضل.

في إحدى جلسات السمَر الحلال طلب إسماعيل من نوح أن يتوقف لدقيقة واحدة حتى يذهب إلى الحمَّام، لم يتوقف نوح عن الكلام وبدا أنه لم ينتبه لطلب ابنه أصلًا، قام الولد وذهب إلى الحمَّام ثم عاد متعجلًا، شك أن أباه لم ينتبه لذهابه وعودته، فقام مرة أخرى هذه المرة بغير أن ينبهه ثم عاد بعد خمس دقائق، هذه المرة لم ينتبه أبوه لغيابه بالتأكيد. خلال الأيام التالية تطور الأمر من مجرد غياب لخمس دقائق إلى غياب طويل يستمر لعشر أو لعشرين دقيقة، لكن إسماعيل حرص دائمًا على أن يعود قبل أن ينهي أبوه جلسة السمر.

ومع مرور الوقت اختفى التلفزيون من البيت، ثم اختفى الراديو، ثم راحت كل كتب الفن تقريبًا، أربع كومات استقرت أمام بوابة الفيلَّا، ثم راح معظم ما تبقى من كتب، عشر كومات في الموضع نفسه، ثم غابت الصحف والمجلات فلم تدخل البيت إلا نادرًا، ولم يكن أمام إسماعيل من طرق للتسلية إلا قراءة الكتب القليلة المتبقية في المكتبة، وشراء عدد قليل من الكتب ومجلات الأطفال وتهريبها إلى داخل البيت. خبأ ثروته الصغيرة أسفل السرير، مع أن نوح لم يمنعه من ذلك لكنه صار يعرف ما يُغضِبُ أباه وما يُسعِده.

عندما اكتشف إسماعيل وجود نسخة من الكتاب المقدَّس موضوعة بين الكتب القليلة في المكتبة تعجب

كثيرًا، وتساءل لم تركها أبوه ولم يتخلص منها مع باقي الكتب، بالنسبة لأبيه هذا كتاب مليء بالكفريات. تذكر وهو يمسك النسخة ويقلب صفحاتها مشروعه القديم، المجلد الكبير الذي أراد أن ينسخ فيه الكتب الثلاثة؛ التوراة والإنجيل والقرآن، وخلال دقائق تطور هوسه بسرعة وبدا له أن هذا أهم ما يشغله، وقرر أنه سينسخ هذا الكتاب بأي ثمن.

نزل إلى الشارع على الفور، وطلب من صاحب المكتبة الصغيرة القريبة أن يصنع له مجلدًا كبيرًا مليئًا بالأوراق البيضاء، سأله الرجل عن عدد الصفحات، حسب في عقله مجموع صفحات الكتب الثلاثة وطلب منه أن يكون المجلد ألفي صفحة. بعد يومين فقط كان المجلد الكبير السميك مستلقيًا على سرير إسماعيل، بدأ في نسخ سفر التكوين بخط يده المنمنم على صفحات المجلد الأولى.

منذ ذلك اليوم، اعتاد أن يترك جلسة السمر الحلال بعد دقيقتين من بدايتها، يذهب إلى غرفته وينسخ بكل همة وسرعة في المجلد الكبير، أنهى العهد القديم في أربعة شهور، ثم أنهى الأناجيل في أربعة شهور، ثم أنهى نسخ القرآن في شهرين فقط، عندما انتهى تبقت صفحات قليلة بيضاء في النهاية، لم يفهم إسماعيل قَطُّ هذه المصادفة، وتساءل إن كان ثمة شيء غيبي تشير له الصفحات الفارغة، وعندما لم يسعفه عقله بتفسير ما أغلق المجلد،

ثم ألصق على غلافه ورقة بيضاء وحاول أن يتذكر ما اسم الكتاب الذي اختاره منذ مدة، حاول كثيرًا لكنه فشل، ولم تعجبه كل التركيبات التي وردت على ذهنه في تلك اللحظة، وأخيرًا استسلم لاسمٍ بسيط للغاية، فكتب على الورقة البيضاء بخط جميل: «الكتاب المقدس الكبير».

•••

في أحد الأيام عاد نوح إلى البيت بعد غروب الشمس بقليل، متوترًا خائفًا مرهقًا، في تمشيته اليوم رأى الكثير من الكفريات حوله، وتساءل بينه وبين نفسه إن كان عليه أن يترك مصر ويرحل إلى بلد آخر، وتساءل لِمَ يصر كل من حوله على مضايقته بكفرياتهم؟ ظل يسأل نفسه بلا أي إجابات حتى حان موعد جلسة السمر الحلال في تلك الليلة، فبدأها بآيات من القرآن وبأحاديث تحذر من الكفر كالمعتاد، وخصص الساعة التالية لشرح معاناته بسبب كثرة الكفريات حوله، لثوانٍ شعرت دليلة بالحزن لحزن نوح، لكنها عادت بعدها فورًا إلى لامبالاتها. ليلتها ذهب نوح إلى سريره وهو منقبض القلب، ونام بعد مدة طويلة من التفكير.

مع مرور الوقت أصبح نوح معروفًا لدى جميع سكان المنطقة حوله باسم «نوح كفريات»، عندما سمع اللقب أول مرة أثناء تمشيته المعتادة غضب كثيرًا لكنه لم يفتح فمه بكلمة اعتراض واحدة، وبعد انتشار اللقب بين الجميع

اعتاد سماع تعليقات سخيفة على ما يفعل، من المارة والجيران والعامل في كشك الزهور والكهربائي والبقال، الوحيد الذي ظل على صمته هو الرجل السحلية بائع الصحف، وعندما سمع نوح سؤالًا عن موعد البدء في بناء السفينة غضب كثيرًا وتحرك بخطوات سريعة نحو الشاب السخيف صاحب السؤال وقال له: «كفريات»، في ذلك اليوم عاد إلى البيت ولم يستطع أن يكتم غضبه أكثر من ذلك، فلم يبدأ جلسة السمر الحلال بالقرآن والأحاديث، وإنما انطلق على الفور شاكيًا مما سمع، حكى لدليلة وإسماعيل كيف أن الناس أصبحوا يتجرأون عليه مع أنه لا يضرُّهم لكنه فقط ينصحهم، حكى لهما عن النظرات الساخرة والتعليقات السخيفة التي أصبح يسمعها بانتظام، قال لهما إن أكثر ما ضايقه اللقب الغريب «نوح كفريات»، وفي لحظة لن تتكرر أبدًا قالت دليله له بوجه ممتعض ونبرة ساخرة: «أفضل من نوح الفنان بالتأكيد»، للحظة صمت مفكرًا في تعليقها، وعندما أدرك أنه لم يغضب اطمأن وتأكد أنه تخلص إلى الأبد من حبه للفن.

كانت تلك الجلسة مميزة جدًا بالنسبة لإسماعيل، لم يقم بعد دقيقتين من بدايتها كما اعتاد، لكنه بقي وسمع والده حتى النهاية، حزن لحزنه كثيرًا، تعاطف معه لأقصى درجة، ورأى أن سخرية الناس ربما تفيقه مما أصابه، وتجعله لا يتدخل في شؤونهم، أو ربما عليه هو شخصيًا أن يدفعه

إلى ذلك بطريقته الخاصة.

في اليوم التالي أحضر إسماعيل «الكتاب المقدس الكبير» معه إلى جلسة السمر الحلال، وبعد أن قرأ نوح الآيات والأحاديث التي تحذر من الكفر، مد إسماعيل يده بالمجلد الكبير ووضعه على الأرض أمام أبيه، لمح نوح العنوان الغريب، أمسك المجلد وفتح صفحاته، أدرك بسرعة أن ابنه نسخ صفحات كثيرة من العهد القديم ولم يفهم سبب ذلك، ثم قلب الصفحات ولاحظ أنه نسخه كاملًا، قلب صفحات كثيرة وتساءل لِمَ يضيِّع ابنه كل هذا الوقت في نسخ العهد الجديد أيضًا، ثم قلب بسرعة صفحات «رؤيا يوحنا» لأنه أدرك أن هناك مفاجأة تنتظره بعدها، تجمدت كفُّه الممسكة بالصفحة التي تحوي سورة الفاتحة، ببطء قلب الصفحة ليجد الآيات الأولى من سورة البقرة، ولم يكن بحاجة إلى أن يقلب باقي الصفحات، في تلك اللحظة فهم لماذا اختار إسماعيل هذا العنوان الكفري «الكتاب المقدس الكبير»، بالنسبة له هذا كفر ليس بعده كفر، لم يعرف ماذا عليه أن يفعل في تلك اللحظة، لام نفسه لأنه أطلع الولد على كل هذه الكفريات بنفسه؛ كتب الفن والحكايات التوراتية والقرآنية والمينيسكيورات، كل هذه الفوضى أثرت على عقل الولد وتسببت في الكفريات العظيمة التي يمسكها بيده الآن، لام نفسه لأنه لم يتمكن من إقناعه بنبذها خلال السنة الطويلة الماضية، لام نفسه

لأنه لم ينتبه لما يفعله الولد وإلى ما يدور في عقله الصغير، وتذكر يوم أن حرق مينيسكيوراته وأيقن أنه كان يجب أن يحرق نفسه معها لينقذ إسماعيل.

بدأ البكاء بصمت، ثم علا نحيبه رويدًا رويدًا وهو ينظر إلى إسماعيل ويتخيله يغرق في نهر من الحمم من دون أن يستطيع مساعدته، سال لعابه من دون أدنى سيطرة، حاولت دليلة تهدئته وطمأنته، احتضنته وربتت كثيرًا على كتفه وخده، قالت له إن كل شيء على ما يرام، وإن عليه فقط أن يهدأ، وإنه يفكر كثيرًا في أمور بسيطة ويضخمها بلا فائدة. لكنه فقد السيطرة على نفسه واستمر في البكاء.

تدهورت صحة نوح بسرعة، في اليوم التالي نقلته دليلة إلى المستشفى وشخَّص الطبيب حالته بـ«انهيار عصبي حاد»، لم يبقَ هناك سوى ساعات قليلة عاد بعدها إلى البيت، ساعدته المهدئات كثيرًا على الراحة في السرير والنوم العميق، لكن في اليوم الثالث انتكست حالته بسرعة هائلة، بقيت دليلة إلى جانبه على السرير تتابع ما يحدث له، كانت هادئة تمامًا، بينما لم يفهم إسماعيل ما يحدث حوله بشكل كامل، دخل إلى غرفة أبيه عدة مرات، في كل مرة يسمع صوته وهو يئن ويهذي، فيخرج وهو خائف جدًا مما قد يحدث له، آلمه كثيرًا هذيان أبيه لكن هدوء أمه طمأنه، رحل نوح بعد ساعتين من الهذيان.

قررت دليلة أنها لن تقيم في الفيلا بعد رحيله، بشكل

عملي تمامًا رأت الفيلّا أكبر من أن تعيش فيها مع إسماعيل، زارت الشقة القديمة التي ورثتها عن أمها في جاردن سيتي، فوجئت بأنها في حالة جيدة جدًّا، وقررت أن تنتقل إليها على الفور دون حتى أن تدهن الحوائط أو تجدد مواسير الحمام، خلال أيام حزمت كل ملابسها وملابس إسماعيل، وطلبت سيارة نقل أثاث لتنقل قطعًا قليلة تحبها ولا تريد أن تتركها في الفيلّا، أخبرته أن التغيير المقبل سيكون مفيدًا لهما كثيرًا، قالت إنه لن يسمع كلمة «كفريات» من الآن وحتى تموت، وأن له أن يفعل ما يريد وأن ينسخ من الكتب ما يحب، وأن العام الماضي بكل ما فيه لن يتكرر في حياتهما أبدًا.

•••

الطريق من المعادي إلى جاردن سيتي ليس طويلًا لكنه مزدحم دائمًا، دليلة على المقعد الخلفي بعباءتها السوداء ونقابها، وإسماعيل يقعد إلى جانب السائق يستمع إلى شكواه المتكررة، المشكلة هي أن «العداد يفوِّت» حسب كلامه، إسماعيل لم يفهم ما يقصده ونظر إلى العداد فوجد أن أرقامه تدور بشكل عادي، الرقم المسجل ازداد خلال الربع الساعة الماضية بالتأكيد، لفت السائق نظره إلى السلك البارز من قاع العداد، قال إنه ينقل الحركة من عجلات التاكسي إلى العداد نفسه، يدور السلك دورة واحدة بعد مسافة محددة، ومع كل دورة للسلك تنتقل

الحركة إلى بكرات الأرقام في العداد نفسه فيزداد الرقم الظاهر على وجهه، فيضيف قروشًا قليلة إلى الرقم الذي يزداد كلما مضى التاكسي، والمشكلة في عداده هذا أن السلك يدور دائمًا لكن بعض الدورات لا تؤثر على العداد نفسه، فيظل الرقم ثابتًا أحيانًا مع أن التاكسي يتحرك.

مضت سيارة نقل الأثاث بعيدًا أمامه إلى مكان الشقة الجديدة، هدأ سائق التاكسي من سرعته ووقف في محطة بنزين، نزل وبدأ حوارًا قصيرًا مع أحد عمال المحطة، ثم أمال رأسه نحو شباكه المفتوح وقال لإسماعيل إنه سيتأخر دقيقتين فقط.

نظر إسماعيل إلى دليلة فوجدها بلا نقابها وعباءتها السوداء، فاجأه منظرها كثيرًا، ظهر فستانها الملون القديم ضيقًا قليلًا، لاحظ عنقها الممتلئ وعرق جبهتها وحاجبيها المنعقدين وعينيها الكئيبتين الجامدتين، كانت تنظر بجمود إلى الأمام، من دون أن يبدو عليها أدنى اهتمام بنظرة إسماعيل المتعجبة أو نظرات المحيطين بها، حدق في وجهها وعينيها، وتخيلها تتحرك أثناء انشغاله بثرثرة السائق وبملاحظة العداد منذ دقائق، تتحرك ببطء وتخلع كل سوادها، تخفي العباءة في حقيبتها، وتحاول أن تصلح من ملابسها، أحزنه منظرها الآن، رأى أنها لا تبدو جميلة أبدًا.

نظر إسماعيل إلى الأمام عندما عاد السائق، أغلق الباب

وأدار المحرك، تحرك التاكسي ببطء، وفكر إسماعيل أن عليه أن يطمئن أمه بأي طريقة، فكر أنها بحاجة إلى مساندته في وسط هذا التغيير الكبير الذي أقدمت عليه، وتمنى لو أنها أخبرته بما انتوت فعله، أو ليتها لم تفعل ذلك في التاكسي وسط السيارات والمارة والعيون، ثم التفت إليها ولم يجد ما يقول فسألها عن عنوان الشقة مع أنه كان يعرفه تمامًا، لم ترد عليه إلا بالجمود والتحديق إلى الأمام.

لم يكن التاكسي قد ابتعد كثيرًا عن محطة البنزين، من خلال زجاج التاكسي الخلفي لمح إسماعيل بطرف عينه النار تشتعل في جانب سيارة لا تزال مستقرة داخلها، لاحظ الجلبة وحركة العمال حول السيارة وسمع صوت صرخات مكتومة جاءه من هناك، أحد العمال حاول إطفاء النار بإلقاء رمل أصفر من سطل في يده، آخر حاول بواسطة طفاية حريق لكنها لم تعمل، انتشرت النار بسرعة لتغطي جانب السيارة بالكامل، نبَّه إسماعيل دليلة لتنظر إلى الخلف لكنها تجاهلته تمامًا، في لحظة واحدة ارتفع عمود سميك من النار من المحطة كلها، كل شيء داخلها يحترق والنار تعلو نحو السماء، نبهها إسماعيل إلى الحريق بصوت خائف حقًا لكنها تجاهلته، نسي أمه واستقرت عيناه على المحطة بحثًا عن أي ناجٍ من النار، عن أي شخص يخرج جاريًا وملابسه تشتعل كما يحدث في الأفلام، لكنه لم ير سوى اللهب.

سمع كلامًا كثيرًا تافهًا من السائق عن الحرائق التي شهدها من قبل، لا يتناسب أبدًا مع بشاعة ما حدث منذ ثوانٍ، لاحظ أنه يسرع كثيرًا هربًا من النار البعيدة جدًا، نظر إلى العداد المستقر قرب ركبتيه، دار السلك المعدني دورة واحدة وزاد الرقم المسجل على وجه العداد، ثم دار دورة ثانية وثالثة ورابعة، لكن الرقم لم يتبدل قَطُّ.

5

يستيقظ إسماعيل والعرق يغطي جسده، يتأمل المكان حوله ويتذكر بسرعة ما حدث، آلام أسفل الظهر أيقظته، يسعل ويتحرك ببطء خارج غرفة المكتب.

- صباح الخير، كيف حالك؟

- ماشي الحال، ظهري يؤلمني قليلًا.

- ألف سلامة، هل تود أن تذهب للطبيب؟

- كفاية أطباء ومستشفيات، سأكون بخير بعد الدش.

- كريم اتصل أثناء نومك من مطار بوسطن، الآن هو فوق المحيط، وخلال ساعات سيصل إلينا.

- كريم؟

يود لو أنه تأخر قليلًا، أيامًا أو حتى أسابيع.

تحت الدش يستسلم للماء الساخن على ظهره يدلك عضلاته. لا يمكنه تذكر كريم إلا وهو طفل، الآن هو في عامه الخامس والعشرين، كيف سيحتضن ابنه الذي لم يره بالغًا قَطُّ؟ ويحاول أن يتذكر وجه كريم لكنه يفشل.

يجلس في الصالة ويقلب صفحات الأهرام الأولى، الآن يتذكر بسهولة كل ما حدث من خلال المانشيتات التي تؤكد أن ثورة حدثت في 2011 وبعدها تؤكد بقوة أن ثورة أخرى حدثت في 2013، ثم سنوات بناء وتعمير وإنجازات، يتذكر أنه في تلك السنوات كتب مئات المقالات

المنشورة على مواقع الإنترنت، ثم يغيب كل شيء آخر.

يفكر أن كلام الطبيب صحيح، يمكن بسهولة فهم ما حدث في مصر في أي وقت من خلال قراءة مانشيت الأهرام الرئيسي لكل يوم، كان يقرأ وهو يعلم تمامًا أن المكتوب لم يحدث بالضبط، بل هي وجهة نظر الكاتب، ووجهة نظر الجهة التي أملته المانشيت، كان هناك شيء غامض يكتب العناوين والأخبار ويتحكم في كل ورقة جريدة مطبوعة في البلد، يتذكر أنه تناقش مع العديد من الزملاء عن هذا الشيء، وانتهى الجميع إلى أنه الخوف.

تبدو بعض المانشيتات ضبابية أكثر من غيرها، ويزداد الغموض مع تكرار المعنى نفسه بعد تغيير الصياغة، ثم فجأة تبدو المانشيتات غامضة ومجهولة تمامًا، تاريخ لا يعرفه، يعود إلى الأوراق السابقة ليدرك أن يومًا محددًا يفصل بين ما يذكره وبين ما راح. صاح فجأة:

- يا مريم، عرفت اليوم الذي فقدت فيه ذاكرتي.

لم يسمع إجابة، ناداها مرة أخرى:

- مريم؟

- هذا جيد ومفيد، لا تحاول أن تتذكر ما بعد ذلك.

- لماذا؟

- أخبرتك من قبل أنَّ ما حدث بشع، والأفضل ألا تتذكره.

- ما حدث للبلد بشع، أم ما حدث لي بشع؟

- ما حدث لنا جميعًا زفت.

- طيب لا داعي للشتيمة.

- زفت، زفت، زفت.

- لكن الطبيب يقول إن عليَّ أن أتذكر، أنا نفسي بحاجة إلى أن أتذكر.

تهدأ قليلًا، تفكر أنه كان مريضًا منذ أيام قليلة ويحاول الآن أن يتعافى.

- أخبرني متى كان هذا؟

- حسب هذه الأوراق، في الأيام الأخيرة من فبراير 2016. اعتدت أن أقرأ الأهرام كل يوم، أذكر أن الصفحة الأولى كانت مشغولة على الدوام بتحركات الرئيس، ماذا يفتتح ومن يقابل والبلاد التي يزورها، بل حتى أذكر الصور المتشابهة التي تتكرر على الدوام، ثم بعد منتصف فبراير لا أذكر أيًا من العناوين، كل هذا جديد عليَّ.

- ماذا حدث؟

- لست متأكدًا، لكني أعرف أنني فقدت الذاكرة، لا أستطيع تحديد ما حدث بالضبط، لكنني لم أفقد الذاكرة كما يحدث في الأفلام، كنت أتذكر كل شيء لكني لست أنا، كنت شخصًا آخر تمامًا.

تتنهد مريم:

- هذا كلام غير منطقي، لن يعرف أحد ما الذي أصابك بالضبط، الحمد لله أنك بخير الآن.

- نعم، لكن لا توجد طريقة منطقية لوصف ما حدث،

نسيت العالم الذي كنت فيه إنسانًا، وأصبحت في عالم آخر كنت فيه إلهًا، ويبدو أنني تابعت حياتي وسط البشر دون أن أخبرهم بذلك.

لكن لا شيء يأتيه بعد ذلك، وكأن تلك الفترة غير موجودة في ذاكرته، تابع:

- ربما أقرأ كتابًا عن الذاكرة لأفهم كيف تعمل، حينها قد أفهم ما حدث.

- أنت تحاول التذكر حسب ما طلب الطبيب، لكنه لم يطلب منك أن تقرأ كتبًا عن الذاكرة، وبصراحة، كل من حولك علموا بموضوع «ألوهيتك»، لا شيء جديدًا بالنسبة لنا.

- أنتِ دائمًا هكذا.

- أرح عقلك قليلًا يا إسماعيل، ألا تخشى أن تعود إلى عالمك المختلَق؟

- لم قد أعود إليه؟ ما دمت أتناول الدواء بانتظام فلن أعود.

- أنت دخلت عالمك هذا بسبب كثرة التفكير، أنت رجل غير طبيعي أصلًا، وربما يتغلب عقلك على الدواء ثم تقف في البلكونة تطالب المارة بالسجود لك.

ضحك إسماعيل كثيرًا، ضحك مبتهجًا فعلًا، لا كي يخفي خجله مما فعل.

- إذن فقد كتبت كتبك الأخيرة وأنت إله؟

بدت وكأنها تسأله لتتابع الحديث، بدت وكأنها تعرف الإجابة تمامًا.

- نعم، هذا واضح جدًا، قرأت فقرات عديدة أمس من كل الكتب التي صدرت بعد «فصام أمة»، وكلها تشير إلى شيء واحد، أني أروِّج للدكتاتورية كي أجهِّز الناس لعبادتي، هذا شيء مضحك.

- يبدو أنك نجحت حقًّا.

- كيف؟

- الناس وقتها كانوا يطالبون الحاكم بمزيد من الدكتاتورية، لم تكن كتبك وحدها صاحبة الأثر، بل كان كل من حولهم يروج لهذا الرأي، مع ذلك كتبك كانت الأساس القوي الذي يبني عليه الآخرون، الآن الناس يعبدون الحكام المصريين القدامى، الملايين يقدسونهم.

- ما معنى هذا؟ كيف يعبدونهم؟

يسمع رنين جرس الباب، تقوم مريم من مقعدها وتخبره وهي تتحرك نحو الباب:

- نسيت أن أخبرك، لا بد أن هذه منال، طلبت أن تأتي لتطمئن عليك، هل تذكرها؟

يهمس وعيناه متسعتان:

- منال، نعم، أذكرها بالتأكيد.

طفلة صغيرة خائفة تبكي، سمينة قليلًا، علامات زرقاء على ذراعيها ووجهها، تنام فترات طويلة، تأكل كثيرًا

وتحب بطاطس ماكدونالدز.

تحتضنه بقوة، وهو ينظر في وجهها متعجبًا من التغير الهائل الذي حل عليها، رشيقة جدًّا الآن، بملابس رياضية خفيفة تزيد من رشاقتها، تبدو في العشرين على الرغم من أنها تقارب الأربعين، كاد أن يسألها عن عمرها لكنه أمسك لسانه في اللحظة الأخيرة.

بابتسامة كبيرة تقول له:

- وحشتنا يا عمو.

- تغيرتِ كثيرًا يا منال، أنت الآن شخص آخر مدهش.

ومريم تقول له بلطف:

- حان وقت توقفك عن الاندهاش يا حبيبي، لا يمكن أن يكون هذا ردك الدائم الثابت على كل ما تراه.

يجلس الجميع، وتقول منال بصدق:

- من حقك أن تندهش يا عمو، كل شيء تغير.

وتعاوده ذكرى الشعور الهائل بالغضب، والصوت الجهوري المنفعل، والفيديوهات المجنونة تمامًا، والفتاة الصغيرة التي بكى حزنًا وذهولًا عندما رآها تلبس حلة على رأسها. ينظر في الأرض، يتأمل زخارف السجادة، ويتذكر نصيحة الطبيب فينتبه إلى أنه يجب أن يكبح سعادته الآن وأن يتوقع الأسوأ دائمًا.

يسألها مبتسمًا:

- ماذا تعملين يا منال؟

- مترجمة، وأشياء كثيرة أخرى.

- جميل، ماذا تترجمين؟

- أشياء كثيرة أيضًا، الآن مثلًا أترجم «البحث عن الزمن المفقود» لـ«مارسيل بروست».

- هذا عمل جميل، ألم يُترجم من قبل؟

ترفع كتفيها وتقول:

- بلى، وما المشكلة إن ترجمته مرة أخرى؟ ربما أترجمه بطريقتي الخاصة.

تقوم مريم من مكانها وتقول:

- سنفطر معًا إذن.

تقوم منال لتساعدها، يدخل إسماعيل غرفة مكتبه، ينظر إلى رصة الكتب التي ألَّفها قبل أن يدخل المستشفى، يفكر أنه سيفرِّق بينها وبين كتبه الأسبق؛ القديمة ألفها وهو إنسان، الحديثة ألفها وهو إله. يفكر أن منال لا بد أنها قرأت منها الكثير، هي الآن مترجمة والمترجم يقرأ كثيرًا، ويفكر أن البنت مرَّت خلال السنوات السابقة بسلام ولم يحدث لها ما حدث له رغم كل ما رأته وعايشته، وهو بالتأكيد يرى مقدارًا من العدالة لأنها نجت، ومقدارًا أكبر من العدالة لأنه لم ينجُ.

6

كانت تلك شهورًا عظيمة بالنسبة لإسماعيل ومريم، مدٌّ ثوري عارم في 2013، واعتراضات كثيرة على حكومة الإخوان المسلمين، مظاهرات في الشارع طوال الوقت، ومعارك كلامية ومشاجرات لا تنتهي بين مؤيدي الإخوان ومعارضيهم، وحصار شعبيٌّ لقصر الاتحادية، الإعلام كله مؤيد للمتظاهرين، حتى من كانوا يعارضونهم في 2011 انقلبوا إلى تأييدهم، الجيل الكبير أصبح مؤيدًا لهم بعدما اتهمهم بإثارة الفوضى والتهور والانحلال قبل عامين فقط، الإعلاميون يدعون الشعب للنزول إلى الشارع، والشارع بالفعل يتحرك ضد الرئيس كما لم يتحرك من قبل، لم يعد الرئيس الشخص نصف المعبود كما كان سابقًا، لم يعد الطاغية المخيف القديم، حتى مؤيدوه كانوا يرونه ضعيفًا تافهًا، كانوا يعلمون أنه يرى نفسه أصغر من كرسي الحكم بكثير، على عكس كل الطغاة الذين سبقوه، كل منهم كان يرى أنه أكبر من الكرسي. وفي كل مسيرة وكل مظاهرة كان إسماعيل ومريم في الطرف، قرب الرصيف دائمًا، يسيران دون أن يهتفا، فقط يحيط كل منهما الآخر بذراعه ويمشيان، كانا يشغلان مكانًا صغيرًا وسط كل هذا، ومجرد الشعور بذلك جعلهما سعيدين.

في الذكرى الثالثة لزواجهما أرسل أحد الأصدقاء رابط

فيديو لإسماعيل، وكتب أن عليه أن يشاهده. لم يهتم إسماعيل كثيرًا بالرسالة، ثم بعد دقائق أرسل الصديق رسالة أخرى تفيد أنه يشك في أن حماه يظهر في الفيديو الغريب. فتح إسماعيل الفيديو، وشاهد مدة الأربع عشرة دقيقة ثلاث مرات متتالية. بعد المرة الثالثة أيقن أن عائلة مريم واقعة في مشكلة.

ظهر في الفيديو الأستاذ يحيى عمران المحامي والد مريم، وزوجته السيدة هاجر، يقفان في بلكونة بيتهما، تظهر المباني أمامهما منخفضة بلا أي شيء يميزها، مسحت الكاميرا المباني لنصف دقيقة من دون أن تسجل أي صوت بشري، غاب المارة والسيارات عن الشارع تمامًا، ثم رنت أول جملة قالها الأستاذ يحيى بصوت جهوري سُمع صداه يتردد في الفراغ حوله: «يا شراميط يا خولات». كان المزيج كله مفزعًا، الكلمتان القبيحتان، حركة ذراعه اليسرى المنفعلة المفرودة إلى أقصى حد، وسبابته التي تشير إلى المباني أمامه مباشرة، صوته العنيف الغاضب، تشديده على حرفي الخاء والشين وإظهارهما بقدر ما استطاع، يصرخ موجهًا كلامه إلى أشخاص غير معلومين: «يا أنصاف العاهرات»، ثم تبدأ السيدة هاجر الصراخ من البلكونة نفسها لكن بغضب أقل وحرج واضح: «حطوا السيكولوجي بتاعكو في طيازكو يا مومسات». ثم تتردد قليلًا في الجمل التالية، فلا تنطق بألفاظ قبيحة بل تقول

«العضو الذكري» و«الأعضاء التناسلية» وسط كلامها، تقول كلامًا بشعًا عن محاولات إدخال «العضو الذكري» في «أعضائها التناسلية» عن طريق «ميكروفونات السيكولوجي» المزروعة في البيت. تبدو البلكونة وكأنها تقع في الطابق الثاني ومنها يظهر الشارع بوضوح، يمر أحدهم في الشارع ويتوقف قليلًا، ثم يبدأ بالاقتراب مع استمرار الصراخ والشتائم، فورًا يتحول الأستاذ يحيى إليه، يشتمه متهمًا إياه بالتجسس عليه، يظل يعيد الاتهامات نفسها ويعلمه بكل ثقة بأن «السيكولوجي بتاعهم» لن ينفع معه، وإن «ميكروفون التجسس السيكولوجي» الذي زرعوه في منزله لن يفيدهم، ثم يبدأ في شتم الرجل المار بألفاظ بالغة القبح.

أخذ إسماعيل يتصفح الفيديوهات الخمسة الأخرى التي تظهر تحت قناة اسمها «يحيى عمران»، كلها رُفعت خلال الشهر الماضي، وكلها مصورة داخل شقة العائلة الصغيرة، في أحدها ظهر الأستاذ يحيى وتكلم بهدوء تام عن المؤامرة التي تحيكها ضده أجهزة الأمن والتجسس، وعن التهديدات التي يتلقاها يوميًا، وعن محاولات الاغتيال (محاولة كل أسبوع على الأقل) وعن الكلام القبيح السافل الموجه لزوجته وابنته، وعن ميكروفونات التجسس الموجودة في بيته، والتي تبث رسائل سيكولوجية للسيطرة عليه وعلى عائلته. بينما تظهر زوجته منفردة في

فيديو آخر لتتكلم بخفة لكن بمحتوى صادم أكثر، فتتهم الكنيسة والإخوان المسلمين بمحاولة تنصيرها وضمها إلى الجماعة في وقت واحد، وتتهم ميكروفونات السيكولوجي بمحاولة تحويلها إلى عاهرة عاملة، وكيف عرضت الميكروفونات عليها أن يرسلوا الزبائن إلى البيت، وكذلك تتهم السيكولوجي التابع للأجهزة بمحاولة إقناع ابنتها الصغيرة منال بإقامة علاقة جنسية مع أبيها.

تسارعت ضربات قلب إسماعيل وهو يخبر مريم بما شاهده، وسألها إن كانت قد لاحظت أي تغير على أبيها عندما تكلمه أو تقابله، هي لم تلاحظ شيئًا، زياراتها قلّت بعدما انتقلت عائلتها إلى بيت صغير بعيد في مدينة 6 أكتوبر، وصوت أبيها يبدو عاديًا في التلفون، لم يتكلم عن مؤامرات أو أي شيء يشبه ذلك. ثم أخبرته أن حالة والدها النفسية لم تكن مستقرة دومًا، لكن لم تصل إلى هذا الحد قَطُّ. كانت تتكلم بهدوء تام كعادتها، ذلك أنها لم تكن قد رأت الفيديوهات بعد.

توقفت عن مشاهدة الفيديو الأول بعد خمس دقائق فقط، وأصرت على أن تذهب إلى عائلتها في الحال، بكت بصوت خفيض في التاكسي، وإسماعيل، الذي كان يجلس إلى جوار السائق، سمع صوتها الخافت وفكر في أن اللجوء إلى طبيب نفسي آخر أصبح أمرًا ضروريًا في هذه الحالة، مريم لن تقوم بعمل أي شيء، فلا يمكن لطبيبة نفسية أن

تعالج أباها وأمها وأختها الصغيرة، لكن زملاء مريم سيساعدونها حتمًا.

استقبلهما الأب مرحّبًا، ولام إسماعيل مداعبًا لأنه لم يعد يتصل كثيرًا كما كان يفعل سابقًا، أحاط بالجميع جو من الترقب، كانت مريم صامتة جامدة الوجه، وهي من أوحت للجميع أن هنالك شيئًا ما خطأ. قام إسماعيل ووقف في البلكونة نفسها التي ظهرت في الفيديو، تأمل المشهد نفسه الذي شاهده منذ قليل، الشارع الخالي والبيوت الأربعة المواجهة لبيت الأستاذ يحيى، بينما أخذ صوت الرجل المنفعل الغاضب يصله من الداخل، يعلو رويدًا رويدًا، يحاول صوت مريم الحاد مقاطعته بلا فائدة، ثم يظهر صوت أمها أكثر حدة وانفعالًا. ظل واقفًا في البلكونة، وصله الصوت واضحًا تمامًا الآن، جدال حاد حول ما يبدو حقائق بالنسبة للأستاذ يحيى، الاتهامات نفسها، أجهزة الأمن تتجسس عليه وعلى العائلة، هناك أربعة بيوت على الجانب الآخر من الشارع ترسل إشعاعاتها إليه لتسيطر عليه بالسيكولوجي، وتقاطعه مريم لتسأله ما السيكولوجي أصلًا، فيجيبها بأنه طريقتهم للسيطرة على الناس. يحتدم الجدال بين الاثنين، وتصمت مريم لينطلق أبوها مكيلًا الاتهامات مرة أخرى للجميع، وعندما يتوقف عن الكلام قليلًا تطلب منه مريم بهدوء أن يسمعها، تقول له إنها ابنته وأمره يهمها كثيرًا.

انتبه إسماعيل لصوتها الخفيض الهادئ، قالت لأبيها إنه مريض، كل ما يقوله مجرَّد هلاوس وضلالات وأشياء غير حقيقية يتوهمها، وأنه يعيش الآن في عالم خيالي منعزل عن كل ما حوله، وأنه أثَّر تأثيرًا سلبيًا على أمها ونقل كل هلاوسه إليها. دعته لأن يزور طبيبًا نفسيًا ليساعده على تخطي الأزمة هذه، قالت إن عليه أن يهتم بأمها وبأختها الصغيرة، هي بالذات لن تتحمل هذا الوضع. قالت له إن تعرُّض بنت في العاشرة من عمرها لسماع كل هذا سيدمرها تمامًا، لن تكون إنسانة سوية عندما تكبر. ذكرته بالاضطرابات النفسية التي أصابته عندما كانت طفلة، وذكرته بشجاعته عندما انتبه لمرضه وزار الطبيب بنفسه، قالت إن تاريخه المرضي دليل على تعرضه لحالة شبيهة الآن، قالت إنها تعرف الكثير من المستشفيات والأطباء، أصدقاء أعزاء قد يساعدونه، وكذلك يمكنهم أن يساعدوا...

قاطعها بصوت خالٍ من أي نبرات: «اطلعي بره». صمتت قليلًا ثم أخبرته مرة أخرى أنه يجب أن يسمعها، لكنه قاطعها هذا المرة بعصبية وانفعال حاد، أمرها بالخروج من البيت، وانفجرت أمها صارخة. سمع إسماعيل صوت لطمات وصراخ مريم، دخل إلى الشقة فوجد الأستاذ يحيى يمسك بمقشة ويلوح بها في الهواء، بينما كانت السيدة هاجر تمسك بالشبشب وتضرب مريم ضربات متلاحقة سريعة على وجهها. بسرعة استطاع تخليصها من أمها،

خرجا من الشقة، نزلا على الدرج، مشيا مبتعدين عن المنزل، مريم واجمة تبكي، وأبوها يصرخ من البلكونة بصوت يهز الشارع الصامت الخالي من الناس، اتهمها بالعمل مع أجهزة الأمن لتتجسس عليه، لتقنعه بأنه مجنون ولتسلمه إلى مستشفى المجانين ليسيطروا على مخه تمامًا، ثم ختم اتهاماته الغاضبة برسالة موجهة مباشرة إلى ابنته، قال إن تجنيدها من قبل «أنصاف العاهرات» لا يهمه، هي لم تعد ابنته، هي ماتت.

في بيتهما لم تنم مريم تلك الليلة، ظلت راقدة في السرير وإسماعيل إلى جانبها، يغفو قليلًا ثم يستيقظ ليشعر بها مستيقظة أيضًا. كانت تعلم جيدًا أن من حقها قانونًا أن تطلب إيداع أبيها وأمها المستشفى في حالتين فقط، أن يمثلا خطرًا على نفسيهما، أو على المحيطين بهما، وهو ما لا ينطبق على حالتيهما الآن، يمكنها طبعًا أن تطلب مساعدة أصدقائها في العباسية أو في أي مستشفى خاص، سيتم كل هذا بشكل غير قانوني وحينها ربما لا تتمكن من الحصول على حق حضانة منال.

في الصباح أجرت مريم عدة مكالمات هاتفية مع عدد من المحامين، تحاول أن تعرف رأيهم فيما يخص عائلتها دون أن تخبرهم بالتفاصيل، تحاول أن تفهم ما يمكن عمله قانونًا من إجل إخضاع شخص ما لكشف طبي نفسي من دون أن يكون خطرًا على نفسه أو على من حوله، وعندما

علمت أن ذلك شبه مستحيل تقريبًا، سألتهم كيف يمكن لشخص أن يأخذ حضانة أخته من أبويه بحكم القانون، حتى ذلك لم يكن سهلًا قطُّ.

عاودت مريم الاتصال بأبيها لكنه لم يرد، أمها كذلك تجاهلتها، وبعد خمسة أيام رفع أبوها فيديو جديدًا يعلن فيه أن أجهزة الأمن قد جنَّدت ابنته الكبرى للسيطرة عليه، وأنهم أرسلوها إلى بيته كي تقنعه بتسليم نفسه إليهم، وقال إنه لن يسلم نفسه أبدًا للمتآمرين والأمنجية والمخبرين. كان الفيديو هذه المرة بلا شتائم، وظهر أبوها قويًّا واثق اللهجة.

بعد ساعات من رفع الفيديو اتصل بها عمها ليوبخها على ما فعلته، قال لها إن أباها مجنون بالتأكيد، لكنها أخطأت بتدخلها وأن عليها ترك العائلة، فلا علاقة لها بهم الآن، وقرب نهاية المكالمة انفعل كثيرًا عندما حاولت الدفاع عن نفسها، واتهم «الثورة» بأنها السبب في انحلال هذا الجيل الفاسد الضايع، حذرها مرة أخرى من الاتصال بهم، وقال لها إن الثورة ستفشل لأنها هي نفسها امرأة فاشلة، ولأنها تعمل مع المخرِّبين والخونة.

قاومت مريم القلق.

بعد أيام عاد إسماعيل إلى البيت ليجدها في الحمَّام، الباب مغلق والمفتاح على الأرض أمامه، ناداها فردت بصوت باكٍ، قالت إنها ليست بخير، تراودها الكوابيس كل

ليلة، متوترة جدًا ومكتئبة جدًا، في الأيام الثلاثة الأخيرة فكرت بجدية في قتل أبيها ثم الانتحار، قالت إنها تريد أن تنقذ أختها بأي ثمن، ولم تعد تفكر في أمها، أمها راحت خلاص، قالت إنها اليوم أخذت من المطبخ ثلاث سكاكين وساطورًا، وأكياس بلاستيك سوداء كثيرة، وربطة حبل بلاستيك، وكبريت وزجاجة سبيرتو، وقررت أخيرًا أن تقتله وتقطع جسده وترميه في الشارع، في أماكن متفرقة حول بيته في 6 أكتوبر، قالت إنها لن تجرؤ على قتل أمها، لكنها ستقيدها بالحبل ريثما تنتهي من قتله وتقطيعه، قالت إنها ركبت ميكروباص إلى بيته، وقفت هناك تنظر إلى البلكونة لمدة ساعة كاملة، تعيد ترتيب الخطة في رأسها وتحسب كل شيء مرة أخيرة، وقالت إنها فكرت أن تقطعه إلى خمس قطع حتى يكون وزن كل قطعة خفيفًا، قالت إنها أخذت تتقدم نحو البيت، وعند البوابة سألت نفسها لم ستنتحر إن كانت ستقطعه وترمي أشلاءه بعيدًا؟ قالت إنها أدركت أنها خططت للانتحار لفرط إحساسها بالذنب، قالت إنها ارتعبت وأخذت ترتجف، قالت إنها بكت هناك عند بوابة البيت، قالت بحزن بالغ إنها تبولت وهي واقفة رغمًا عنها، قالت إنها عادت إلى موقف الميكروباص وركبت واحدًا إلى البيت، قالت إنها عندما وصلت البيت اكتشفت أن الرجل الذي كان إلى جانبها في الميكروباص تحرش بها، أخرج قضيبه من بنطلونه وداعبه وهو يحدق في عينيها،

قالت إنها لم تنتبه لما فعل إلا عندما وصلت البيت، تركت كل شيء في الصالة، السكاكين والأكياس والحبل، ثم دخلت الحمَّام وأغلقت الباب من الداخل، أخرجت المفتاح من تحت الباب وجلست تنتظره، قالت إنها بحاجة إلى مهدِّئ، إلى طبيب، إلى مخدِّر، إلى حشيش، ربما إلى الكثير جدًا من السكَّر، إلى أي شيء لأنها غير متزنة تمامًا، قالت إنها تفكر في الانتحار كل دقيقة، قالت إنها ترى نفسها في القبر، قالت إنها ترى نفسها ونساء لا تعرفهن يغسلن جثمانها، قالت إنها ترتاح كثيرًا عندما تشاهد ظلام القبر وتدرك أنها أصبحت عاجزة عن الحركة والشعور بما حولها، قالت إنها حاولت ألَّا تستنشق الهواء فتموت لكنها فشلت، قالت إن عليه أن يتصرف فهي عاجزة عن فعل أي شيء الآن.

لم يكن أمام إسماعيل خيار إلا الاتصال بالدكتور إبراهيم، صديق وزميل مريم، جاء على الفور، تصرف كأنه يزورهما زيارة عادية في المنزل، تحدث إلى مريم دقائق قليلة ثم أوصاها بتناول دواء مهدئ، طلب من إسماعيل ألَّا يزعجها، أن يبقيها في البيت حتى يراها الأسبوع القادم، طلب منه أن يتابعها باستمرار، وأن يتصل به إن تغيرت حالها.

بعد عدة أيام من الهدوء، رُفع فيديو على قناة الأستاذ يحيى عمران، هذه المرة كانت ابنته الصغيرة منال تصور الشارع والمباني المواجهة من البلكونة، تصف بدقة كيف

يقوم القاطنون بتلك المباني بمحاولة السيطرة عليها من خلال ميكروفونات السيكولوجي، ظلت تردد كلام والديها وظنونهما، لم تقف الفتاة الصغيرة عند أي حد، حتى إنها وصفت بدقة ما تقوله لها الميكروفونات، ما تحاول أن تقنعها بفعله كل يوم؛ إقامة علاقة جنسية رغمًا عنها مع أبيها. لم يعلم إسماعيل كيف يتصرف، مريم كانت في حالة سيئة جدًا، لا يمكن أن يطلعها على الفيديو وهي تحاول أن تتعافى، لم يكن مستعدًا للذهاب إلى منزل الرجل، لكنه كان يرى بوضوح أن البنت الصغيرة تنزلق بسهولة تامة إلى كهف الأب والأم.

استطاع الوصول إلى ضابط الشرطة السابق صاحب المكتب الذي يعمل فيه الأستاذ يحيى، حكى له باختصار ما حدث، والرجل استمع إليه صامتًا، وقال له بهدوء إن الحل القانوني طويل ومعقّد جدًا، لكنه يستطيع أن يأخذ البنت بطريقة ما، قال إن الأستاذ يحيى تدهورت حالته تمامًا بعد الثورة، انهار «وكأنه ضابط شرطة» قالها وهو يضحك، وقال لإسماعيل إن عليه ألّا يستسلم، وعليه أن يحاول إنقاذ البنت، من الناحية القانونية الشخص الوحيد الذي يمكن أن يتحرك هو ابنته، عليها أن تطلب من أحد المستشفيات بشكل رسمي أن يأخذها عنوة للعرض على الطبيب، وحتى هذا الحل صعب التنفيذ، معظم المستشفيات ترفض أن تتورط في هذا الفعل، والخلاصة

أن لا أحد يستطيع فعل أي شيء لهما. زاد رأي الرجل المتردد من ارتباك إسماعيل.

لكن كان للدكتور إبراهيم رأي آخر، قال إننا يمكن أن نعتبر أن الرجل يؤثر تأثيرًا سلبيًا على ابنته الصغيرة، هذه مرحلة متأخرة جدًا، وببساطة يمكن أن يرى أي طبيب نفسي أن الرجل يشكل خطرًا على ابنته، اقترح إبراهيم أن يذهب إلى البيت ويقابل الرجل وزوجته بنفسه، وإن اقتنع بخطرهما على البنت فيمكنه أن يتحرك حينها، سيطلب من المستشفى أن «يشحن» المريض بطريقته المعروفة، مجموعة من الممرضين الأقوياء يقيدونه وينقلونه بعربة الإسعاف، ثم يُعرض على لجنة من الأطباء، الذين سيوافقون في الأغلب على إيداعه المستشفى.

قابل إسماعيل إبراهيم وذهبا معًا إلى مدينة 6 أكتوبر، الشارع هادئ كعادته، ضغط إسماعيل زر الجرس، فتح يحيى له الباب ودخلا البيت، يحيى قال لإسماعيل إنه مصدوم تمامًا لأن منال كانت تتجسس عليه، وكان يجب أن يفعل ما فعل. البيت هادئ تمامًا، ارتعب إسماعيل، ظن أن الرجل قتل ابنته، كان الوضع كله يوحي بجريمة قادمة. أدخله يحيى إلى إحدى غرف النوم، تردد كثيرًا وتباطأ وهو ينظر إلى إبراهيم ليدخل معه، لم يتحرك إلا عندما تحرك معه، وجدا منال نائمة على الأرض، فمها مكمم بمنديل تخثّرت الدماء عليه، مقيدة بحبل أزرق، وحلة صغيرة

مربوطة برأسها بحبل قصير، حدق الثلاثة في جسدها لمدة طويلة، وتخيل إسماعيل ما سيحدث خلال الأيام القادمة؛ إبلاغ الشرطة والتحقيق والدفن والعزاء، وتأكد أنه سيُسأل الكثير من الأسئلة، وتمنى ألَّا يتهمه رجال الشرطة بأي شيء.

مال يحيى عليها وربَّت بلطف على كتفها، أيقظها، ساعدها على الجلوس على الأرض، تأكد أن الحلة مربوطة جيدًا، أتت أمها وهي تحمل كيس بلاستيك فيه ساندوتش وموزة، أعطته لإسماعيل، تقدمت نحو منال واحتضنتها، قالت لها بصوت خافت إنها ستذهب مع عمو إسماعيل وتعيش معه ومع مريم، لا يمكنها أن تبقى هنا. لم تكن منال تعي كل ما يحدث حولها، أومأت موافقة، حملها إسماعيل وخطا بسرعة خارجًا من الغرفة، وقف في الصالة لثانية واحدة، ثم أسرع عندما دفعه إبراهيم برفق ليخرجا معًا خارج البيت. لحق به يحيى، نظر إلى منال المستكينة بين ذراعي إسماعيل، وضع يحيى سبابته على شفتيه، ضغط على ساعدها برفق، قال لها بصدق تام: «لا تخلعي الحلة أبدًا»، أومأت منال موافقة بوهن ثم أغمضت عينيها. وأغلق الباب.

في سيارة إبراهيم كان حلق إسماعيل جافًا تمامًا، تنفس بعمق، ارتجفت قدمه، أسند ظهره على ظهر الكنبة الخلفية ليستريح لكن عضلات ظهره تشنجت بشدة، عندما فك

المنديل من على وجه منال تألمت كثيرًا، فتح فمها ووجد دمًا لزجًا بداخله، أخذ زجاجة مياه من جانب إبراهيم وطلب منها أن تتمضمض لكنها شربت بنهم، شرب هو بنهم، حاول أن يفك الحبل الأزرق الذي يربط الحلة لكنها أمسكت بها بقوة، رفضت تمامًا أن تخلعها عن رأسها.

في البيت احتضنتها مريم كثيرًا، بكت بينما أغمضت منال عينيها من فوق كتفها، تفحصت فمها ووجدت جرحًا واضحًا في لثتها، وضعت بسبابتها مرهمًا مطهرًا على الجرح، بدا الألم على وجه منال لكنها لم تقاوم، سألتها إن كانت تريد أن تأكل فأومأت بالإيجاب، إن كانت عطشانة فأومأت أيضًا، أخذتها إلى الحمَّام لتحممها، خلعت ملابسها بسهولة ودون مقاومة، صرخت منال فزعة عندما كادت مريم أن ترفع الحلة عن رأسها، حممتها والحلة في مكانها، تمد يدها تحت الحلة وتدلك شعرها بالشامبو، ثم توجِّه مياه الدش تحت الحلة لتشطف الشامبو. أكلت منال القليل ببطء، نامت بعمق والحلة لا تزال في مكانها.

في ذلك اليوم لم ينم الاثنان، ظلا راقدين على السرير يفكران، أيام طويلة مرَّت عليهما بلا نوم منذ رؤية أول فيديو أعلمهما بما حدث في بيت عائلة مريم، بما قاله أبوها، قالت إنه على الأغلب أدرك الآن أنه مختل تمامًا، وفي لحظة يقظة قرر أن ينقذ البنت من مصيرها إن ظلت معه، قالت إن أشد الناس اختلالًا يدرك للحظات قليلة أنه

كذلك، يفيق من حالته، وربما يتخذ قرارات صائبة أخيرًا. مع ضوء النهار أدارت له ظهرها، نظرت إلى الحائط مباشرة، تأملت لونه الوردي الخفيف في ضوء الشمس الطالعة وسألته إن كان نائمًا، عندما رد قالت له إنها تتخيل أولادهما، هو بتاريخ والده المرضي، وهي بتاريخ والديها المرضي، قالت له حتى لو حاولا لما تمكنا من تربية أولادهما، الجينات ستتغلب في النهاية، قالت إنها لا تمانع من شيل ابنها على رأسها طول العمر، لكنها لا تقبل أن تكون سبب مرضه، الجينات ستتغلب في النهاية، لا مفر، قالت له إنها لا تريد أن تنجب أبدًا، قالت إن الإنجاب في حالتهما جريمة، بعد دقيقة صمت قال لها إنه لا يريد أن ينجب أيضًا، ناما قليلًا.

عندما استيقظت منال ذهب الثلاثة إلى طبيب الأسنان، بعد يومين ذهبوا إلى طبيب نفسي، بعد ست سنوات خلعت منال الحلة عن رأسها.

7

يحدق إسماعيل في الكتب الموضوعة على مكتبه، تبدو له مجرد خطوط متقاطعة متوازية، تملأ الفراغات وبينها ألوان متعددة، يدير وجهه نحو باب الغرفة فيلمح منال عبره ويشعر بالسعادة، كل شيء فيها جميل.

تقول له:

- عمو إسماعيل، سأغسل ملابسك، أين وضعتها؟

يشعر بسعادة مضاعفة ويفكر أنه يفتقد كثيرًا تلك الحياة العادية حيث يسأله الآخرون أسئلة بسيطة.

- شكرًا يا منال، أظن أن كل شيء نظيف.

تبتعد عن عينيه وتختفي داخل الشقة، يصله صوتها بعد ثوانٍ:

- ها هي في حقيبتك، أليس معك أدوية؟

ينظر إلى الطاولة أمامه باحثًا عن دوائه ويقول:

- آخذ دواءً واحدًا، وهو أمامي الآن، لا أظن أني بحاجة إلى أي شيء آخر.

- نعم، في حقيبتك شيء آخر.

يصمت قليلًا منتظرًا ما تقول، ثم يحدق عبر النافذة فيرى السماء زرقاء منيرة بنور الشمس، فقط فتحة مستطيلة في الحائط تطل على الأزرق ولا شيء آخر. يسألها:

- ما اسم المدينة التي نحن فيها الآن؟

- القاهرة الجديدة.

- يعني نحن لسنا في العاصمة الجديدة؟

- هي نفسها، القاهرة الجديدة هي العاصمة الجديدة.

- وماذا حدث للقاهرة؟

- القاهرة انتهت، إنها أطلال الآن، هناك أجزاء لا تزال موجودة في الشرق، أما الباقي فقد انتهى تمامًا.

وبنبرة مسرحية ساخرة يقول:

- مدينة يسكنها المجرمون والمشردون، وليس فيها سوى الأنقاض والركام.

يصله صوت ضحكها عاليًا، تقول:

- لا يسكنها أحد، البعض يذهب لزيارتها أحيانًا، يسترجعون الذكريات القديمة، أو يتمتعون بمشاهدة المباني المنهارة.

يذكر فجأة أن كل المؤشرات كانت تشير إلى انهيار القاهرة تمامًا، الاهتمام كله كان موجهًا نحو العاصمة الجديدة.

- يعني لا توجد أي مبانٍ الآن؟

- الكثير انهار بعد عام النيزك.

- ما هذا؟

- في العام 2027 مر نيزك فوق القاهرة وسبّب دمارًا كبيرًا.

- ياه، قبل أن أدخل المستشفى كان الجميع متشائمًا، أحد أصدقائي كان يسميهم «المشمأنطين»، هؤلاء كانوا ليل نهار يدعون الله أن يرسل نيزكًا ليدمّر البلد.

يسمع وقع خطواتها تقترب، تدخل إلى مكتبه وتسأله مندهشة:

- ما معنى «مشمأنطين»؟

- في ذلك الوقت كانت الدولة قمعية إلى أقصى درجة، والملايين كانوا قرفانين مما يحدث، صديقي سماهم «المشمأنطين» ليشير إلى خليط القرف واليأس والعدمية، ربما لا يمكنك تخيل مدى القمع في تلك السنوات.

تجلس وهي تقول:

- بل يمكنني، لا أذكر ما حدث مع أني عشت كل الأحداث حينها، تمامًا كما لا تذكر أنت شيئًا عن تلك الفترة، لا تجارب شخصية ولا مشاهدات، أنا أعرف ما أعرفه من خلال الكتب، ويبدو أنك بحاجة إلى درس طويل في التاريخ يا دكتور التاريخ.

يتذكرها إسماعيل طفلة في تلك الأيام ويصمت قليلًا، يقول لنفسه إن كونها نسيت ما حدث هو أفضل ما حدث، يا للرعب إن تذكرت، يا للرعب إن تذكر.

- الطبيب يريدني أن أتذكر، لا ما حدث خارج المستشفى فهذا لم أرَه كي أتذكره، لكن كيف يمكن أن أذكر ما حدث داخله؟ أنا كنت في عالم آخر خلقته بنفسي، ولا أذكر منه

أي شيء.

تسند مرفقيها على ركبتيها وتميل رأسها نحوه وتسأله:

- هل كنت تظن نفسك إلهًا حقًّا؟

- نعم، تخيلي المصيبة.

- يعني أنت لا تذكر أي شيء مما حدث في الداخل؟ كل ما حدث نسيته؟

- نعم، ربما كان هذا بسبب الأدوية الكثيرة.

ترددت قليلًا قبل أن تقول:

- ومذكراتك؟

- أي مذكرات؟ أنا لم أكتب شيئًا هناك.

تقوم من مكانها وتذهب إلى الصالة، تعود بعد لحظات وهي تناوله مجلدًا أزرق مهترئًا، تقول:

- وجدت هذا بين ملابسك، لم أقرأ إلا جملًا قليلة ولم أفهم شيئًا، عندما أدركت أنه خط يدك توقفت عن القراءة.

يمد يده ويمسك المجلد، هذا ما وجده في دولابه في المستشفى لكنه لا يذكر عنه أي شيء، فتح الصفحة الأولى ووجد عناوين كثيرة مشطوبة بخطوط كثيرة حتى إنها لا تُقرأ، هذه عادته حينما يتحير عند عنونة أحد كتبه، فتح الصفحة التالية ووجد عناوين أخرى مشطوبة لكن يمكن قراءتها تحت الخطوط الكثيرة، «التاريخ الإلهي»، «كيف حكمنا مصر»، «ألف عام من الألوهية»، ثم يقلب الصفحة ليجد عنوانًا مكتوبًا عدة مرات بأحجام مختلفة، محاولات

كثيرة فاشلة لرسمه بخط الثلث وكلها من دون أي شطب، وفي الصفحة التالية العنوان نفسه مكتوب بخط ثلث جميل لكنه غير متناسق، عنوان نهائي مكتوب في الثلث الأعلى من الصفحة، تمامًا كعناوين كتب التاريخ الكلاسيكية الشهيرة.

يقرأ قليلًا، جمل تشبه جمله، سخرية هنا وهناك، يقلب الصفحات ليقرأ كلامًا عن الأديان، خيال وليس تاريخًا، لكن لا، لا يتذكر أي شيء، لم يكتب هذا الكلام، ربما يشبه طريقته في الكتابة لكنه لم يكتبه.

يفيق على صوت منال تسأله:

- أليس هذا خطك يا عمو؟

- بلى خطي، لكني أيضًا لا أذكر أني كتبته.

- ربما عليك أن تقرأه حتى تتأكد.

- وجدت المجلد في دولابي ولا أعلم لِمَ أخذته. هل يسمحون أصلًا بوجود أقلام وأوراق في المستشفى؟

- أظن ذلك، أنت كنت في مستشفى ولست في سجن.

- لا أذكر المستشفى ومع ذلك أكرهه، أي مكان لستُ حرًا في مغادرته فهو سجن.

- أرجو ألَّا تعود إليه يا عمو، أرجو أن تبقى معنا.

يسمع الباب يُفتح، صوت مريم تدخل، خشخشة المفاتيح، خطوات بطيئة، صوت الباب يُغلق، لكن هنالك صوتًا آخر، أقدامًا أخرى.

يسمع صوتها يناديه:

- إسماعيل، كريم هنا.

يسرع نحو باب الشقة، كريم شاب جميل يشبهه، عيناه ونظرته الثاقبة، لكن بشعر أمه الناعم وبشرتها البيضاء، يحتضنه بقوة، يبتسمان ويحدِّقان في بعضهما، كريم يبكي بدون صوت، يربِّت إسماعيل على كتفه ويجلسان معًا على كنبة الصالة، كل منهما يحتضن ظهر الآخر بذراعه.

يقول كريم وهو يبتسم:

- كيف أحوالك يا بابا؟

- أنا تمام، كيف كانت رحلتك؟

يرد عليه مبتسمًا:

- جيدة، الرحلة طويلة لكني نمت طوال الوقت.

ويبدو أن الكلام انتهى. يهرب إسماعيل بعينيه إلى غرفة المكتب، يرى مكتبه من موقعه هذا غائمًا قليلًا ويفكر أنه بحاجة إلى نظارة، يفكر أيضًا أن لا ذكريات بينه وبين كريم، لا شيء يدعوه للبكاء، لا شيء يدعوه للمجيء أصلًا.

يسأله كريم:

- هل صحتك جيدة الآن؟

تسرع مريم وتسأل كريم:

- ما آخر الاختراعات يا مخترع؟

ثم توجِّه الحديث إلى إسماعيل:

- ابنك ولد عبقري، يعمل الآن على تصنيع أعضاء الإنسان

الداخلية، تخيل.

يضحك كريم ويرد:

- أولًا أنا واحد من فريق كبير، ثانيًا أنا أشارك في تصميم قلوب صناعية بشرية، متخصص في الصمامات، هذه القلوب تُصنَّع منذ عشرات السنين الآن، وبالتالي فأنا لست مخترعًا أو عبقريًا بأي حال.

يمر الوقت وكريم يحكي عن عمله، تشير مريم إلى الأثاث الذي صنعته ليكون مماثلًا لأثاث الشقة القديمة، يتابعها ويبتسم، إسماعيل يخبرهما أن منال اكتشفت مذكراته، يحكي لهما عمّا قرأ منها، يقول إنها مضحكة قليلًا، مريم وكريم يتصفحان المجلد الأزرق، مريم مبهورة فعلًا، تسأله عن المجلد وظروف كتابته، يجيبها بأنه لا يذكر شيئًا، تقول:

- أنت كتبت هذا وأنت في عالمك الخيالي، تمامًا مثل كتبك الأخيرة؟

- نعم، كتبته وأنا إله.

ثم ينظر إلى كريم ويقول ببساطة:

- أنا كنت أظن نفسي إله مصر!

يضحك كريم ويرد:

- إذن عليك أن تنشر كتابك هذا بين المؤمنين.

تقول مريم بحماسة:

- هذه فكرة عظيمة، سننشر الكتاب فعلًا، تخيل أن يكون

عنوانه: «مذكرات إله».

يعترض إسماعيل ساخرًا:

- لا يمكن أبدًا، لقد سميت الكتاب بالفعل وانتهى الموضوع، ما دمت كتبث الاسم في الصفحة الأولى دون أن أشطب عليه فلا نقاش.

يضحك الجميع مرة أخرى، ثم يقول إسماعيل بجدية:

- أنتم لا تفكرون في نشره فعلًا؟ كل هذا مزاح ثقيل، صحيح؟

•••

بعد العشاء ينزل كريم ليتمشى قليلًا. وبينما منال في المكتب تعمل، تقول له مريم إنها سعيدة لهما، منال بخير، كل حياتها مرت بسلام حتى الآن، يسألها إسماعيل:

- نسيت أن أسألكِ عن بابا وماما؟

- تعيش أنت، ماتا بفارق بسيط، بعدما دخلت المستشفى مباشرة، يبدو أن مرضهما قضى عليهما فعلًا.

- ومنال لم تعد قَطُّ للحالة القديمة؟

- لا، منال دليل على أن الأمور قد تصل إلى حدها الأقصى، ثم يعود الواحد إلى طبيعته.

تصمت قليلًا، تحدق إلى الأرض، تسأله:

- ألا تذكر ما اتفقنا عليه؟

- ماذا؟

- أننا لن ننجب أبدًا؟

- نعم بالطبع، وأظن أننا لم نخطئ.

- أليس منال وكريم دليلًا على أننا كنا مخطئين؟

- لا، الاثنان مجرد مصادفة.

- على كل حال منال بخير منذ مدة طويلة، لا أعلم ما يدور داخل رأسها طبعًا.

- قالت لي إنها لا تذكر شيئًا.

- تقول هذا دائمًا، لكني أحيانًا أجدها تمسك صورة لبابا وماما وتتأملها، تنسى نفسها تمامًا، ثم تخفيها في مكان ما. اكتشفتُ الصورة بالصدفة عندما كانت لا تزال تعيش معي، أخشى أنها تخفي شيئًا بداخلها، شيئًا لا نعلمه.

- مثل ماذا؟

- هي تحيط نفسها بسور كبير، لم تتزوج، لم تصاحب أحدًا، لا صديقات ولا أصدقاء مقربين، تعيش دون أقل نظرة للغد، أظن أنها تذكر كل شيء، وتدَّعي النسيان فقط لأنها تخجل.

- هل تظنين أني أدَّعي النسيان أيضًا؟

تضحك ضحكة قصيرة وتقول:

- منال كانت مريضة بمرض يصيب الآلاف، أنت شخص مميز يا إسماعيل، مميز في جنونك كما كنت مميزًا في عقلك، حتى خروجك من عالمك الإلهي كان مميزًا، أنت آخر من استجاب للعلاج.

يكاد يسألها إن كانت تتابع حالته، لكنه لم يرد أن

يحرجها، أي إشارة إلى اهتمامها به تحمل تلميحًا بالحب القديم، بالزواج الذي انتهى منذ زمن بعيد.

- أنا لم أتزوج بعدك، لم أنجب، أنا ربيت منال لكني لا أشعر أنها ابنتي أو حتى أختي الصغيرة، هي صديقتي.

- أحيانًا أشعر أني سببت الكثير من الأسى لمن حولي.

- لا تشغل بالك بهذا، كل شيء تغير، والواحد ينسى.

اليوم الطويل ينتهي، عاد كريم من الخارج وجلس في الصالة ليعمل قليلًا، كمبيوتر وأوراق مبعثرة، نهم للعمل والقراءة يذكّر إسماعيل بنهمه الخاص، ابنه العزيز الذي ورث جيناته وحبه للبحث، ويرجو أن يكون مثل منال، لم يرث جينات جنونه.

يعود إلى مكتبه ليقرأ مخطوط كتابه، يفتح الصفحة حيث كتب العنوان منذ سنوات لا يعلم عددها بالضبط، يقرأ: «تاريخ آلهة مصر».

لا تثير الكلمات في نفسه إلا أشباحًا قليلة من أحداث مرّت، تصور أنه سيكتب عن العنابر والأسرَّة والزملاء والأدوية والممرضين والأطباء، هذه ليست مذكرات! إنها تاريخ مزعوم كتبه وهو في عالمه الذي خلقه بنفسه، تاريخ مجموعة من المجانين يظنون أنفسهم آلهة مصر، كتبه وهو في المستشفى على مدار سنوات كثيرة، والمُضحِك أنه هو نفسه كان الإله الأخير. في كل سطر تظهر الأحلام الأثيرة لأي دكتاتور؛ أن يكتب تاريخه بنفسه، أن ينتهي العالم بعده

لأنه لا يمكن أن يستمر من دونه، أن يتخطى مرحلة أن لا أحد يحاسبه إلا الله ويصل إلى مرحلة متأخرة فيجعل من نفسه إلهًا، أن يظهر كرهه لأي رأي آخر، أن يؤكد على احتقاره للناس ولاختياراتهم، أن يرى من يعارضه مجرمًا خائنًا كافرًا يجب حبسه أو حتى قتله، أن يجعل من نفسه خالدًا، أن ينفي الدين والله لأنهما ينافسان سلطته ويكسران قوته، أن يجبر الناس على أن يصبحوا مثله، أن يغير القوانين وفق إرادته، أن يحقق أسوأ كوابيس الناس فيحول وقاحته إلى شجاعة، وظلمه إلى قوة، وجنونه إلى حكمة، أن ينسى حقيقة الموت، أن يكون الموجود الأخير في العالم ليعيد خلقه من جديد.

يغلق المجلد ويتركه على المكتب، يتحرك نحو الكنبة ويستلقي عليها متأملًا السماء من النافذة المفتوحة، نجوم كثيرة تلمع في الخلفية السوداء الواسعة.

8

لم يكن كل شيء على ما يرام، كانت المنغصات كثيرة في ذلك الوقت، مريم ترافق منال إلى الطبيب كل أسبوع، أدوية كثيرة تأخذها وتبقى في البيت شبه نائمة معظم اليوم، تظل معها مرافقة تعتني بها بينما إسماعيل ومريم في عمليهما، وأيضًا مشاكل لا حصر لها خاصة بالمدرسة التي ستبدأ قريبًا، إدارة المدرسة تسأل عن والدها، كيف أصبحت أختها ولية أمرها؟ طلبت وكيلة المدرسة أن يأتي الأب إليها وأن يوقع ورقة تفيد بأن مريم هي من ستتولى المسؤولية. على الجانب الآخر إسماعيل متورط تمامًا في عمله في الجامعة، لا وقت لديه للمشاركة في رعاية منال، وتفاصيل أخرى لا حصر لها يجب أن يتابعها، الجمعيات الأهلية التي يشارك في عضويتها، اللقاءات التلفزيونية، المظاهرات التي يشارك فيها أو في دعمها، مقالاته ضد الإخوان التي تنتشر في الجرائد ثم تتم مشاركتها على نطاق واسع على فيسبوك وتويتر، ساعات يومية يقضيها على فيسبوك ليقرأ تعليقات المتابعين على بوستاته، وشتائم الإخوان التي تصله على الرسائل الخاصة، والانشغال بتبليك وإلغاء صداقة كل من يتعدى الخطوط الحمراء في نقده أو محاولة التشاجر معه.

وسط كل ذلك ظهرت سارة.

في إحدى الحفلات الهادئة رآها إسماعيل جالسة على أرضية الشقة، ظهرها مفرود مستقيم، تضحك بثقة وتردُّ على كل من يحدثها برفق ولطف، تتحرك ببطء محسوب لتلتقط ملعقة وقعت على الأرض، أو لتصب نبيذًا في كأسها، رفضت المشاركة في تدخين سيجارة حشيش بابتسامة هادئة، بينما كان هو يتمنى أن يأخذ نفسًا واحدًا فقط ولا يفعل ذلك حفاظًا على صورته أمام الآخرين، أخذت تتحدث مع أحد الضيوف، كان يشير إلى أن سر نجاح الثورة في ضعفها، بينما عارضته هي بثقة وقالت إن الثورة ستفشل لضعفها، وأن لا حل للهزيمة المتوقعة إلا بالقوة والحزم وربما بالدكتاتورية، صمت المحيطون بهما قليلًا، ثم تابعت هي أن الثورة بحاجة إلى دكتاتور لينقذها، بحاجة إلى شخص قوي ليفرم الإخوان ويؤسّس لحكم مدني. ارتفعت ضحكات مترددة حولها، أحدهم قال ساخرًا إن البلد بحاجة إلى دكتاتور عسكري إذن، فردت بثقة: «ولِمَ لا؟»، حينها توقفت الضحكات تمامًا.

لكن رأيها الحاد لم يغير نظرة إسماعيل لها، وبغض النظر عن أنه يعارض حكم الإخوان، وكان على استعداد لقبول أي بديل لهم، لم تكن أفكار سارة ما أثاره، بل طريقة نطقها للكلمات، تنطقها ببطء، لا تنظر في عيني من أمامها بل تنظر خلفه أو إلى جانبه، كأنها لا تحدثه، وعندما تشدد النطق على كلمات بعينها تنقل بصرها إليه فجأة. من

موقعه البعيد عنها انتبه إسماعيل إلى أنها تكرر ذلك عدة مرات، وتمنى أن يجلس أمامها وأن تحدثه بهذه الطريقة، أن تنقل عينيها إليه فجأة وهي تشدد على كلمة ما. بدا لإسماعيل أنه أحبها في ذلك اليوم.

•••

خلال شهر يونيو من العام 2013 فترت العلاقة تمامًا بين إسماعيل ومريم، انتبها معًا لما يحدث، لم يكن هناك غضب مكتوم أو شجار معلن، لم يكن هناك لوم متبادل أو أي شيء، فترت العلاقة من الاتجاهين بهدوء.

كانت مريم الأسبق، اتصلت به بينما كان في الجامعة وطلبت منه أن يتعشيا معًا خارج المنزل اليوم. بعد الجامعة التقى إسماعيل بأحد أصدقائه على القهوة، ثم حضر إلى المطعم مبكرًا، بينما تمشت هي من البيت إلى المطعم فتأخرت قليلًا. طلبا الطعام وهما يتحدثان عن مدى صمود الإخوان في الحكم، وعن حالة أعضاء الجماعة العصبية في الآونة الأخيرة، وافقته على كل ما قال، كلما فتح موضوعًا أنهته بطريقة أو بأخرى، وبينما هو يرفع الملعقة إلى فمه قالت إنها تود أن تخبره بشيء مهم، في هذه اللحظة فقط أدرك أنها خططت لشيء مهم فعلًا. قالت بعفوية إنها لم تعد تحبه، وهي تعلم أنه لم يعد يحبها أيضًا، وربما عليهما أن يفترقا. تابع إسماعيل الأكل بصمت، وبعد دقيقة واحدة قال لها إنه موافق، فهو أيضًا يشعر بفتور في

العلاقة، قال إنه حزين بالطبع لأن العلاقة لم تستمر، الزواج شيء جميل، وهما بالتأكيد زوجان مثاليان، لكن هناك خطأ ما، قاطعته وقالت إنها ليست مهتمة بمعرفة الخطأ، وهو وافقها وأكد على ذلك، أكد أيضًا على أن الفتور لا علاقة له بمنال، قاطعته مرة أخرى وقالت إنها تعلم ذلك أيضًا، صمتا قليلًا قبل أن تعيد تأكيد أنهما متفقان.

في ذلك اليوم، أثناء تناول الكريم كراميل وأم علي، اتفقا على كل التفاصيل، أعلن إسماعيل بصراحة أن لها نصف ما ادخر من مال أثناء فترة الزواج، ضحكت كثيرًا وقالت إنه يفعل مثل الأمريكان، ضحك هو وقال إن المبلغ سيكون صغيرًا كي لا تحلم بالملايين، طلب منها أن تبقى في شقة جاردن سيتي ولا تتركها إلا عندما ترغب في ذلك، وهي وعدته أن تجد شقة في أسرع وقت، خلال شهر أو اثنين فقط. في ذلك اليوم عادا معًا إلى البيت ونام في غرفة مكتبه، في الصباح اعتذر عن عدم الحضور للجامعة، وذهب إلى المأذون وطلقها، ثم ذهب إلى البنك وحول لها نصف ما في حسابه، وعلى باب البنك اتصل بميخا ميخائيل وأخبره أنه سيبيت عنده الليلة.

جمع بيت ميخا ميخائيل الكثيرين أيام ثورة يناير، أتاح موقعه المطل مباشرة على ميدان التحرير موضعًا مميزًا لكاميرات القنوات التلفزيونية، سمح ميخا للجميع بالتواجد والأكل والنوم والحياة والعبث داخل شقته الواسعة، تجمع

فيها مصابون بالخرطوش، مختنقون بالغاز، مراسلون صحفيون يكتبون تقريرًا لمحطاتهم أو صحفهم، عابثون لا يهتمون بما يحدث بمقدار اهتمامهم بسيجارة الحشيش أو الفتاة الجميلة، متى دخل الواحد شقة ميخا وجد فيها كل هؤلاء. ميخا لم يبدُ عليه الغضب للفوضى الحاصلة في منزله، ولم يكن سعيدًا أيضًا. كان لامباليًا بكل شيء، لكنه يدعم الثورة بالتأكيد.

دخل شقة ميخا ليجدها مليئة بالناس، تهوُّر أقل وجرأة أكبر، وإحساس بالأمان يطغى على الجميع، بينما كان ميخا في موضعه المعتاد لا يبدي اهتمامًا كبيرًا بكل ما يحدث، كان الجميع يعلم أن هذه المرة مختلفة تمامًا، فالدولة بكاملها إلى جانب الثوار وليست ضدهم. بدا لإسماعيل أنه يستعيد ذكريات يناير، هذه المرة بثقة وشجاعة أكبر.

استُقبل دكتور إسماعيل، المؤرخ الكبير، بالأحضان، الجميع يسعون للتحدث معه ومصافحته بحرارة، يسألونه كأنه يعلم كل ما يحدث في الخفاء، ويطلبون منه توقعاته للأيام القادمة، وهو يرد ردودًا متوازنة، ويؤكد لهم أن الشعب سينزل مرة أخرى وبكثافة أكبر، ويؤكد أن الجيش سيقف إلى جانب المصريين ويحميهم من الجماعة الإرهابية، ويقول في تسليم إن ما سيحدث «حتمية تاريخية»، لينطلق الجميع مرددين المصطلح العلمي الدقيق لما يحدث الآن حولهم: «حتمية تاريخية»، وبينما كان

إسماعيل ينسحب بهدوء ليضع حقيبته في غرفة النوم، ويتمدد على السرير دقائق قليلة ليهدئ ألم الظهر، كانت سارة تكتب على تويتر: «الدكتور قال حتمية تاريخية».

في تلك الليلة طال حديثه مع سارة، واستمرت نظرات الإعجاب المتبادلة بينهما طوال الوقت، وتكلم هو قليلًا عن الطلاق الأنيق والهادئ الذي تمَّ اليوم، وعن العلاقة التي فترت منذ مدة، والزواج الذي استمر بسبب أخلاق الزوجين الرفيعة. كانت المجموعة تشجِّع الاستلطاف المتبادل بين إسماعيل وسارة، وهما يتكلمان بهدوء وابتسامات كان واضحًا أنها فاتحة علاقة جديدة جميلة.

لم يطل الأمر كثيرًا، خلال أيام فقط أصبحت العلاقة وطيدة لدرجة أن سارة أصبحت على علم تام بكل عادات إسماعيل الحياتية، تفاصيل السكر القليل في الشاي، والقهوة السادة، والفول السوداني مع الويسكي، وعدم حبِّه للبيرة، والطعام الساخن جدًا، والأكل ببطء، والحديث المستمر على مائدة الطعام، والنوم لساعات قليلة جدًا قرب الفجر. هو أيضًا فهم أنها امرأة حرة وتكره تمامًا أن يتحكم فيها أحد، وتوقَّع أنها مرت بتجارب دفعتها دفعًا إلى موقفها هذا، وإلى باقي مواقفها الحادة بشكل عام، كان دومًا يعقد مقارنة بينها وبين مريم، ووجد أن الفارق هائل بين الاثنتين، مريم كانت سهلة الانقياد لكنها مهملة. سارة عنيدة للغاية لكنها تنظم حياتها بدقة بالغة. مريم عاطفية

يظهر انفعالها على وجهها عند أي حدث طارئ، وسارة عملية تفكر بعد كل مفاجأة من دون استعجال أو ردود أفعال حادة. بدقة علمية وازن بين المرأتين، ووجد أن سارة ستتفوق عند عقد أي مقارنة بينهما.

حاولت تسهيل كل شيء عليه أثناء بقائه في شقة ميخا الفوضوية، وانتهت بعد مجهود ضخم بأن أخبرته أن الحياة المنظمة هنا مستحيلة، ضحكت وهي تقول إن ميخا يعشق الفوضى، ويكره أن يرى أي شيء مرتبًا أو منظمًا حوله، وأطلقت مزحة من أعمق مكان في عقلها، قالت إنه مفيد الآن في مرحلة إسقاط الإخوان، لكنه سيكون مضرًا كثيرًا بعد ذلك. عبّر إسماعيل بحركة من رأسه أنه لم يفهم ماذا قصدت، فأردفت أن الفترة القادمة لا تحتمل أي فوضى، وأن مَنْ هو مثل ميخا قد يكون من الأفضل أن يسافر خارج البلد، أو ربما يُعتقل حتى يستقر الوضع. توتر إسماعيل قليلًا، وكان رأيه أن ميخا غير مضر بالمرة، وأن عصر الاعتقالات قد انتهى إلى غير رجعة. بعد عدة كؤوس انتقلا للنقاش في موضوعات أخرى، الحياة في وسط البلد، الحياة في الضواحي الكثيرة المحيطة بالقاهرة، السفر إلى الخارج، الحياة في مدينة بعيدة كمرسى مطروح، واتفق الاثنان على أنهما قد يعيشان في مدينة هادئة لولا العمل الذي لا يتوفر إلا في القاهرة.

في ذلك اليوم دعته إلى العيش في شقتها في مصر

الجديدة، صمت إسماعيل قليلًا، فكَّر في كلامها عن ميخا وضرورة اعتقال مَنْ هم مثله، فكَّر أنها انفعلت على الرغم من هدوئها الظاهر، وفكَّر في أن ميخا يجب أن يهدأ فعلًا. قال لها في النهاية إنه يريد أن يعود إلى شقة جاردن سيتي، التي ستتركها مريم قريبًا حسب اتفاقهما، ودعاها لأن تعيش معه، زوجين وليس أي شيء آخر.

•••

مشهد الميدان المزدحم أعاد حب الوطن إلى قلوب الناس، وأعاد إليهم ثقتهم بأنفسهم، الآلاف يتحركون في أمان تام، غياب كلي لأعضاء جماعة الإخوان المسلمين، وانبثاق كوني لأسمى مشاعر الوطنية المصرية في شوارع القاهرة، لا يمكن لأحد قمع هذا الشعب أو هزيمته، لا يستطيع أي دكتاتور الصمود في وجه هذا الشعب أكثر من سنة. سنة كاملة مرت على حكم الإخوان وانتهت في ذلك اليوم السعيد باستئصالهم تمامًا. الفرحة دفعت كل من في الشقة إلى النزول إلى الشارع للاحتفال بسقوط الرئيس الإخواني، وطائرات الهليكوبتر تحلق فوق الميدان تحميه من أي معتدٍ، والآلاف يملأون ميدان التحرير بترانيم الأمل.

سارة وإسماعيل وحدهما في البلكونة الشهيرة المطلة على الميدان، وضعت راحتها على صدره ودفعته برفق ليتمدد على ظهره على بلاط الأرضية، ثم خلعت ملابسه

وملابسها، وبينما كان يرى الضوء الخافت المنبعث من عشرات خطوط الليزر الخضراء المتقاطعة في السماء، امتطت وسطه وهما عاريَان تمامًا، قالت له إنها ستحمل طفلهما في هذا اليوم، في هذه اللحظة، وبصوت متهدج من الانفعال والنشوة تابعت: «وسط الضجيج الثوري العلماني الآتي من الشارع».

•••

انتقلت مريم ومنال إلى غمرة، أقرب مكان إلى مدرسة منال الجديدة، انشغل الناس بسقوط الإخوان عن السيدة والفتاة اللتين استقرتا في الحي، وأزال شعر مريم المكشوف أي هواجس قد تسيطر على الجيران عن انتمائهما إلى الجماعة، وبدا لمريم أن عالمًا ينتهي وعالمًا آخر يحل محله.

في الصباح الباكر كانت ترافق منال إلى حيث يتوقف باص المدرسة، تركب الصغيرة الباص وتمضي الكبيرة إلى عملها، تعمل جزءًا من النهار ثم تعود إلى حيث يتوقف الباص، ترافق البنت إلى البيت وتكمل إنهاء القليل من الأعمال المكتبية من البيت. ظلت الحلة على رأس الصغيرة طوال الوقت، وأكثر ما خشيت مريم أن يسخر منها أحد، لكنها لم تسمع أي كلمات تهزأ بالفتاة في الشارع، كذلك لم يصلها أي شكوى من الفتاة بخصوص سخرية زملائها في المدرسة.

بالطبع لاحظ زملاؤها الحلة، لامعة لأنها تُغسل كل يوم أثناء استحمامها، بمقبض أسود كُسر معظمه في زمن سابق حينما كانت تُستخدم بشكلها الطبيعي. منال كانت تعلم أن مظهرها غريب جدًّا، لا أحد في المدرسة يرتدي حلة سواها، لا أحد في الشارع أو من الجيران يفعل مثلها، تلاحظ ذلك كل يوم، لكن الحلة كانت تحميها كما قال أبوها. ومع تعرفها على الزملاء الجدد في المدرسة صارت تضحك أكثر وتتكلم أكثر، انطلقت عدة مزحات من هنا وهناك عن الحلة، مزحات أطفال إيجابية، مثلًا، عندما كانت منال تجلس مع أصحابها تحت شجرة توت كبيرة في المدرسة، سقطت حبة فوق الحلة لترن رنة خفيفة، فورًا ضحك الجميع دون أن تفهم منال سبب الضحك، الكل ينظر لها وهم غارقون في الضحك، أخيرًا استطاع أحدهم أن يهدأ وقال لها وهو يغالب ضحكه أن حبة وقعت على الحلة، وأن رنتها الخافتة كانت مضحكة جدًّا، ضحكت منال كثيرًا، مع أنها سمعت صوت حبة التوت، ومع أنها لم تجد الأمر مضحكًا.

لكنها كثيرًا ما مرت بأيام مرهقة، الدراسة وتدريب العزف على الكمنجة واللقاء الأسبوعي يوم الجمعة بأصحاب مريم وأطفالهم، والأصعب هو الإيمان بفكرة أن الجواسيس لم يكونوا حقيقيين، وأن السيكولوجي لا يسيطر على الناس ويجعلهم يفعلون أشياء رغمًا عنهم، وأن أباها وأمها

مريضان جدًا، لذلك لم ترَ أيًا منهما منذ مدة، كانت تنام كل يوم مرهقة جدًا، ومع الوقت أخذت تخلع الحلة عن رأسها قبل أن تنام، ثم ترتديها فور أن تستيقظ.

•••

تابعت مريم صور سارة وإسماعيل على فيسبوك، حبيبان لطيفان عاقلان، من دون أي مبالغات أو حركات صبيانية، وبدا لها أن الأمور تسير إلى الأفضل بالنسبة للجميع. تابعت أيضًا شجار إسماعيل الدائم مع المعلقين الذين يشتمونه طوال الوقت، وبشكل عام لم تفهم جيدًا ما حدث له، ومع أنه بدا سعيدًا بسبب قربه من سارة، وبسبب سقوط الإخوان، والاهتمام الزائد به في الآونة الأخيرة ككاتب ومؤرخ، لكن بدا لها أيضًا أن الشجار المستمر يؤثر عليه ويحوله إلى شخص عنيف، ردوده على هؤلاء كانت شرسة وعصبية، تخيلته وهو يقولها بصوته المتحشرج عندما يغضب، بجسد متخشب ثابت وساعدين يتحركان بحدة إلى أعلى وأسفل، كلما قرأت تعليقاته قالت لنفسها إنه قد تغير، لكنها تعود فتقول إن كل شيء تغير، فلم لا يتغير هو؟

سارة كانت تعلق على ما تكتب مريم أحيانًا، تحاول دائمًا فتح مواضيع جديدة، تحاول أن يستمر النقاش بينهما مدة أطول. رأت أن هذه محاولات للاقتراب ولم تعرف السبب، وتأكد ظنها عندما اتصلت بها سارة وطلبت أن يتقابلا.

في شقة غمرة الصغيرة التقتا مساءً، لا يزال وجه سارة جامدًا قلقًا بعد صدمة رؤية منال والحلة على رأسها، لم تفتح الموضوع لكن مريم تطوعت وأخبرتها بالحكاية باختصار، وقالت إن البنت تتحسن لكن يبدو أنها لن تخلع الحلة إلا بعد شهور ربما تطول لسنوات. اعتذرت سارة إن كانت قد أتت في وقت غير مناسب، قالت إنها لم تتوقع كل هذا قَطُّ، رغمًا عنها دارت بعينيها في الشقة الصغيرة ونظرت نظرات خاطفة لما حولها، أثاث قديم مهترئ، لا شبابيك تطل على الشارع وإنما شبَّاك صغير يبدو وكأنه يطل على العمارة المجاورة، وشباك آخر يطل على المنور وتبدو منه المواسير الرأسية السميكة، طلاء الحوائط قديم جدًا، يتغير لونه من موضع لآخر، وعلامات احتكاك أثاث قديم به واضحة وعميقة. هي أيضًا أدركت أن عالم مريم القديم انتهى، والآن تعيش في عالم جديد أبسط وأفقر، وعندما نظرت إليها لاحظت امتعاضًا طفيفًا باديًا على شفتيها، وأدركت سارة مدى وقاحة نظرتها الخاطفة إلى الشقة حولها.

توقعت أن يزيد الامتعاض، لكن عندما أخبرتها سارة أنها ستتزوج إسماعيل قريبًا، ابتسمت مريم بصدقٍ وردت بأنها سعيدة لذلك، وأنها تتمنى لهما السعادة معًا، وأضافت أن هذا لا يزعجها وأنهما انفصلا لأن الحب مات بينهما، وطبعًا هناك أسباب أخرى كثيرة ربما لم تنتبه لها. أخبرتها بأنها

سعيدة بالسنوات القليلة التي عاشاها معًا، وبأنهما قررا عدم الإنجاب في لحظة ضعف، وربما كان هذا ليتغير مع مرور الوقت، لكنها ترى حتى الآن أنها وإسماعيل لم يصلحا قَطُّ لتربية أبناء. تساءلت سارة بصمت إن كان هذا رأي إسماعيل فعلًا، فهي لم تتصور هذا قَطُّ، قالت لنفسها إنها ستتحدث معه بخصوص هذا الموضوع بوضوح. تكلما كثيرًا عن إسماعيل والزواج والحاجة إلى رفيق كي تستمر الحياة، ليس فقط لأن الوحدة بالغة الصعوبة، بل لأن الرفقة تخفف المعاناة كثيرًا. حينها قالت مريم إن منال كفاية، وإنها لا ترى زوجًا مستقبليًا أو حتى أطفالًا.

بعد ساعة من الكلام رُفعت الكلفة قليلًا بين الاثنتين، وانطلقتا تتكلمان عن مستقبل الحكم في مصر وما سيحمله النظام الجديد من عدالة وسعادة، واتفقتا على أن أهم شيء هو سقوط الإخوان، وبعد ذلك ستتغير الأمور حتمًا. وبدت كل منهما للأخرى متفائلة بلا حدود.

خرجت منال من غرفتها وجلست إلى جانب أختها مبتسمة صامتة، تبادلت مع سارة كلمات قليلة عن المدرسة والأصدقاء والهوايات، وقد تحاشت سارة أن تحدق في الحلة التي تجذب أي عين بلمعانها، وعندما قامت البنت عائدة إلى غرفتها، سألت سارة مريم إن كانت غاضبة بسبب الزواج، ردت بأن هذا سؤال لا يمكن توجيهه لها، فهي الآن لا شأن لها بإسماعيل، وردت سارة بدعوتها إلى

حفل الزفاف الصغير الذي سيعقد في مركب على النيل.

غادرت سارة الشقة وهي مطمئنة ومصدقة تمامًا لما قالته مريم، مشت ببطء من عند باب العمارة القديمة في اتجاه شارع رمسيس وصورة البنت الصغيرة تشغل تفكيرها، ولأول مرة تسرب إليها الخوف من إنجاب أطفال، ماذا إن حدث حادث كهذا لابنها أو لابنتها؟ وفكرت أن مريم شجاعة حقًّا لاتخاذها القرار بعدم الزواج والإنجاب، لكنها لن تفعل ذلك، فهي تحب الأطفال، وتحب أن ترى طفلها ينمو ويكبر معها ومع إسماعيل. شغلها قليلًا كلام مريم عن عدم صلاحيتها لتربية أبناء مع إسماعيل، هل قصدت أنه غير مسؤول؟ لا يهتم؟ لم تفهم ولم ترد أن تشغل بالها بالتفكير في كل هذا، سيتزوجان لأن لا أحد يعلم ماذا يحدث غدًا، وطبعًا لأن الرفقة تخفف المعاناة، فقط عليها أن تحلم وتحاول تحقيق الحلم، كانت قد وصلت إلى شارع رمسيس ولفت انتباهها سيارات كثيرة مارة وصوت أغنية بعينها يتردد من داخلها، عدد من أعلام مصر يرفرف خارجًا من نوافذ بعض السيارات، ابتهجت لمرأى الأعلام، قالت لنفسها إن الأيام الجميلة قادمة حتمًا.

هي وإسماعيل سينجبان ثلاثة أطفال، إسماعيل سيصبح رئيس قسم التاريخ، ثم عميدًا للكلية، ثم رئيسًا للجامعة، هي ستفتح ورشة لصنع المجوهرات من الأحجار الكريمة، ثم ستفتح محلًّا صغيرًا في الزمالك لتعرض إنتاجها،

وستنشيء موقعًا على الإنترنت لتبيع مجوهراتها الجميلة. لن تستخدم الذهب لأنه غالٍ وبراق زيادة عن اللازم، وستستخدم الفضة لأنها رخيصة وبيضاء، يجب على الناس ألَّا يسرفوا لأنهم سيبدأون بناء البلد خلال شهور قليلة، ولا معنى لإنفاق مبالغ كبيرة على مشغولات ذهبية، لكن لا بأس من إنفاق مبالغ متوسطة على مجوهرات فضية جميلة، والأهم الأحجار اللامعة التي تزخر بها مصر، نعم، نعم، العقيق مثلًا جميل جدًا، لكنها ستستخدم الفيروز دائمًا ولا شيء آخر لأنه حجر مصري أصيل، وتخيلت لون الفضة الفاتح الهادئ مع الفيروز الأزرق، وفكَّرت أن تقوم بعمل فضة غامقة قليلًا، بيضاء لكنها غامقة وكأنها مغطاة بطبقة نصف شفافة، سيتماشى لونها مع لون الفيروز كثيرًا، وربما يصبح هذا اللون مناسبًا للرجال. للنساء الفضة الفاتحة وللرجال الفضة الغامقة. وإسماعيل سيكتب كتبًا كثيرة، سيكتب مقالات في الجرائد أيضًا، الأهرام والمصري اليوم، وسيكتب في جرائد عربية مثل الشرق الأوسط والحياة، وربما في الواشنطن بوست أو النيوزويك، وسيذهب ليدرِّس في أمريكا فصلًا دراسيًا واحدًا، سيقبل السفر إلى جامعة نيويورك أو جامعة هارفرد، ليس أقل من ذلك. ثم سيعود إلى مصر وبعدها سيذهب إلى بريطانيا ليدرِّس في جامعة هناك، سيذهب إلى ألمانيا أيضًا، هل توجد جامعة ممتازة في شتوتجارت؟ وإلى اليابان،

سيرسلون له خطابًا يطلبونه خصيصًا لمساعدتهم في فهم تاريخ اليابان الحديث. سينجبان ولدين ثم بنتًا، ستكون البنت هي بنبوناية الأسرة، لا بل سينجبان ثلاثة أولاد، مصر لا تصلح للبنات أبدًا، بالنسبة لكل السيدات، التعرض للتحرش أصبح مماثلًا للتعرض لنور الشمس، حدث يومي لا مفر منه، لكن مصر ستتغير حتمًا وستصبح بلدًا جميلًا صالحًا للأولاد والبنات، لن يكون هناك تحرش، لن يكون هناك اضطهاد أو وقاحة أو ظلم بل عدالة فقط، وكل واحد سيحترم القانون والأخلاق، وسيكبر الأولاد وسيتعلمون في جامعات مصرية ممتازة لأن إسماعيل نفسه سيشترك في تطويرها جميعًا، ستصبح أفضل جامعات في الدنيا، سيسكنون في شقة جاردن سيتي، وربما ينتقلون إلى شقة أخرى في إحدى المدن الجديدة حول القاهرة لأن شقة جاردن سيتي لن تسع العائلة كلها. سيتزوج الأولاد ويعيشون بعيدًا عنهم مستقلين تمامًا، وقد يسافرون إلى خارج البلد، فهما لن يمنعاهم من فعل ما يريدون، ثم يعودان معًا إلى شقة جاردن سيتي، إسماعيل سيعتزل العمل الجامعي، وربما يلقي محاضرة هنا أو هناك، وهي ستكتفي بعمل تخطيطات أولية بالقلم الرصاص لتصميمات مجوهراتها، ربما تحب البنت الصغيرة مهنة أمها وترثها، وربما تنجح البنت الصغيرة الشاطرة وتزدهر الشركة الصغيرة على يدها، الأكيد أنها ستشيخ مع إسماعيل في

شقة جاردن سيتي الهادئة.

وعندما مر أتوبيس ضخم مثيرًا التراب لسعها أنفها وسعلت، تمخطت فوجدت سوادًا في المنديل، ومدت ذراعها تحاول إيقاف أي تاكسي.

9

يجر كريم حقيبة سفر واحدة ويحمل على ظهره حقيبة أخرى صغيرة، يركب التاكسي ويلوح بيده للواقفين في البلكونة، إسماعيل ومريم ويوسف إدريس، ثم يتحرك التاكسي متجهًا إلى المطار أخيرًا، يدخل الجميع إلى الصالة، بينما يظل إسماعيل واقفًا في البلكونة دقائق يحدق في السماء الواسعة والمباني المنخفضة والشارع الخالي من المارة.

يسافر كريم إلى بلده الآخر، لم يقترح عليه أحد أن يبقى ويستقر هنا، عندما قال إسماعيل لمريم إنه يفكر في سؤال ابنه عن سبب عودته إلى أمريكا قالت له إن الجميع يخاف أن تعود الأيام السوداء، حتى كريم الذي كان صغيرًا جدًّا يخاف، لو عاد إلى مصر نهائيًا وتغيرت الحال فلن يستطيع لوم أحد، لن يلوم إلا نفسه لأنه عاد. قالت إن العمر قصير ولا يجب على الواحد أن يضحي بسنواته القليلة لأي سبب كان.

•••

قابل إسماعيل يوسف إدريس بالمصادفة في جلسة مع الأصدقاء القدامى منذ أيام، يوسف كان أصغرهم سنًا وأكثرهم صمتًا، قُدِّم إلى إسماعيل على أنه أنشط ناشر في مصر الآن، ويوسف نظر إلى عيني إسماعيل مباشرة، وكأي ناشر نشيط سأله إن كان عنده كتب جاهزة للنشر، بعد دقائق من النقاش قال له إنه يذكر أول حديث بينهما، ثم صحَّح كلامه فقال إنه كان أول حديث من طرف واحد في أحد الأيام النبيلة، الـ18 يومًا التي سبقت تنحّي مبارك، سأله بود:

- هل تذكر الشاب الأخرق الذي اقترب منك وسألك متى ستكتب؟

- لا، عذرًا، ذاكرتي ليست على ما يرام.

- قابلتك مع المرحوم الدكتور صالح، سألته أولًا: «متى ستكتب

تاريخ ما يحدث؟»، ثم سألتك السؤال نفسه، صمتما قليلًا ورد هو في النهاية ردًا دبلوماسيًا، قال لي: «سنكتب معًا»، لم نكتب معًا بالطبع، لكنه...

قاطعه إسماعيل متحمسًا:

- نعم، أذكر ذلك بالطبع، في الحقيقة هذا أول ما تذكرته بعد إفاقتي من المرض، تخيل أني لم أتذكر ابني أو زوجتي أو أيًا من أهلي، فقط هذا المشهد، الآن أنت تبدو مختلفًا تمامًا عن الصورة التي أحتفظ بها في ذاكرتي، هل تذكر متى حدث هذا بالضبط؟

- نعم، في اليوم الخامس عشر، قال لي دكتور صالح إننا سنكتب معًا، لم يكتب هو إلا القليل، لكني كتبت شهادة دقيقة عما رأيته وعايشته خلال تلك المدة، لا زلت حتى اليوم أرى أن تلك الأيام أفضل أيام مرت على بلدنا.

- كلامك صحيح، بالنظر إلى ما حدث فيما بعد.

حدَّق يوسف بوجه محايد في إسماعيل، فقال الأخير:

- طبعًا أنت قرأتَ ما كتبتُ بعد ذلك، وبالتأكيد تتعجب لرأيي، أعترف لك أني أيضًا قرأت خلال الأيام الماضية كل ما كتبتُ، ولم أفهم قَطُّ كيف يمكن لمثلي أن يكتب هذا الكلام، لكن لا بد أنك تعلم، أنا كنت مريضًا، كنت أظن نفسي إله مصر!

- نعم أعرف، لكن لا يعرف الجميع هذا، الكلام عن مرضك انتشر بين مجموعة صغيرة من المعارف والمقربين فقط، والحمد لله أنك لم تعد تظن نفسك كذلك.

- أحيانًا أشعر بأني مسؤول عن الكثير من المصائب التي حدثت في ذلك الوقت.

- الناس ينسون، ومن يعرفونك سامحوك بالطبع، عشرون سنة في المستشفى كفيلة بالنسيان والمسامحة.

استمرا في الحديث فترة طويلة، وأشار إسماعيل ليوسف عما

كتب في المجلد، قال له إن جميع من قرأوا الكتاب ضحكوا كثيرًا، منال وكريم ومريم، وقالوا إنه نقد حاد للدكتاتورية، بينما هو يراه كتابًا غريبًا، لم يجد فيه انتقادًا للدكتاتورية إلا بقدر مديحه لها. أبدى يوسف اهتمامًا دبلوماسيًا بالمجلد، واتفقا أخيرًا على أن يتقابلا في أقرب فرصة.

...

في غرفة المكتب يغرق يوسف تمامًا في قراءة المجلد، تركه الجميع ليقرأ ما يمكن قراءته بسرعة، ينسى أنه ترك إسماعيل في البلكونة، وينسى أنه في زيارة بيت تحتّم عليه أن يظهر الكثير من الالتفات لأصحابه، يمر بعينيه على السطور بسرعة، وكلما تقدم في المجلد ترددت كلمة واحدة في عقله: «سأنشره».

يدخل إسماعيل إلى الغرفة ويراه منشغلًا بالمجلد، يجلس على الكرسي ويقول وهو يبتسم:

- ما رأيك؟

- سأنشره.

- من تحدث عن النشر؟ أنا لم أقرر نشره بعد.

- سنوقّع العقد الآن.

يضحك إسماعيل ضحكة طويلة، يقول:

- ألا ترى أنك متسرّع؟ ماذا إن فشل الكتاب؟

- لن يفشل، أنا أعرف ما سيفشل، ولا أعرف بالضبط ما سينجح، هذا الكتاب لن يفشل بالتأكيد.

- أنا حتى لا أستطيع تصنيف الكتاب، ما هذا؟ تاريخ؟ رواية؟

- التصنيف غير مهم الآن، هناك تصنيف جديد ظهر منذ مدة؛ «غير مصنّف»، والجميل أنك كتبت الكتاب أثناء فترة مرضك، الكثيرون كتبوا عن مرضهم بعد شفائهم، لكني لا أذكر أي شخص كتب عن مرضه أثناء وجوده في مستشفى.

- أهو مهم؟

تبدو الدهشة على وجه يوسف، يقول:

- ألا ترى هذا؟ بقراءتي لهذا الكتاب فأنا أتعرَّف على عقلك وعالمك الذي خلقته لنفسك، ربما حكيت ما حدث عندما كنت هناك، الأكيد أنه لولا هذه المذكرات لما عرفنا أي شيء عنك في تلك الفترة، هذا الكتاب لن يكون ممتعًا للقارئ فحسب، بل بالتأكيد سيساعد الأطباء على فهم المرض نفسه.

- يعني ألا ترى أنه سيثير المشاكل؟

- لا، أي مشاكل يمكن أن تحدث؟

- يعني ألن يتذكر الناس سيرتي السابقة؟ وحتى من لا يعرفني سيعرف بعد النشر أني كنت مريضًا.

- وما المشكلة؟ سيرتك معروفة يا دكتور ولن تتغير، ولا يوجد أي داعٍ للخجل من مرضك، يمكن أن يصاب أي منا بمرض مشابه.

- طيب، ألن يثير مشاكل بسبب الكلام عن الدكتاتورية؟

- لا، لن يحدث هذا الآن أبدًا، البلد تغير تمامًا.

- أنت متحمس جدًا! طيب ألا ترى أن النهاية غير منطقية؟ حارس يعرض على خربتو سيجارة؟ أليس من الأفضل أن أكتب خاتمة للكتاب؟ ألا يجب أن أحكي ما حدث بعد خروجي من المستشفى؟

- لا، سأنشر الكتاب بشكله هذا، لا مانع عندي من النقص، لا ضرورة لخاتمة، ورأيي أنك الآن في حالة مختلفة عن حالتك عندما كتبته، أنت الآن رجل عاقل تمامًا، يمكنك فقط كتابة خاتمة إن عدت إلى جنونك السابق.

يحدِّق إسماعيل للحظة في وجهه ثم يدرك أنه يمزح، يصمت مفكرًا، لا يجد سببًا للرفض، يطلب منه مهلة للرد، أيام قليلة فقط، فهو يريد أن يأخذ رأي منال ومريم. لا يجد يوسف ما يبقيه في البيت فيستأذن. لكن إسماعيل يطلب منه البقاء، ويسأله:

- يمكننا أن نخرج معًا، أنا لم أعد أحتمل الأماكن المغلقة، هل أنت مشغول؟

- لا، بالصدفة لا شيء يشغلني الآن، أين تود أن تذهب؟

- لا أعرف، أنا لا أعرف شيئًا عن هذه المدينة الجديدة، ألا توجد شوارع للتمشية هنا؟

يبتسم يوسف ويقول:

- هذا ليس هنا، كل المدن الجديدة تحوي نوادي وحدائق ومولات، لكنك لن تجد ما يشبه شارع طلعت حرب مثلًا.

- طيب، نذهب إلى شارع طلعت حرب.

- لم يعد موجودًا، راح مع ما راح.

- كيف راح بالضبط؟ لم يشرح لي أحد ما حدث قَطُّ، الكل يهرب من الإجابة الدقيقة عن السؤال.

- طيب، يمكننا أن نذهب إلى مكتبة قريبة، سنشتري بعض الكتب، وربما نتعشى معًا إن أحببت وسأجيبك عن أسئلتك، هل هذا مناسب؟

- هذا ممتاز.

...

توقف الزمن بيوسف إدريس منذ مدة طويلة، تحديدًا خلال الـ18 يومًا الشهيرة بين يومي 25 يناير يوم اندلاع الثورة، ويوم 11 فبراير 2011، يوم تنحّي مبارك. ومع تقلب الأحوال بعد ذلك ظلت أيامه كلها جزءًا من الثمانية عشر يومًا، يذكر تفاصيل كل يوم بدقة، كل المغامرات والتطورات والانفعالات، يعيد تذكرها كل يوم في حياته. ظل يتذكرها حتى قرر في النهاية أن يكتب ما حدث، وأن يسأل من رآهم في تلك الأيام عن تفاصيلها، سأل من أفلت من السجن ومن بقي في مصر ولم يضطر للهروب، ومن أفلت من الموت الطبيعي أو الموت حسرة، من بقي بعد كل الاستثناءات خمسة وهو

السادس، تفاصيل كثيرة جدًا كُتبت، تفاصيل مملة في أحيان كثيرة لأنها لا تتصل بالحدث الكبير بل تلمسه من بعيد، ووجد في النهاية أن لا أحد يمكنه نشر كتاب بهذه الضخامة، لكنه لم يجرؤ على حذف شيء منه حتى وإن ظن أنه بلا قيمة.

في المول القريب من منزله يمشيان ببطء في الممرات الواسعة، حكى يوسف لإسماعيل كيف أسس دارًا للنشر فقط كي ينشر كتابه، وكيف حذَّره كل من يعرف من المغامرة في مشروع كهذا، وكيف أشاروا إلى دور نشر عديدة تكاد لا تربح، مستمرة فقط لتورط مؤسسيها، لكنه لم يستمع لأي من النصائح وفعل ما فعل، والمدهش أن الدار نجحت مع أنها قامت ببيع كتاب واحد فقط لسنة كاملة، وبعدها تطورت الأمور حتى وصلت إلى هذه اللحظة، قال لإسماعيل إنه لم يكن يحلم قَطُّ بنشر كتاب جديد للدكتور إسماعيل نوح.

يصلان إلى المكتبة الضخمة، يُذهل إسماعيل من فرط اتساعها، ويفكر أنها ربما تحوي كل الكتب التي صدرت في مصر وربما في العالم العربي، يصلان إلى قسم التاريخ، وفورًا يلتقط يوسف ستة كتب ضُمّت أغلفتها لتكون سلسلة واحدة، يناولها إلى إسماعيل ويقول:

- هذا كتابي، أفضل إصداراتي كناشر.

- «أيام السماء»، عنوان جميل يا يوسف، اسمك على الكتاب مربك جدًا، يوسف إدريس لم يكتب كتابًا بهذا العنوان بالتأكيد.

- لست أول من يرتبك بسبب اسمي، انتبه للأسماء الأخرى على الغلاف، هذا عمل جماعي بالدرجة الأولى، لكن دعنا نتحرك إلى الأهم.

يتحرك خطوات ويلتقط كتابًا آخر، هذه المرة ثلاثة مجلدات سميكة، يقول:

- «تاريخ دولة يوليو»، هذا أوضح وأبسط كتاب يشرح ما حدث

في السنوات السابقة.

ينشغل إسماعيل بالرفوف وما عليها، معظم هذه الكتب جديدة ولا يعلم عنها شيئًا، عدد قليل جدًا قرأه أو حتى يميز عناوينه، يتذكر كتبه العديدة فيسأل:

- هل كتبي موجودة هنا؟

- لا أظن، جميع الطبعات القديمة نفدت منذ فترة طويلة، وظهرت مشكلة وجودك في المستشفى، زوجتك رفضت إعادة نشر أي من كتبك، وعند بلوغ ابنك السن القانونية كان الاهتمام بما كتبت قد انتهى. لكني أتوقع عودة الاهتمام بك قريبًا بعد نشر المجلد.

يلتقط يوسف ثلاث روايات أثناء مروره على طاولة الأدب، يتحركان معًا ليدفع يوسف ثمن الكتب كلها، ثم يخرجان إلى المول ويمشيان ببطء، يصلان إلى مقهى مفتوح على ممرات المول، يجلسان على أقرب طاولة، يقول يوسف:

- نهارًا في المكتب أو الحديقة، مكتبي يطل على حديقة واسعة وأحب أن أقابل الناس بين الأشجار، أما ليلًا فلا خيار آخر غير المول.

- مكتبك هنا؟ في القاهرة الجديدة؟

- نعم، يبعد عن منزلك 20 دقيقة بالسيارة.

- اعذرني، عشت في القاهرة مدة طويلة، لدرجة أني لا أتخيل أن أعيش في مدينة أخرى، بالإضافة إلى أني أجهل كل شيء هنا.

- أتفهم هذا تمامًا، لا بد أن ما حصل في غيابك محيّر بالنسبة لك.

- نعم، أنا لم أقرأ أي شيء حتى الآن عما حدث، وقليلون فقط يتحدثون عن نيزك واحتلال غامض وثورات لا تنتهي، فترة اضطراب غامضة كالتي تحكي عنها البرديات المصرية القديمة.

- طيب، هي فترة غامضة لأن لا أحد يريد التحدث عنها الآن، لكن كل شيء مسجل بالصوت والصورة والكتابة، وهناك مئات الأبحاث

والدراسات في الجامعات، ومئات الكتب في المكتبات، تقريبًا ربع الكتب في قسم التاريخ حيث كنا واقفين منذ قليل موضوعها الأساسي هو ما حدث.

- اعتبرني تلميذك.

ثم يلصق ظهره بالكرسي ويضع يديه في حجره ويسأل:

- ماذا حدث؟

يضحك يوسف كثيرًا، يقول له بصدق:

- أنا مجرد هاوٍ، وهذه الجلسة تذكرني بلقائنا القديم في 2011، الدكتور صالح مات الله يرحمه، وأنت تطلب مني الآن أن أتكلم.

يختاران ما يريدان من قائمة المشروبات، ويأتي الجرسون ليسجل ما طلبا. عندما يغادرهما يقول يوسف:

- بعد دخولك المستشفى، احتلنا جيش فرسان مالطة في عام 2023، للدقة، احتلنا «جيشا فرسان مالطة الرابع والخامس»، ظلوا مسيطرين على البلد إلى أن رحلوا في عام 2026، وقبل رحيلهم سلموا السلطة إلى ضابط جيش سابق بعد ترقيته، المشير نيازي عرابي الجمالي.

- كأنك يا أبو زيد ما غزيت.

- الجمالي كان شخصًا مجنونًا تمامًا، بعد أربعة شهور أعلن نهاية «جمهورية مصر العربية» وتأسيس «سلطانية مصر»، كما أعلن نفسه «السلطان الجمالي الأول»، حينها كنا نتعافى بصعوبة من آثار الاحتلال، الجيش ضعيف جدًا وبلا أي موارد، بينما المدنيون أقوى بمراحل لنشاطهم المستمر وقت الاحتلال، وبعد رحيل فرسان مالطة تكوَّنت معارضة مدنية قوية ضد الجمالي نفسه، وفي يوم النيزك انقلب كل شيء.

- عندما اصطدم نيزك بالأرض؟ آسف، عندما مرَّ نيزك فوق الأرض؟

- نعم، مر فوق القاهرة، كل الحسابات المعلنة أكدت أنه لن يكون

مؤثرًا، وكالات الفضاء في أمريكا وروسيا والصين أكدت ذلك، وأعلنت بوضوح أن المشكلة الأكبر ستكون خوف الناس الذي قد يسبب مصائب. لكن عندنا الأمر كان مختلفًا، أعلن مكتب السلطان أن الخطر المتمثل في النيزك ستتم مواجهته على أعلى مستوى، سيواجهه السلطان بنفسه. وقتها كان كل ما يجري في مصر مسرحية كبيرة، السلطان الجمالي كان يعلم أن لا ضرر من النيزك، ويعلم أننا نعلم ذلك، ومع ذلك كذب، باختصار فعل ما فعل كل حكام مصر. في يوم النيزك وضعت منصة هائلة فوق سطح مبنى فندق هيلتون رمسيس، وفوقها دبابة مكتوب على جانبها «السلطان الجمالي»، والسلطان نفسه ظهر من فتحة الدبابة وهو يحمل مسدسًا يوجهه نحو السماء، في انتظار النيزك. تجمع الكثيرون في شوارع وسط البلد، كل من يعيش في تلك المنطقة نزل من بيته وانتظر في الميادين بعيدًا عن المباني، حتى تكون السماء منكشفة أمام الأعين، كنتُ هناك أيضًا، ومثل الحاضرين أنظر بعين إلى الشاشات التي تنقل صورة الجمالي على الهواء وهو يرفع مسدسه، وبعين أخرى إلى السماء حيث النيزك. الرجل المختل أمر بإخراج كل من ينتظر حكمًا بالإعدام من السجون، وأمر بتنفيذ الأحكام في وقت واحد في شوارع وسط البلد، تخيل هذا المشهد: العشرات تُقطع رؤوسهم واحدًا تلو الآخر، والمختل يظهر على شاشة ضخمة في ميدان طلعت حرب يرفع مسدسه إلى النيزك، وفي طرف السماء نقطة نور صغيرة مبهرة على الرغم من نور النهار، شمس صغيرة بذيل منير طويل تكاد تكون ثابتة فوق رأسك.

- ثم تبين أن حسابات ناسا كانت غلط.

- للأسف نعم، الكثيرون سقطوا من الرعب عندما اشتعل النيزك فجأة وتضاعف النور، لا يمكنني أن أصفه بدقة لأني غطيت عينيَّ بكفَّي، اختلط صوت الصراخ والنحيب بضجيج أبيض رتيب مستمر

أتى من السماء، لم أفهم حينها ما حدث بالضبط، لكني لم أقوَ على النظر إلى الأعلى، وأخذت أعدو محاولًا الخروج من وسط المباني التي أخذت تنهار واحدًا تلو الآخر، وعندما اصطدمت بفوضى الهاربين وقعت وظللت على الأرض مستسلمًا تمامًا، ظننتُ أنني سأموت حتمًا. علمت بعد ذلك أن مرور النيزك استغرق خمس ساعات، واستمر تأثيره على المباني في تلك البقعة من القاهرة اثنتين وعشرين دقيقة فقط، بدت لي وكأنها اثنتان وعشرون سنة، لكنها كانت كافية لتحويل الميادين والشوارع إلى ساحة حرب، كل المباني المحيطة بميدان التحرير انهارت، انهار مبنى هيلتون رمسيس واختفى الجمالي ودبابته وسط الركام. وبينما كنا نحاول الهروب من الكارثة، كان شيء آخر غريب يحدث في مبنى البرلمان، هنا في القاهرة الجديدة.

يأتي الجرسون ويضع فنجانَي القهوة، يسأله إسماعيل:

- هنا؟ نقلوا البرلمان فعلًا؟

- نعم، بعد الاحتلال مباشرة، بشكل عام كان الجمالي يخشى الثورة عليه فنقل كل المباني الحكومية إلى مكان بعيد عن القاهرة وزحامها، وخطته مفهومة؛ إن حدثت ثورة فستحدث في المدينة ذات الكثافة السكانية العالية، وستكون الثورة بلا تأثير إن لم يحاصر الناس مباني الدولة، وبالطبع إن لم يدخلوا قصر الحاكم عنوة.

- هذا الشكل الكلاسيكي، لكنه ليس موفقًا على الدوام.

- هذا صحيح تمامًا، عندما كنت أحاول الهروب من الفوضى في يوم النيزك، في تلك الساعة بالذات، كان عضو البرلمان رامي رياض يقف أمام زملائه المجتمعين تحت القبة وهو يعلن: «هذا انقلاب مدني، لقد سقطت السلطانية المصرية، وأعلِن الآن تأسيس الجمهورية المصرية». وخلال ساعتين فقط ناقش الأعضاء الإعلان وصوتوا لصالحه، ثم اعتُمد بعد موافقة الأغلبية، حتى الضباط

السابقون الأعضاء في البرلمان صوتوا لصالح الإعلان بلا أي تردد. الآن يرى الكثيرون أن الضباط أسسوا دولة يوليو وأنهم أنهوها بعد عقود. لكن التفاصيل كثيرة وستجدها في الكتاب الذي معك.

- تاريخ دولة يوليو؟

- نعم، باختصار شديد، الرؤية العامة لتلك الدولة الآن: بدأت دولة يوليو عام 1952، واستمرت متذبذبة الشمولية والقوة حتى صارت في أضعف حالاتها قبل يناير عام 2011، ثم عادت قوتها تتنامى بعد ذاك العام، ثم بدت انهيارها الحاد في عام 2023 بعد الاحتلال، وانتهت تمامًا في عام 2027. اليوم يتعامل الناس مع هذا التاريخ كما يتعاملون مع تاريخ الدولة الفاطمية أو الأيوبية، مجرد سرد لأحداث قديمة غير مهمة كثيرًا، ربما حتى بلا دروس مستفادة أو حكمة ما، حتى إن المؤلفين لا يهتمون بفكرة طغيان هؤلاء الحكام، أو بانتقاد الدكتاتورية التي ازدهرت في ذلك الوقت.

- كتبت مثل هذا سابقًا، لكن التجربة لم تكن قد اكتملت بعد، أي شخص عاش في ظل دولة يوليو ظن أنها ستدوم إلى الأبد. إذن فالآن لا أحد يلوم حكام يوليو، لا أبطال ولا مجرمين.

- لا، مجرد أشخاص وجدوا أنفسهم في السلطة بلا أي خبرة، أداروا البلد بالطريقة الصارمة التي لا يعرفون غيرها، والملمح الأساسي هو الطغيان التدريجي لشخصية كل حاكم على كل تفصيلة في البلد، كل واحد منهم استطاع أن يجعل المواطنين نسخًا منه، وأكثرهم بأسًا استطاع أن يحول حتى معارضيه إلى نسخ منه. أحدهم، حسني مبارك، كُتب تاريخه - في هذا الكتاب - في خمس صفحات، واحدة لسيرته الذاتية، وواحدة لأحداث الأمن المركزي عام 1986، وثلاثة لثورة يناير. يسميه المؤرخون الآن: «الرئيس البليد».

يزفر إسماعيل زفرة استهزاء ويقول:

- كنت رجلًا بالغًا في فترة حكمه ولا أذكر منها إلا أننا ثرنا عليه.

هو رجل بليد فعلًا.

يدعو يوسف إسماعيل إلى طلب الطعام، ينظران في القائمة ويصمتان دقيقة، ثم يأتي الجرسون ويسجل طلباتهما القليلة. يسأله:

- لكن كيف أعلن الجمالي حكم السلطانية؟ ألم يقاومه أحد؟

- عندما ظهر الجمالي كانت فكرة اكتمال ونهاية دولة يوليو قد أصبحت مهيمنة على عقول أغلب المصريين، وبدا للجميع أن الجمالي سيكون الختام الكارثي لتلك الدولة، والرد على رجل مختل العقل كالجمالي لم يتمثل بمجرد العمل السياسي المعارض، بل بفعل أكبر وأكثر حدة، انقلاب مدني كما حدث بعد ذلك فعلًا. من الناحية الفعلية حكَمَ الجمالي لفترة قصيرة جدًا وبالتالي لم يكن مؤثرًا بما فيه الكفاية، بالطبع كان له عدد كبير من المؤيدين، مواطنون لا دخل لهم بالسياسة، صحفيون وإعلاميون، وموظفون كبار في الدولة سيخدمون أي شخص يوفر لهم مرتباتهم، هؤلاء لعنة مصر التي لا تنتهي، وبالطبع مؤرخون ومنظرون للسلطانية الجديدة، لقد شاهدتَ أنت ما يشبه ذلك في زمنك وكنتَ جزءًا منه.

لا يعلق إسماعيل على الاتهام المؤدَب، فيتابع يوسف:

- بعد الانقلاب المدني أخرج البرلمان ملايين الوثائق الموجودة في خزائن الدولة، في القصور الرئاسية ومكتبة البرلمان ومكاتب الوزارات، للأسف لم ينجُ إلا القليل جدًا من وثائق قصر عابدين الذي انهار في يوم النيزك. حتى الآن لا يزال الكثيرون يدرسون الوثائق، ومع كثرة الوثائق الغريبة أُصبح الناس لا يتعجبون من ذلك العصر، اعتادوا على الغرائبية الموجودة في كل تفصيلة وفي كل حدث وفي كل جملة قيلت.

- وبعد ذلك؟ حسب ما فهمت لا يوجد رئيس الآن.

- هذا صحيح، نحن الآن دولة فدرالية. أدرك أعضاء البرلمان منذ اليوم الأول أن أي رئيس مصري سيتحول إلى دكتاتور بفعل سلطاته

اللانهائية كما ينص الدستور، وفكرنا إن حددنا سلطاته فلن يعجز عن توسيع حدودها فيما بعد عن طريق البرلمانيين الموالين له. فعدلوا الدستور بحيث ينص على أن يختار البرلمان رئيس الحكومة وأعضاءها من بينهم، على ألّا يحتفظ أيهم بكرسي البرلمان، وأُلغي منصب الرئيس، وصار انتخاب المحافظين إلزاميًا، ومُنحوا سلطات جزئية داخل محافظاتهم.

- كلامك يوحي بأنه لم تعد هناك مشاكل.

- أنت تعلم أن هذا لن يحدث أبدًا، لن نواجه حكم الفرد المستبد بالطبع، لكن الكثيرين يرون أننا نواجه مشاكل هائلة بسبب غياب منصب الرئيس، إحداها أن القرارات تُؤخذ بعد مشاورات وجدالات تستمر وقتًا طويلًا، هناك مشاكل فعلية كثيرة أيضًا، الجميع أصبح متعلمًا، و70 % من المتخرجين في الجامعة حصلوا على الدكتوراه، أصبحت الشهادة مجرد ورقة. يتوقَّع الكثيرون أنه بسبب الرعاية الصحية سيزداد معدل الأعمار إلى درجة مقلقة. الكل يعزف عن الإنجاب الآن لأسباب متعددة، والنتيجة أن عدد السكان يقل كل سنة ما يقرب من 600 ألف إنسان، تخيل أن الدولة تشجع الآن المواطنين على إنجاب أكثر من ثلاثة أطفال بعد سنوات طويلة من تشجيعهم على إنجاب طفل واحد. والكارثة الكبيرة في المعتقدات الغريبة التي حلَّت علينا، الآن يعبد الملايين الحكام السابقين، حسب إحصائية حديثة، يعبد 12 % من المصريين حاكمًا سابقًا، كل حاكم له مجموعة من المؤمنين به كإله، حسني مبارك يتربع على القمة من حيث عدد المؤمنين به، يؤمنون بأنه السلحفاة العتيقة التي يستقر الكون فوق صدفتها، والناصريون يؤمنون بأن عبد الناصر إله غيَّر مصر وخلق واحدة جديدة في عام 1952. تدور صراعات هائلة بين كل هؤلاء كل يوم، الكل يتشاجر مع الكل حرفيًا، وإن بدا لك أن الناصريين والمباركيين مخرفون، فهناك المؤمنون بـ«الفاعل بأمر

الله».

- من هذا؟ اسمه يوحي بأنه خليفة عباسي لكن لا أحد بهذا الاسم أصلًا.

- اسم شخصية روائية، لا أحد يذكر اسم الرواية أو مؤلفها الآن، لكن من يعبدونه يقولون إنه المثال الأعلى للحاكم الإله.

- كل هذا غريب جدًّا، لا أفهم موضوع العبادة هذا، هل يؤمنون بهؤلاء كآلهة فعلًا؟ هل يصَلُّون لهم مثلًا؟

- هناك تنوع كبير، هناك من يؤمن بالحاكم كإله، ويعبده بطرق عديدة كأن يرتدي ملابس مثل ملابسه، أو يتكلم مثله، أو يردد أقواله الشهيرة. هناك من يؤمن بإلهين، مثلًا، مسلمون ويعبدون عبد الناصر.

- لكن هذا شرك، وهناك آيات وأحاديث كثيرة تحرِّم ذلك تمامًا، الإسلام نفسه قائم على نبذ الشرك، العرب كانوا مهووسين بعبادة آلهة متعددة قبل الإسلام، لذا كانت إدانة الشرك قوية وواضحة للغاية. إيمان من تكلمت عنهم ليس مجرد عدم فهم للإسلام، بل غباء خالص.

- هذا ما يحدث فعلًا، وإذا دخل الإيمان القلب فلا مفر من أي شيء. هؤلاء مثلًا لا فرق عندهم بين «الله» وبين «جمال عبد الناصر»، وغيرهم كثيرون يؤمنون بالله وبحاكم مصري آخر. بالطبع حرية الاعتقاد مكفولة تمامًا ولا يمكن لأحد أن يمسهم بسوء، لكنها تظل مشكلة.

- المشكلة الأصلية أن الحاكم صدق أنه إله.

- تذكَّر أنك قمتَ بهذا أيضًا، والحقيقة أن الحاكم نصف المشكلة، ونصفها الآخر ممن عبدوه. الكثير من الأطباء النفسيين الآن يرون أن كل حاكم مصري وصل به الغرور إلى الاعتقاد بأنه الله في وقت من أوقات حكمه. وعندما تصرف كإله خاف الناس من عقابه، فعبدوه.

- ولهذا فاللوم يقع على الحاكم دائمًا.

يضحك يوسف ثم يتابع:

- لا زلت كما كنت، تتمسك برأيك بصلابة بالغة. الناس أيضًا مكانهم المستشفى، واعذرني على كلامي، لكنك أوضح دليل على هذا إذا تناسينا موضوع تأليه نفسك، أنت كتبت دراسة مهمة عن دكتاتورية عبد الناصر وسيطرته على كل شيء في البلد، وأشرت بوضوح إلى أن سيطرته على الإعلام خلقت شعبًا مشوهًا تمامًا، ملايين النسخ من عبد الناصر، يفكرون مثله ويتكلمون مثله ويرتدون ملابس مثل ملابسه ويتخيلون المستقبل مثله، وقلت إنه كان مهووسًا بالنجاح والإنجازات وبترسيخ صورته كرجل ناجح في كل ما يفعل، لكنه كان في الحقيقة إنسانًا مكتئبًا شكّاكًا سوداويًا، وقلت إنه أسس لحكم عدمي شمل كل من جاء بعده، انتحاريون عدميون يحكمون البلد. وبعد سنوات من كتابة هذه السطور وقعت أنت تحت سيطرة الإعلام، وساهمت بقدر كبير في السيطرة على الشعب في ذلك الوقت من خلال كتبك ومقالاتك، حتى موضوع ألوهية الحاكم كانت لك مساهمة في ترسيخه. في ذلك الوقت اعتاد الكثيرون أن يرسلوا إليك ليسألوك عن التغيير الذي حل بك، يسألونك عن آرائك القديمة ويقارنون بينها وبين ما كنت تقوله، وكنت ترد على الجميع ردًا واحدًا لا يتغير: «أنتم لم تفهموا ما قصدت قَطُّ». لدرجة أني شخصيًا توقعت أنك ستغير آراءك بعد عشر سنوات، وعندما سيسألك أحد عن سبب التغيير سترد عليه الرد نفسه. لا تهمل الذين عبدوا الطغاة أبدًا فلولاهم لما صدّق الطاغية أنه إله. أتعرف؟ بعد وفاة الجمالي، رفض مؤيدوه أن يصدقوا أن الشرطة عثرت على جثمانه المشوّه المحترق، وقالوا إنه لم يمت، بل رفعه الله إليه.

ابتسم إسماعيل بخبث وقال:

- والمسلمون لم يغضبوا؟

- المصيبة أن معظمهم مسلمون، يؤمنون بالله وبه معًا. في النهاية، كي يثبتوا اعتقادهم هذا أطلقوا عليه لقب: «السلطان الجمالي رفعه الله إليه».

يضحك إسماعيل ثم يبدو عليه الحرج، يرفع كفيه معتذرًا ويقول:

- لا أريد أن أسخر منهم، ولا داعي لتذكيري أنني كنت مثل الجمالي هذا في وقت ما، لكن أليس هذا إهانة للقرآن؟ ألم يغضب أحد؟

- للأسف، بتحولك الغريب فقدنا قيمة كبيرة جدًا، الكثيرون سخروا مما كتبت في ذلك الوقت، لكن كتبك ازدهرت بعد الاحتلال مباشرة، ككتابك «الألهانية» أصبح إنجيل الدولة الوليدة التي لم تعِش إلا شهورًا قليلة.

- أحيانًا أشعر بالرضا لأني لم أشهد هذا الاحتلال، والآن عندما أعرف أن الناس تذكروني بسبب تلك الكتب السخيفة أشعر بالرضا أكثر لأني غبت عن هذا كله.

- أنت كنت مؤثرًا حتى في غيابك، تظهر كتبك لسنوات ثم تختفي ثم تعود لتظهر، عندما دخلت المستشفى ظن جميع المقربين منك أن النظام اعتقلك بسبب آخر ما كتبت على فيسبوك، أنت لا تذكر هذا حتمًا، لكن صورة البوست ظلت متداولة لشهور عديدة، كانت فكرة إيداعك المستشفى تثير الكثير من التعاطف معك، وظننا أن النظام لم يرغب في حبسك فقط، بل أراد وصمك بالجنون أيضًا. بعدها أتى المحتل وتغير كل شيء.

- ماذا كتبت؟

- لا أذكر ما كتبت بالضبط، لكنك طالبت بتطبيق النموذج المعتاد للدولة الحديثة: الفصل بين السلطات، وفتح المجال العام للسياسيين والشباب، ومنح الصحافة الحرية الكاملة بموجب القانون، وإقرار الدستور. كل هذا عندما كنت في قمة تألقك، مؤرخ ومنظِّر النظام

حينها.

- لكني كنت مجنونًا بالفعل في تلك الأيام، لا أفهم كيف أكتب كلامًا يعارض النظام في حالتي تلك.

- ربما هناك لحظة وعي كامل بالجنون عند أي مجنون، وربما كانت تلك لحظة وعيك. بعد عام النيزك أعلنت سارة، الله يرحمها، بوضوح أن النظام الحاكم وقتها لم يكن له أي علاقة بما حدث، وأنها فعلت ذلك بنفسها لأنك أصبحت خطرًا على نفسك وعلى من حولك.

يصمت إسماعيل لفترة طويلة، يضع الجرسون الطعام فيأكل ببطء وبلا شهية، يتكلم يوسف في مواضيع مختلفة وهو يسمعه بغير تركيز، يسرح كثيرًا في البلد والثورة والحتمية التاريخية وسارة ومريم وكريم، ثم ينتبه إلى يوسف وهو يبتسم أو وهو يضحك فيعود لمتابعة حديثه. ومع انتهاء الطعام يتسلل الملل رويدًا رويدًا، ويعود فيفكر في الأيام القادمة حيث لا شيء يفعله أبدًا، حيث لا يشغله أبدًا. يقول ليوسف:

- نعم سأنشر الكتاب معك، أتريد أن نوقّع العقد الآن؟

يبدو الارتباك على يوسف ولا يجد ما يقول، فيتابع إسماعيل:

- يمكننا توقيع ورقة صغيرة من دون تفاصيل، لحين إعداد العقد الأصلي، إن كان هذا سيريحك.

- لا داعي لكل هذا، غدًا أمر عليك ويكون العقد معي.

•••

المدينة نائمة تمامًا، تنطلق سيارة يوسف في طرق شبه خاوية، وقرب البيت يطلب إسماعيل أن يترجّل ليتمشى قليلًا. يتركه على وعد بالحضور إلى المنزل غدًا وتوقيع العقد، يمشي ببطء والسكون التام حوله يدهشه، في هذا الحي المباني كلها منخفضة وتمتد إلى ما لانهاية، الشوارع عريضة للغاية، كل التفاصيل توحي برحابة غير عادية تختلف عن ضيق القاهرة الذي اعتاده. حتى السماء، يرفع

عينيه ليرى أنها صافية مليئة بالنجوم، يتوقف قليلًا ليتأمل اللمعان الخافت لبعضها، وما إن يدور بعينيه حتى يرى نجمًا أحمر براقًا، يفكر في أن هذا نجم بعيد جدًا بالتأكيد، ربما أبعد نجم عن الأرض.

10

كل شيء في مكانه في شقة جاردن سيتي، كل الخطوط متوازية أو عمودية على بعضها البعض، كل الألوان متقاربة أو متطابقة، أحجام كل ما في الشقة متقاربة، كل الحوائط ذات لون واحد، كل السجاجيد تظهر شراشيبها بالكامل مفرودة بغير التواء أو عُقد، أقمشة الستائر والوسائد والأثاث مفرودة وكأنها مكوية بعناية، الإضاءة موحَّدة؛ صفراء ودرجة قوتها ثابتة في كل الغرف، الأرضيات لم تُجدَّد لكن تم تحديد الأماكن التي تصدر صريرًا وأُصلحت كلها.

استيقظ إسماعيل كعادته في السادسة صباحًا، جلس على السرير وهو يقوم بعمل تمرينات مد عضلات الظهر السفلية، ثم تمدد على الأرض إلى جانب السرير ليتابع أداء تمرينات العضلات نفسها، تمتد فترة التمرينات والحركة البطيئة والتخلص التدريجي من آثار النوم والهرولة ساعة واحدة فقط، يستيقظ عادة تمامًا وينتهي من تمرينات الظهر خلال 20 دقيقة، ثم يرتدي ملابس خفيفة وينزل إلى الشارع، يهرول مدة خمس وثلاثين دقيقة، شوارع جاردن سيتي مقوسة بحيث لا يرى الماشي في أول الشارع آخره، الكثير من السكان يملكون كلابًا، ينزلون مبكرًا قبل زحام السيارات ليمشوا مع كلابهم، تلقي الكلاب

فضلاتها قرب الأشجار وربما في منتصف الرصيف، يحذر إسماعيل وهو يهرول خشية أن يطأها، يراها منتشرة فلا يتقزز لكنه يبتسم، السكان هنا يحبون الكلاب لكنهم لا يريدون تنظيف آثارها، يعلم أنهم اتفقوا مع كناسي الشوارع على المرور يوميًا لكنس الفضلات مقابل مبلغ بسيط، الكناسون سعداء بالجنيهات القليلة، والسكان سعداء، والكلاب سعيدة. يصعد السلالم مسرعًا إلى المنزل ليحلق ذقنه، يضيّع الصعود خمس أو سبع دقائق، السابعة ودقيقتان، لأول مرة في اليوم يشاهد سارة وهي تلقي عليه تحية الصباح.

يستحم، يفطر، يشرب قهوته، يتحرك إلى الجامعة، يعود بعد الظهر، يتغدى، ينام مدة ساعة، ثم يستيقظ ليكتب.

لا يمكن إغفال ذكر الدقة الهائلة التي ترافق كل ما سبق، فقبل أن يدخل الحمّام تتأكد سارة من أن كل سنتيمتر فيه نظيف تمامًا، من أن الفوطة جافة للغاية، ومن أن الملابس الداخلية النظيفة، نظيفة فعلًا وجاهزة ليرتديها فور أن يجفف جسده، شفرة الحلاقة جاهزة لاستخدامه؛ بعد أن تخرج الشفرة من غلافها البلاستيك تمررها بلطف على قطعة قماش قطنية ثلاث مرات، فتفقد الشفرة مقدارًا بسيطًا من حدتها، معجون الحلاقة في مكانه وفرشاة الحلاقة إلى جانبه، بينما يكون إسماعيل في الحمّام تجهّز سارة الإفطار، ليس كما يحب بل كما هو موضح في

الجدول المثبت على الثلاجة. تعتقد سارة أن اختيار الإفطار أمرٌ مهم، تعتقد أيضًا أن الملل إذا تسرب إلى النفس فسينتهي كل شيء، لذلك تقوم بعمل مفاجأة كل يوم لإسماعيل. هو لا ينظر أبدًا في القائمة المثبتة على الثلاجة، ولا يعلم ما إفطاره إلا عندما يجلس إلى الطاولة كل يوم صباحًا. ثم تفقد سارة جزءًا كبيرًا من سيطرتها حينما يخرج إسماعيل متحركًا إلى الجامعة، تتحرك إلى طاولة العمل حيث ترسم مجوهراتها الصغيرة، وتترجم قطعًا ومقالات صغيرة كي لا تنفق شيئًا من مدّخراتها، تترجمها لصالح صحف ومجلات ومواقع إلكترونية.

تحرص سارة على أن تشم رائحة إسماعيل حالما يدخل من الباب، تتصور أنه سيلتقط رائحة ما كريهة من الجامعة أو الشارع، أو ربما تصدر عنه شخصيًا رائحة عرق أو نفس كريه، ما يقلقها أن ينتبه أحد لرائحته - إن ظهرت أصلًا - خارج البيت، ثم تنسى قلقها لأنه عندما يعود يدخل الحمّام فورًا ويستحم، الغداء لا يمكن أن يكون مفاجأة لأن رائحة الطعام تصله حالما يخرج من الحمّام، يأكلان معًا ويتبرع هو بغسل الأطباق لأن ذلك يساعده على الاسترخاء ونسيان تفاصيل النهار والاستعداد لنوم القيلولة، وبينما ينعزل إسماعيل عن كل ما حوله وهو يتجه إلى غرفة نومه، تعود سارة إلى طاولتها وعملها.

النظام لا يتغير إلا في آخر الأسبوع وأيام الإجازات

الرسمية، وخلال العامين ونصف الماضيين لم يتغير إلا لزيارة طبيب سارة، أو لذهابها إلى المستشفى لولادة كريم، أو للذهاب به للطبيب إن مرض. تقريبًا، لا يمكن لأي شيء أن يخترق النظام الصارم الذي وضعاه معًا.

يستيقظ إسماعيل من قيلولته ليبدأ العمل الحقيقي، عمله في الجامعة هو مجرد وسيلة لكسب الرزق، أما الكتابة فهي العمل الذي سيبقى أثره مدة طويلة حتى بعد وفاته. خلال حياته مع سارة أيقن أنه قُدِّر له أن يكون مؤثرًا على هذا العالم، على هذه الأمة، وأن هناك عوامل عدة أدت إلى هذا الوضع المميز، بعضها شخصي وبعضها عام، أيقن أن اجتماع العوامل الشخصية والعامة كان إشارة واضحة لما عليه أن يفعل في السنوات القادمة، كان يفكر في تلك العوامل كل يوم، يسجلها في دفتر خاص، يعيد صياغة ما يكتب، يحذف بعضه أو يزيد عليه، إلى أن استقر على مجموعة العوامل التي أدت إلى وضعه الحالي المتميز، هي: 1- نضجه الفكري الناتج عن القراءة والاطلاع والتفكير النقدي المنطقي. 2- تدريسه للطلبة في الجامعة وإدراكه لأزمة التعليم في مصر من خلال مستوى الطلبة المتدني للغاية. 3- انفصاله عن مريم الفوضوية الثورية المريضة النفسية الكئيبة المتشائمة الكارهة للعالم وللقيم المثالية. 4- زواجه من سارة المنظمة الدقيقة العقلانية المتفائلة بحذر الحريصة على عمله وإنجازاته. 5- ولادة

كريم الذي يبشر بمستقبل باهر لمصر تحت ظل قيادة صارمة منظمة. كل هذا ترافق مع عوامل أخرى عامة، هي: 1- عودة العناصر الوطنية للحكم بنصر هائل بعد غيابهم لفترة قصيرة. 2- اندحار جميع قوى الشر وظهور حقيقتهم العنيفة المتوحشة. 3- فشل الثورة التام نتيجة جهل الثوار وانعدام تنظيمهم وانتهازيتهم. 4- فشل الحل الديمقراطي في مصر، وتأكد إسماعيل الشخصي من وجود بديل حقيقي وناجح: الدكتاتورية.

في البداية، جاهد إسماعيل كثيرًا كي يحافظ على جدول العمل، إرهاق جسدي يحط عليه عدة مرات كل شهر فيختل جدوله، ولا يمكن ضبطه إلا باختلاس ساعتي نوم إضافيتين في المساء، وشرب الكثير من القهوة، والامتناع عن الكحول. روحه ممزقة بين نهاره الكئيب في الجامعة الكئيبة وطموحه في وطن أفضل، المشاهدات اليومية ضايقته كثيرًا، المراهقون اللاهون في الشوارع، الطلبة الفاشلون الذين يدرسهم، لا أمل إلا في عدد قليل جدًا منهم، وطلبة الماجستير والدكتوراه الذين يرغبون في الهرب من البلد، سمع واحدًا منهم يقول لزميله: «ألن تتركنا مصر في حالنا؟»، وغضب كثيرًا لأن روح هؤلاء الطلبة انهزامية إلى هذه الدرجة، حتى بعد ثورة عظيمة مثل ثورة يونيو. آمن تمامًا بأن الحل في المزيد من العمل والبحث والاجتهاد، كان يقول لنفسه: لن أترك الوطنيين

يغرقون.

أكثر ما أزعجه في تلك الأيام المعلقون على ما يكتبه على فيسبوك، كلهم جهلة أغبياء وعاطلون عن العمل، بقايا الثوار الفاشلين غير المنظمين، بعضهم يشتمه بصراحة شديدة، بعضهم يشتمه بشكل غير مباشر، وهؤلاء كان يبلِّكهم بلا تردد، كان يضيف أسماء جديدة إلى قائمة البلوك كل يوم، أحيانًا عشرين أو ثلاثين اسمًا، وحتى الذين كانوا يردون على كلامه بأدب، يجادلونه في آرائه السابقة باحترام، يضيفون صورة لإحدى صفحات كتابه «صناعة الدكتاتور» ويسألونه: «أليس هذا كلامك يا دكتور؟ ما الفارق بين زمن عبد الناصر وزمننا الآن؟»، وكان يرد عليهم بتأنٍّ ليشرح لهم الفارق الكبير بين زمن عبد الناصر والزمن الحالي، ويقول لهم إنهم لم يفهموا ما كتب، لم يتأملوه بعمق. وعندما يبدأون بالسخرية منه يغضب كثيرًا ويبلِّكهم، حتى لم يعد يرى إلَّا ما يكتبه المؤيدون الذين يكتبون تعليقات مثل: «الله عليك يا دكتور»، و«فنان ولست دكتورًا فقط»، و«هذا هو التاريخ الحقيقي».

في يوم صيفي استيقظ من قيلولته بسبب الحر الشديد، يغطيه العرق وحلقه جاف، قام من سريره ومشى نحو المطبخ بخطوات بطيئة ليشرب، ثم عاد وألقى نظرة على سرير كريم النائم بعمق، وسارة التي يعلم تمامًا أنها ستستيقظ إن تنحنح. سمع طنينًا يأتي من الصالة، تحرك

بأقصى ما يستطيع من خفة خارجًا من غرفة النوم، ليكتشف أن الموبايل يهتز، والإشارة على شاشته تؤكد أن أحدًا يتصل به، دائرة حمراء وأخرى خضراء، يعلم تمامًا أنه إن ضغط الحمراء فإنه يرفض المكالمة، والخضراء تعني أنه قبلها، لكن ما ينقص الشاشة شيء اعتاد النظر إليه عند أي اتصال، رقم المتصل.

ضغط الدائرة الخضراء وأتاه الصوت الجاد يعلمه بأنه الدكتور يعقوب، خبير كيمو-بيولوجي يعمل في هيئة «مكافحة عفن البطاطس».

اشتهرت هيئة مكافحة عفن البطاطس بسعي موظفيها الدؤوب لاكتشاف العفن المنتشر في البطاطس المصرية، ومحاصرته، والقضاء عليه، واكتشاف أنواع جديدة لم تكن معروفة من قبل للقضاء عليها، ومحاولة منع انتشار العفن بين البطاطس، ومحاولة منع نشأة العفن من الأصل. مجهودات هائلة قام بها موظفو الهيئة، بصبر وصمت ومن دون أي تفاخر، كان كل مصري يعلم بالطبع بوجود الهيئة، فمقرها واضح ومعروف في الدقّي؛ مبنى ضخم يحيط به سور لا يوحي بأن في الداخل أي شيء مهم، وعلى السور لافتة كبيرة بسيطة مكتوب عليها بخط واضح اسم الهيئة. في هذا الزمن الجميل حيث كل شيء وكل شخص وكل خلية يعملون جميعًا من أجل مكافحة العفن، تمنى كل مواطن أن تُتاح له الفرصة للعمل مع هيئة مكافحة عفن

البطاطس.

فور إعلان الرجل عن هويته بزغت في رأس إسماعيل عشرات الأفكار في تلاطم عنيف لم يتمكن من السيطرة عليه أو حتى إتمام أي فكرة من أفكاره؛ أخيرًا الدولة تهتم بي... سأقوم بكتابة تقارير من أجل... سأترك الجامعة وأعمل معهم في وظيفة محلل معـ... بل سأكون دكتور تحليل... غالبًا سيطلبون مني السفر إلى بلاد باردة بعيدة كي... سأكون إنسانًا مهمًا... لكني لن أتحكم في الآخـ... سيستعينون بعقلي وقدرتي على... سأقابل الرئيس حتمًا ليشكرني... سأكافح العفـ...

انقطع التلاطم عندما كرر يعقوب كلمة «ألو» عدة مرات دون استجابة من إسماعيل، وعندما أجاب في النهاية رحَّب به وسأله إن كان يكلمه في وقت مناسب. بعد عبارات ترحيبية تحمل كل معاني الاحترام وجهها الطرفان إلى بعضهما، طلب يعقوب من إسماعيل أن يقوم بزيارته في المكتب في أقرب فرصة، واتفقا على أن الساعة الثانية عشرة ظهر الغد وقت مناسب تمامًا.

بحماسة بالغة، أيقظ إسماعيل سارة، أمسك بيدها وقادها بهدوء إلى خارج الغرفة وهي ذاهلة، أجلسها على الكنبة في الصالة وقال لها إن خبيرًا كيمو-بيولوجيًا في هيئة مكافحة عفن البطاطس اتصل به، وأنه سيقابله غدًا. احتضنته، قبلته، قالت له إنه متحمس كثيرًا ويجب أن

يهدأ حتى لا يوقظ الصغير، قالت إنها قلقة عليه منذ مدة وتخشى أن تخبره بقلقها حتى لا يغضب، شجعها صمته فاستمرت في الكلام، قالت إنه أستاذ تاريخ محترم ولا شأن له بالعفن والبطاطس والهيئات من ذلك النوع، وإن عليه أن يفكر جيدًا قبل أن يتعامل مع هذا الرجل، قالت إن من يتعامل مع هيئة مكافحة عفن البطاطس نهايته كارثية دائمًا، وعددت أسماء صحافيين وإعلاميين ورجال أعمال وسياسيين كلهم في حال بشع الآن بعدما كانوا يصدرون الصحف ويتصدرون الأخبار ويعقدون الصفقات، هم الآن متضررون ربما أكثر من العفن نفسه، فقط لأنهم تعاملوا مع إحدى هيئات المكافحة، قالت إن كل هيئات المكافحة ذات سمعة سيئة للغاية، لا يحترمون من يتعاون معهم، لا يحترمون حتى رجالهم، وعددت أسماء هيئات أخرى غير هيئة مكافحة عفن البطاطس، كلها أضرَّت المتعاملين معها، مثلًا، هيئة مكافحة فطريات الكلاب، وهيئة مكافحة الجدري المائي، وهيئة مكافحة عري الراقصات، وهيئة مكافحة الأخطاء اللغوية، وهيئة مكافحة التدخين، وهيئة مكافحة نتانة الصرف الصحي، وأسوأهم بالطبع هيئة مكافحة الحموضة. رجته أن يهدأ ويعيد التفكير فيما يكتب وفيما يفعل، قالت إن ميله مؤخرًا لتأييد كل ما تقوم به تلك الهيئات يقلقها ويوترها كثيرًا، وعادت في النهاية لتؤكد أن من يتعامل مع هيئات المكافحة مصيره أسوأ مما

يتخيل. استمع إليها وهو متعجب كثيرًا من كلامها. صدمه تغيرها، وفكر أنها تغيرت من دون أن ينتبه، وأنه لن يسمح لها بأن تعطله أو توقفه فهو يسير في طريق العظمة، فكر أن في نهاية طريقه شيئًا بالغ العظمة، أعظم حدث رآه في حياته، وفكر أن عليه الآن ألّا يشغل باله بقلق وتوتر وربما جنون سارة، وأن عليه أن يقمعها لأنها ستعطله عن المضي في طريقه، لكنها غير قابلة للقمع، فعليه الآن أن يخدعها حتى يصل إلى ما يريد، بعبارات قليلة هادئة طمأنها، قال لها إن عمله كأستاذ لن يتأثر، وإن المهمة الجديدة بسيطة، وهو لن يتورط في أي شيء غير أخلاقي فعليها ألّا تقلق.

التقى الرجلان مرات عديدة خلال الشهور الأربعة التالية، لم يتركا موضوعًا خاصًا بعفن البطاطس إلا وتحدثا فيه، ولأن الدكتور يعقوب كان يحب التاريخ والمؤرخين، تحدثا أيضًا عن التاريخ والحتمية التاريخية، وعن تاريخ مكافحة الأوبئة في مصر، وكيف أن أبحاث مكافحة الأوبئة بالغة الندرة، وأن الأبحاث النادرة موضوعة في مكتبات قليلة ولا يُسمح للعامة بالاطلاع عليها، تحدثا عن إعادة كتابة تاريخ مكافحة عفن البطاطس ليلائم تطلعات المصريين بعد خروجهم من النفق المظلم، واتفقا بعد لقاءات عديدة على عدم وجود تاريخ حقيقي أصلًا، لكن كل مؤرخ يقنع من حوله بأن ما يكتبه حقيقي، تحدثا أيضًا عن حتمية تدمير جزء من محصول البطاطس من أجل تدمير العفن، وبالتالي

إنقاذ باقي المحصول، واتفقا على أنهما يريان وجوب تدمير مليون بطاطساية إن اكتشفا أن هناك بطاطساية واحدة عفنة بين المليون، لم يكن لطموحهما أي حدود. في لقائهما التاسع والأخير قبل أن يبدأ إسماعيل العمل بشكل رسمي، اتفقا على أن يتلخص تعاون إسماعيل مع الجهاز في نقاط ثلاث، 1- سيكتب مقالات في الجرائد، هذه مهمة سهلة والكثيرون يقومون بها بشكل سيئ للغاية، ليسوا كتابًا ولا يستطيعون تكوين جملة عربية مفهومة، لهذا عليه أن يهتم كل الاهتمام بما يكتب. 2- أن يكتب كتبًا، وهذه مهمة لا ينافسه فيها أحد تقريبًا، كتاب المقالات يريدون المكافأة آخر الشهر ولا شيء آخر، ولا يصبرون على كتابة أكثر من ألف كلمة، أما هو فمحترف في مجال كتابة الكتب وبالتأكيد سينجح في مهمته نجاحًا مبهرًا. 3- أن يكتب تقارير تفصيلية دقيقة ومؤكدة، عن أي عفن يلاحظه في أي كومة بطاطس عند أي خضري، وهذا يتطلب منه أن يجوب شوارع القاهرة بحثًا عن العفن، في أسواق الخضار المختلفة وعند الباعة الذين يقفون متفرقين في كل مكان، كل ما عليه أن يحدد نوع العفن بالنظر، وأن يسجل اسمه ودرجة انتشاره ومكان البائع بدقة، ثم يرسل تقريره إلى الهيئة ليتم التعامل مع العفن. هنا تنتهي مهمته كملاحظ ومراقب لعفن البطاطس. في ذلك الاجتماع، وبعد أن اتفقا على كل التفاصيل، سأل يعقوب إسماعيل: «لماذا لا تكتب

تاريخ البطاطس؟»، فرد بثقة: «أود أن أكتب تاريخ العفن».

في الصباح التالي لذلك الاجتماع، يوم الخامس والعشرين من فبراير عام 2016، استيقظ إسماعيل في السادسة كعادته، لم يشعر بأي كسل أو رغبة في التمدد دقائق على السرير، بل بطاقة لا حدود لها، نزل مبكرًا عن موعده المعتاد إلى الشارع ليجري، وعندما لاحظ أنه أخذ يلهث بعد دقائق ابتسم وقال لنفسه إن اللهاث من الجري والانفعال معًا، وهدأ من سرعته إلى أن أخذ يمشي على مهل. كان ينظر إلى الأمام وهو يتخيل آلاف التقارير التي سيكتبها عن العفن، مئات المقالات التي ستملأ الصحف، عشرات الكتب التي سينشرها، كتابان في السنة، بل ثلاثة. عندما أحس بشيء ليِّن تحت قدمه، وقبل أن ينظر أسفل حذائه تأكد أنه خطا فوق فضلات كلب، وعندما رأى نعل حذائه المتسخ ابتسم وتذكر الكناسين البسطاء، المصريين التقليديين، المواطنين المتواضعين، وهم يتلقون هبات أصحاب الكلاب في جاردن سيتي بسعادة وشكر بالغ، وتأمل المجموعة السعيدة كلها؛ سكان جاردن سيتي وكلابهم والكناسين والخراء السعيد الذي يربط بين الجميع، فكر أن المجموعة هي خير تمثيل لمصر، وأن عليه أن يبدأ في وضع الخطوط الرئيسية لكتاب عن الموضوع.

مشى في الشارع المقوس الذي ينحني نحو اليمين، انحرف نحو اليسار ليدخل الشارع الفرعي.

فجأة وجد نفسه يرتفع في السماء.

خاف، لا شيء حوله يمكن أن يتشبَّث به، ونظر إلى أسفل منه فرأى الأرض ابتعدت والعمارات صغرت والأشجار اختفت تحته، وحدود القاهرة ظهرت فاصلة بين الأصفر خارجها وخليط الألوان والأشكال داخلها، وأمامه ظهر قوس واسع في الأفق البعيد يفصل بين الألوان الأبيض والأزرق والأصفر والأخضر في الأسفل واللون الأسود في الأعلى، وتحول القوس إلى دائرة صغيرة أسفل قدميه تبتعد بتسارع هائل عنه، وظهر اللون الأسود حوله وكأنه بلا حدود، ولم يشعر بضغط على جسده أو ضيق في نفسه، لكنه علم أنه تسارع بعيدًا عن الأرض، ورأى النجوم خافتة من بعيد ثم اقتربت منه بسرعة هائلة، ورآها تمر من أمام عينيه ثم تبتعد إلى الأسفل، ورآها تتجمع أسفله في مجموعات زرقاء وخضراء وملونة بكل الألوان التي يعرفها، ورأى مجرات كاملة تهبط نحوه من الأعلى ثم تجاوره ثم تبتعد، ورأى المجرات تتضاءل وتتحول إلى كتل نور صغيرة تبتعد عنه بسرعة فائقة، ورآها تتجمع بعيدًا عنه في تكوينات ضخمة ناعمة ملونة، ورأى التكوينات تبتعد أيضًا عنه وتغيب، وأخيرًا رأى المجرة الحمراء في الأعلى، أعلى من أعلى شيء وأبعد من أبعد شيء، وأيقن أن ما وراءها مكان لم يصله شيء من قبله، وارتفع حتى جاور المجرة الحمراء ورآها تلمع أمام عينيه ونجومها ترتجف،

كلها حمراء ترتجف، ورآها تغيب عنه إلى الأسفل، وأخيرًا وصل إلى المكان فوقها.

تجوَّل قليلًا، خطوات صغيرة فضولية في كل الاتجاهات، وانتظر أي شيء ليحدث لكن انتظاره طال، وأيقن أن خطوة واحدة تنقصه لكنه لا يعلم ما هي، ودار بعينيه في المكان حوله مرات عديدة، وفي طرف المكان رأى أباه بعيدًا لكنه كان واضحًا تمامًا، واقترب منه وهو متأكد أن أباه الخطوة الناقصة، ورآه يتشنج ووجهه غاضب جدًا، يرفع ذراعيه أمامه وهو يضم قبضتيه بقوة وفي عينيه غضب هائل وأسنانه لامعة ووجهه مجعد، ورأى الشوارع والمباني والناس حوله وحول أبيه، شوارع مدينة لا يعلمها منارة بأضواء الأعمدة في الليل، وأبوه ينفعل ويغضب ويتشنج لمرأى الناس والمباني وكل شيء، وتحرك نحو أقرب إنسان إليه وقد رفع ذراعيه أمام وجهه وقبضتاه مضمومتان بعنف، واصطدم به فحوَّله إلى قطع صغيرة من الخراء تطايرت حوله منفجرة في كل اتجاه، ثم جرى نحو التالي واصطدم به فحوله إلى قطع خراء متطايرة، ثم اتجه نحو الثالث والرابع، ثم استهدف السيارات المارة في الطريق والمتوقفة فحولها إلى قطع خراء ضخمة، ثم جرى بسرعة نحو مبنى عالٍ وما إن لمسه بقبضتيه المضمومتين حتى تغير لون المدينة كلها من حوله بسبب الخراء المتطاير، ولم يبدُ أبوه سعيدًا لكن غضبه ازداد وازداد بلا

نهاية، وبعد مدة من الزمن رأى أباه يدور بعينيه في المدينة فلم يجد سوى أكوام الخراء، وتسلق أبوه كومة عالية حتى وصل إلى قمتها، ثم قفز منها إلى كومة ثانية أعلى وتسلقها إلى قمتها، ومنها إلى كومة ثالثة فرابعة فخامسة، وظل يرتفع حتى وصل إلى أعلى قمة على الإطلاق، وحينها فقط رآه وقد هدأ وأخفض ذراعيه إلى جنبيه وأرخى قبضتيه ولانت ملامحه، واستدار ليواجه كل ما هو أسفل منه وقعد بهدوء على القمة. في تلك اللحظة كان إسماعيل هو مَن على القمة ذاهلًا، في الأسفل لم يجد بشرًا أو شوارع أو مباني أو كومات خراء، بل وجد نفسه في المكان الذي فوق المجرة الحمراء، وتحت قدميه، بعيدًا قليلًا عن قدميه، كأنه ورقة صغيرة ملقاة على الأرض، مد يده والتقطه فملأ راحته بالكاد؛ مربَّعٌ أصفر، وقرب إحدى زواياه مثلث أصفر صغير يكاد ينفصل عنه، وخطّ أزرق يمر عبر المربع منبعثًا من أحد أضلاعه، ثم يتحول إلى مثلث أخضر قرب الضلع المقابل.

لا شيء هناك فوق المجرة الحمراء إلا إسماعيل وما يمسك به.

أيقن إسماعيل في تلك اللحظة أنه يمسك مصر، وأنه إله مصر.

11

يستعيد إسماعيل ذكريات إصدار كتبه القديمة، يصدر الكتاب فيُكتب عنه مقالان، وربما يقوم بعمل حوار مع أحد الصحفيين المتخصصين في الثقافة، ثم يدخل الكتاب في ماكينة القراء، يُقرأ ويُفهم ويُهضم على مهل، ثم تمر سنوات عديدة قبل أن يطلب منه صحفي أن يجري حوارًا بخصوص الكتاب. لكن الأمر كله اختلف الآن.

بدأ الاهتمام البالغ بعد نشر الكتاب بأسابيع قليلة، بدأ بحوار مع أحد الصحفيين كل عدة أيام، ثم حوار إذاعي أو تلفزيوني قصير كل عدة أيام، ثم اتصل به صحفيون من دول عربية عديدة، وتلاهم صحفيون أوروبيون وأمريكيون، كل هذا الزخم أزعجه، لكن مع أول لقاء تلفزيوني طويل تخلى عن انزعاجه وتوتره، وأصبح يستمتع باللعبة المسلية.

في الاستوديو الضخم ذي الديكورات اللامعة، قدمته المذيعة للجمهور الحاضر في الاستوديو أمامها، وللجمهور المتابع من أمام الشاشات في البيوت، واجهت الكاميرا وسردت لمحة سريعة ملخصة سيرته الماضية، واستفاضت في الكلام عن كتابه الذي نُشر مؤخرًا، تصاعدت ضحكات خافتة وتأوهات تعجب من الجمهور عندما قالت إن الدكتور كتب كتابه في المستشفى، عندما كان يظن نفسه

إله مصر، صمتت قليلًا حتى تتيح للجمهور المزيد من التأوهات، ثم تابعت كلامها عن الكتاب. أخيرًا التفتت إليه مرحبة مبتسمة، بينما كان جالسًا إلى جانبها جلسة الشخص القلق المقبل على تحدٍّ كبير، صمتت ثواني حتى تنقل الكاميرا صورة الرجل الكهل المتواضع إلى جانبها، أخيرًا سألته: «إزيك يا خربتو؟»، تبع السؤال ضحكة واحدة من أحد الحاضرين، وعلى غير المتوقع رد إسماعيل بهدوء وتواضع جم: «الحمد لي».

في اليوم التالي نشرت إحدى الصحف صورة قديمة له، عندما كان شعره طويلًا وعيناه براقتين، كُتب على الصورة ببنط كبير: «الحمد لي»، وتحتها ببنط أصغر: «إله مصر خرج من الكهف».

في جميع اللقاءات التلفزيونية التالية، سيكون السؤال عن الحال: «إزيك يا خربتو؟»، والإجابة عنه: «الحمد لي»، أول ما يُقال، ثم سيضحك الجمهور في كل مرة. وفي نشرة الأخبار سيبدأ المذيع الصارم كلامه بـ«الحمد لي»، ثم سيبدأ قراءة الأخبار بوقاره المعتاد بينما يبدو على وجهه أنه يكتم الضحك بصعوبة، سيتردد السؤال والإجابة كثيرًا في البرامج الكوميدية، سيترددان في الشارع والمكاتب الحكومية، وسينتشران انتشارًا هائلًا في المدارس بين الطلبة، وبين المدرسين أيضًا.

الشهرة الأكبر أتت عندما طلب منه يوسف إدريس

تسجيل الكتاب كله بصوته، أخبره أن هذا هو المعتاد الآن، يُنشر الكتاب ورقيًا، ثم يسجله الكاتب صوتيًا ويُباع للذين لا يصبرون على القراءة لكن يصبرون على السماع، قال له إن بعض الكتب تُباع نسختها الصوتية أكثر من نسختها الورقية، وأن الناس الآن قد يحبون النسخة الصوتية من أحد الكتب أكثر من الورقية، وضحك قبل أن يقول له إن الوضع الحالي يشبه كثيرًا المقارنة بين الكتب والأفلام المقتبسة عنها زمان، وافق إسماعيل بعد تردد بسيط، وبعدما علم أن معظم الكتّاب يسجلون كتبهم بأنفسهم، وتُترك لهم الحرية لينقلوا أحاسيسهم كما يريدون، طلب منه يوسف أن يقرأ الكتاب بالطريقة التي يفضلها، بأداء تراجيدي أو كوميدي أو حتى بأداء محايد.

في الاستوديو وضع مخرج الصوت كاميرا فيديو أمام إسماعيل لتسجيل تعابير وجهه أثناء القراءة، قال له إن الفيديو لن يُعرَض، وربما تأخذ شركة الدعاية ثواني قليلة منه لتستخدمها للترويج، لكن ما سيُعرض ويُباع التسجيل الصوتي فقط. بدأ القراءة برتابة وهدوء، قرأ المقدمة كلها بنبرة واحدة ثابتة خفيضة، ومع فصل خيزو الأول دبَّ الانفعال في صوته بعد الفقرات الأولى، واتسعت عيناه وهي تصف مغامرات خيزو الأول قبل أن يعلن نفسه إلهًا، وعمت الرهبة وجهه عندما قال خيزو كلمتيه الشهيرتين، ثم عاد إلى الجدية والصرامة وهو يقرأ باقي الفصل. اتسم

صوته بالوداعة والألفة عندما قرأ فصل خايرو الفلاح، وحلت على وجهه ابتسامة رائقة عندما قرأ الفقرات التي تحكي معجزات خايرو العديدة. ثم تحوَّل إلى الدقة اللغوية الحاسمة في فصل خـخُّو الشاعر، قرأ بتأنٍّ بالغ، وحرَّك أواخر الكلمات كلها، وتوقف وقفة قصيرة بعد كل فاصلة، ووقفة طويلة بعد كل نقطة، ونصب كل مبتدأ في الفصل، وقرأ النثر بطريقة نثرية، وقرأ الشعر بطريقة شعرية، وتجاوب مهندس الصوت فأضاف صدى لصوته مع كل قصيدة من قصائد خـخُّو، وأنهى إسماعيل الفصل كما يُنهي جدٌّ حكايةً يحكيها لحفيده بصوت عميق يحمل كل حكمة الآلهة. ثم فكَّر أن مهمة الممثل شاقة حقًّا، واستعاد أداء وإخلاص عظام الممثلين السينمائيين الغربيين - لأنه رجل غربي الهوى - مثل بيتر أوتول ولورانس أوليفييه وكاري جرانت وجريجوري بيك وبول نيومان، فقد كان بحاجة إلى كل تلك الأرواح لتساعده على إضافة الغضب والاحتقار والانفعال والحدة والكراهية إلى صوته أثناء قراءة فصل مايتسماش الكافر، وأيضًا لإضفاء العظمة والبهاء والشجاعة والقوة والحكمة والطيبة وهو يقرأ فصل خللو الأعظم.

كما قرر أن يقرأ فصله - خربتو المطلق - بحياد حقيقي، بنبرة آلية، بغير أي تشديد على أي مقاطع أو حروف، سكّن أواخر معظم الكلمات، أنهى جميع الجمل ببرود، كان هادئًا

ليثبت للجميع أنه لا يدين نفسه ولا يعظّمها، بل فقط يقرأ ما كتب.

وبدلًا من أن يُنشَرَ التسجيل الصوتي المتميز، نُشر الفيديو المذهل، الدكتور إسماعيل نوح يقف أمام ميكروفون كبير، يمسك أوراقًا يقرأ منها، وذراعاه تتحركان وكل مشاعره ترتسم على وجهه، لا يظهر أحد في الفيديو سواه، وبدلًا من أن يُسمع الكتاب عبر سماعات الأذن أو عبر سماعات السيارة أو يُشغل على سماعات صغيرة على الشاطئ، أصبح من المعتاد أن يشاهد الواحد فيديو «تاريخ آلهة مصر» على كل الشاشات، الموبايل والتلفزيون والسينما والشاشات العملاقة في الشوارع، وخلال أسابيع من نشره صار إسماعيل وجهًا معروفًا للجميع.

ومع الشهرة قلَّ قلق إسماعيل بخصوص صورته في أذهان الناس، الآن لا أحد يهتم بما فعل سابقًا، كل كتبه ومقالاته نسيها الجميع أو تناسوها، كما زال عنه خوفه من الوصم بالجنون لأنه بقي في المستشفى كل هذه المدة.

•••

يستيقظ إسماعيل وهو يلهث، مكتئبًا وغاضبًا وخائفًا لأقصى درجة، يتحرك ببطء، يجلس على طرف السرير واضعًا قدميه على الأرض، والحلم لا يزال يضغط على صدره.

يجلس إلى طاولة مستديرة صغيرة، ومعه اثنان آخران لا

يميّزهما، لكنه يعلم أنهم جميعًا يراجعون ما يُسمى «كشف حالة عفن»، رزمة أوراق صغيرة على يمينه، يمسك الورقة الأولى ويلاحظ أنها كرتونية أسمك قليلًا من الورق العادي، على طرفها ترويسة مطبوعة تشير إلى تبعية الورقة لهيئة مكافحة عفن البطاطس، وتحتها اسم العفن مكتوب بخط اليد، وصورته ورقمه ومكان تواجده، ورقم خاص بأرشيف هيئة مكافحة عفن البطاطس، ثم جدول مطبوع يحوي كتابات بخطوط متفرقة وألوان عديدة، فقرات قصيرة جدًّا تصف العفن بدقة، قرأ الفقرات كلها وكتب في آخرها «أرى المحاصرة» ووقَّع، ثم مرر الورقة إلى الجالس إلى يمينه. أخذ ورقة ثانية من الرزمة وقرأ ما فيها، نوع آخر من العفن بصفات مختلفة، فكر قليلًا ثم كتب «أرى التجاهل» ووقَّع ومررها إلى زميله، أخذ ورقة ثالثة وكتب «أرى التجاهل»، كان لطيفًا في حلمه، فأوصى بمحاصرة عفنين فقط، وبتجاهل الباقي، وعندما وصل إلى كشف حالة العفن اللامع 889977، تذكر خواصه المميزة المختلفة تمامًا عن أي عفن آخر يعرفه، تذكر دراسته المتعمقة لهذا العفن بالذات، إحدى صفاته الأهم ندرته وتقريبًا استحالة وجود مثيل له، على الأقل في زمانه ذلك، أخيرًا أمسك القلم وكتب: «أرى التصفية»، مرر الورقة إلى زميله مطرق الرأس، بعد لحظة رفع زميله الدكتور يعقوب رأسه ونظر إليه نظرة فهم منها أنه يؤيد قراره بتصفية العفن اللامع

889977، ثم مرر الورقة إلى زميلهما الثالث، قرأها بسرعة ورفع رأسه ونظر في وجه إسماعيل، فوجئ بأنه العفن اللامع 889977 نفسه يمسك ورقته وينظر إليه، كيان ضخم بلا معالم محددة، كأنه بقعة حبر كبيرة تقعد على الكرسي، سوداء ومليئة بنقاط لامعة بيضاء وبنفسجية وزرقاء، تخفت وتلمع وتتحرك على سطح العفن، وتغوص داخله فيخفت لمعانها وتعود للسطح فتلمع أكثر، لم يفهم قَطُّ إسماعيل هذا العفن، يعجب كثيرًا بسيولته والنقاط اللامعة المتحركة في جسده، وبعد لحظات وجد العفن يبتسم له، لم ينظر إلى الدكتور يعقوب وكأنه غير موجود، وطالت نظرته وابتسامته وحل الهدوء والراحة على إسماعيل لأن العفن اللامع يبتسم له، ثم تذكر إسماعيل أنه أوصى بتصفيته، وأن العفن اللامع يعرف ذلك تمامًا الآن، حل الفزع عليه عندما رأى أن ابتسامة العفن لا تزال على وجهه، ولم يفهم قَطُّ إن كان العفن اللامع يلومه على ما فعل أم أنه لا يهتم، فكر إسماعيل في التحدث إليه ومحاولة تبرير ما فعل، لكنه وجد أن كل ما فكر فيه لا معنى له، لم ينطق كلمة واحدة.

يمر اليوم ببطء كعادة هذه الأيام، يقرأ الصحف ويقرأ رواية، ويستمع إلى مريم ومنال يخبرانه بتفاصيل كثيرة عن أشياء عديدة لكنه لا يهتم ولا يرد عليهما إلا بجمل مجاملة لا معنى واضح لها، فقط كي يظهر مؤدبًا، يريد أن

يقول لكل منهما إنه لا يريد أن يسمع أو ينطق، لكنه ضيف في بيت مريم ولا يمكن أن يكون وقحًا.

يهرب منهما إلى غرفة المكتب ويتمدد على الكنبة، نظرة العفن اللامع ترعبه، فكر أنه لم يوصِ بتصفيته حتمًا، لكن الأحلام لا معنى لها إلا لكونها فضفضة اللاوعي، نعم، هو يعرف العفن اللامع جيدًا، وبشكل أو بآخر، قبل أن يظن أنه إله مصر، كان يعتبر أن العفن اللامع خانه، وبعد هذا الحلم يبدو أن الأمور انقلبت الآن، أصبح هو من خان العفن اللامع.

في المساء يذهب إلى استوديو تابع لإحدى القنوات التلفزيونية لتصوير حوار على الهواء، أخبره معد البرنامج أنه سيكون الضيف الأساسي، وهناك ضيف آخر سيظهر بداية من الثلث الثاني من البرنامج. يفكر إسماعيل أن الحوار سيكون معتادًا والأسئلة ستكون مكررة، كما اعتاد مع كل الحوارات السابقة، وربما يكون معد البرنامج موهوبًا فيعيد صياغة الأسئلة القديمة المكررة. إسماعيل أصبح ضيفًا محترفًا، يجيب عن سؤال المضيف خلال خمس عشرة ثانية، ثم يتكلم عمَّا يريد لدقيقتين أو ثلاث، والمعِدُّون والمذيعون فهموا أنه أصبح كذلك، وأدركوا أن التعامل معه أصبح سهلًا فطلبوه مرات كثيرة منذ نُشر الكتاب، كانت اللقاءات كلها متشابهة لدرجة كبيرة؛ يسأله المذيع خمسة أو ستة أسئلة ثم يطلب منه أن يقرأ فصلًا

من الكتاب، ثم أسئلة أخرى، ثم يظهر ضيف أو ضيفة أخرى ليستكمل المذيع الحوار مع الاثنين.

اليوم، بعد عشرين ظهورًا تلفزيونيًا، لم يعد الأمر يشغله قطُّ، يقوم بدوره بدقة، يستمتع بالتمثيل ساعة أو أكثر أمام الحاضرين في الاستوديو، وأمام الآخرين في البيوت، ثم يعود إلى بيته وهو راضٍ عمًا يفعل.

كل شيء داخل الاستوديو يبدو له حقيقيًا أكثر مما هو خارجه، يبدو أن الضيوف حقيقيون، والديكور حقيقي، والمذيعة حقيقية، يدور بعينيه حوله ويشم رائحة سيجارة مشتعلة، ورائحة طعام مقلي، ورائحة عطر نسائي قوي، ثم يرافقه أحدهم إلى غرفة يجد فيها المذيعة، ترحّب به وتحدثه عن اللقاء بابتسامة واسعة ونظرات توحي بأنها تعرف كل شيء، يحزن كثيرًا عندما يلاحظ أن المكياج فشل في تغطية ندبة كبيرة على جانب وجهها الأيسر قرب فكها، يفكّر أن هذه هي عقدة المذيعة الدائمة، يفكّر أنها قد تضحي بكل شيء في حياتها حتى تتخلص من هذه الندبة، يفكّر أنها نسيت سبب الإصابة لكنها لا تستطيع تجاوزها.

يتحركان معًا، يصلان إلى المسرح أمام الجمهور، كل شيء يلمع، أحدهم يعلق ميكروفونًا في ياقة قميصه، الإضاءة تشتد على وجهه وتخفت على وجوه الجالسين أمامه، يبدأ التصوير فترحب المذيعة به وتلقي مقدمة قصيرة عنه وعن الكتاب، تسأله أول سؤال، وتبرز إجابة

حادة في رأسه ملحّة قوية مفزعة، لكنه يجيب عن سؤالها إجابة نمطية وديعة.

ثم يسير اللقاء كما توقع، أسئلة قليلة، يقرأ الفصل الخاص به، تعلن المذيعة عن استراحة قصيرة، ثم تعود للجمهور وترحب بالضيف الجديد.

يجلس سليمان داود عن يمين المذيعة، كالمعتاد. ترحب به وتخبر الحاضرين أن الأستاذ غنيٌّ عن التعريف، فهو أحد أهم شعراء مصر الآن، هو واحد من شعراء جيل التسعينيات الذي رأى كل شيء واختبر كل شيء وكتب كل شيء. تعجب إسماعيل قليلًا، مع أنه يعرف شعراء كثيرين من هذا الجيل لكن هذا بالذات لا يتذكره. تابعت المذيعة الحديث القصير عن سليمان، وأنهت حديثها بذكر سبب حضوره اليوم ضيفًا مع الدكتور إسماعيل نوح، تقول إن الشاعر الكبير سليمان داود هو نفسه إله مصر خـخُو الشاعر، الذي كتب عنه إسماعيل نوح في كتابه المذكور.

يتجمّد إسماعيل، لا يفهم تمامًا ما قصدته المذيعة، ويدرك فجأة أنه ربما كتب عن أشخاص حقيقيين، وأن كل ما كتب لم يكن ابن خياله، يحاول تخيُّل ما سيحدث خلال الدقائق المقبلة لكن من شدة غرابة المفاجأة لا يستطيع التنبؤ بأي شيء.

تسأل المذيعة سليمان عن حالته وملابسات دخوله المستشفى، بهدوء وصوت خفيض يبدأ الكلام:

«شعرت بأني قادر على التحكم في كلام الآخرين، أستطيع أن أضع في عقولهم الشعر، كنت أفعل ذلك يوميًا، أوحي إلى المحيطين بي بأفكار وأبيات وجمل شعرية، ثم أسمعهم يقولونها فأنتشي وأسعد، في أحد الأيام أزعجني صوت بائع متجول ينادي على بضاعته، فأوحيت إليه بسطر من قصيدة ليستخدمه بدلًا من كلامه المعتاد، لكنه لم يقله، غضبت جدًا، ونزلت من بيتي وأسرعت خلفه، أوحي إليه بيت الشعر مرارًا، ثم أوقفته وأوحيت البيت نفسه إليه وأنا أنظر في عينيه، والرجل بادلني نظرة حيرانة، ثم غضبت جدًا وضربته على وجهه، فرد الضربة بقوة حتى إني سقطت على الأرض ولم أتمكن من القيام إلا بمساعدة بعض من كان يمر في الشارع، لم يحاول أحد إيقافه أو حتى الحديث معه، تركوه يمضي، في اليوم التالي عرفت أن كل جيراني في الشارع يعتبرونني مجنونًا منذ مدة طويلة، لهذا تركوه، ولهذا لم يلمني أحد على ما فعلت».

سألته المذيعة عن دخوله المستشفى، قال:

«قررت أن أزور طبيبًا نفسيًا، بعد جلستين طويلتين قال الجملة المشهورة، إن أول العلاج الاعتراف بالمرض، قال إنه ينصحني بالبقاء في المستشفى مدة قصيرة، سأكون تحت أنظار الأطباء، وبالتأكيد لن أتسبب في أي أذى لمن حولي، أو حتى أذى لنفسي، وقَّعت على أوراق كثيرة ثم

دخلت المستشفى، بقيت في حجرة منفردة أيامًا قليلة، ثم نقلوني إلى عنبر الآلهة».

تزداد سرعة نبضات إسماعيل، يتابع سليمان:

«في العنبر وجدت أربعة أشخاص يؤمنون بأنهم آلهة، لسبب ما فهم الأطباء أنني أظن نفسي إلهًا، لكني لم أرَ نفسي كذلك قبل أن أدخل العنبر، فقط كنت أظن أني أستطيع وضع الشعر في أفواه الآخرين، بعدما عشت مع الآلهة عدة أيام صرت أرى نفسي كذلك، إلهًا مثلهم تمامًا، ربما كنا نغذي أوهام بعضنا بعضًا، ربما كنا نزيد درجة الجنون بشكل ما، لا أفهم ما حدث لي ولهم حتى الآن».

تسأله المذيعة عن الآلهة، ما أسماؤهم وصفاتهم، يحل صمت مفزع على الاستوديو، ويفكر إسماعيل أن الجمهور الجالس أمامه لا يمثّل الآن، بل يشعر برهبة كما يشعر هو بالضبط.

«لن أعلن أي أسماء حفاظًا على سرية هوياتهم، كلهم ماتوا ولم يبقَ إلا أنا وإسماعيل، الأول كان طيارًا مدنيًا، شخص عادي تمامًا، لكن نوبة جنون أصابته وهبط بطيارته في الصحراء بين مدينتي السويس والقاهرة، أنزل الركاب جميعًا ثم حاول الإقلاع بالطائرة مرة أخرى لكنه فشل، حُوكم وادعى محاميه أنه جُنَّ، وعندما عُرض على لجنة من الأطباء النفسيين وافقت على إيداعه المستشفى، ربما يتعرف بعض المستمعين عليه فقضيته كانت مشهورة جدًا

حين الإعلان عنها. الطيار اعتاد أن يبدأ كل يوم بأن يقول فور أن يستيقظ: «التاريخ انتهى»، ثم يضرب كفيه في فرقعة هائلة ويقول: «الآن صفر»، ثم يفرد ذراعيه ويجري في العنبر وكأنه يطير، لا يهدأ إلا عندما يعطيه الممرض الحقنة المهدئة، حينها فقط يعجز عن الحركة تمامًا ويستلقي على جانبه في سريره، لا يتحرك لساعات، ثم يقوم وهو يتخبط ليطير مجددًا، أراد أن يقنعنا جميعًا أنه إله لأنه يطير، وعندما لم يستجب له أحد منا حاول الطيران عبر نافذة العنبر، اصطدم بقضبان الحديد وأصيب إصابات شديدة، هدأ كثيرًا بعد ذلك، أتذكره جيدًا وهو قاعد على الأرض وأنفه ينزف بعد اصطدامه بقضبان الحديد، رأيت نظرة ذهول في عينيه، ليس ذهول المجنون، بل ذهول من أفاق من جنونه للحظات».

تسأله المذيعة عن حالته، تسأله إن كان يتذكر كل ما حدث في العنبر، يقول:

«كنت أدخل في الجنون يومًا، وأخرج عشرة أيام، أتذكر أيامي خارجه جيدًا، لكني لا أتذكر أيامي داخله بشكل كامل، أذكر أني كنت أوحي بالشعر والأبيات والقصائد إلى كل من حولي، إلى أفراد عائلتي في البيت، إلى السائرين في الشارع، إلى القاعدين في المواصلات العامة، إلى زملائي في العمل، إلى الحمام الواقف في الشرفة، إلى الفواكه المرصوصة عند الفكهاني، لكن القلة فقط كانوا

يستجيبون لي».

يتدخل إسماعيل متلهفًا، يسأله عن الشعر وكيف كان يوحي به لمن حوله، يتردد سليمان قليلًا، ثم يقول بخجل واضح:

«لا أعرف بالضبط، أحيانًا كنت أردد في رأسي أبيات الشعر، وآمرها بأن تذهب إلى عقل مَنْ أمامي، إلى فمه لينطقها، أحيانًا كنت أغمض عينيَّ وآمرها أن تذهب إلى شخص غائب عني أتخيله من دون أن أراه، وأحيانًا كنت أذهب إلى أي شخص وأحدق في وجهه وأوحي له بالشعر كي يردده بعدي، هناك طرق أخرى بالتأكيد لكني لا أذكرها، كنت أفعل ذلك قبل أن أدرك أني مريض، وفعلته أيضًا بينما كنت في عنبر الآلهة».

تسأله المذيعة عن باقي الآلهة، يعود مسترسلًا:

«الثاني كان مهندسًا زراعيًا، لا أعرف سبب إيداعه المستشفى، كان يقضي معظم وقته ينظر عبر النافذة إلى الحديقة، وفي وقت التريض كان يتوقف عند كل شجرة ويمد ذراعيه إلى أعلى حتى يحتوي الأوراق والأغصان بين كفيه، أو ينحني على الزهور يداعبها بأصابعه، كان الوقت يمضي وهو يلمس كل ما هو أخضر بشرَهٍ بالغ، وقبل أن نعود إلى العنبر كان يقطع الكثير من الأوراق الخضراء ويضعها في جيوبه، يبكي بشدة وهو يفعل ذلك، ثم يهدأ تدريجيًا ويقضي باقي ساعات اليوم وهو يرصُّ الأوراق

بنظام ودقة على سريره، ثم يعيد جمعها ويضعها على الأرض قرب سريره، وعندما تبدأ الأوراق في الجفاف بعد يوم أو يومين يتوتر ويغضب، ويدور علينا واحدًا تلو الآخر، يأمرنا بأن نتحول إلى أشجار ونباتات وفواكه، ذات مرة قال لي بغضب بالغ: «كن تفاحة»، كنت خائفًا جدًّا ومستعدًّا لأكون تفاحة، لكني لم أعرف كيف أفعل هذا».

تسأله إن كان يرى تناقضًا بين حب الرجل للأشجار وجنونه، ينظر إليها بقرف ويقول:

«لا».

تعيد سيطرتها عليه بسرعة، وتسأله عن باقي الآلهة، يقول:

«لسبب ما قرر الأطباء أن ينقلونا جميعًا إلى عنبر آخر أكبر، يحوي خمسة وعشرين سريرًا، اندمج جميع الآلهة مع باقي الموجودين، في ذلك الوقت كنت أتحسن بسرعة كبيرة، لم أعد أوحي بالشعر إلى الآخرين، وأدركت بعد ساعات من دخولي المكان الجديد أننا نُقلنا إلى عنبر الأنبياء، وهكذا صرنا خمسة آلهة وعشرين نبيًا، وخلال عدة أسابيع اشتعل صراع مرير بين الآلهة من ناحية، وبين الأنبياء من ناحية أخرى، كان بعض الأنبياء يستجيب بسهولة لما يطلبه الآلهة منهم، وبعضهم يقاوم بشدة، ثم يغير بعض الأنبياء إيمانهم، مثلًا يؤمنون بالطيار بدلًا من المهندس الزراعي، أو يؤمنون بالمؤرخ بدلًا من الطيار، أو

يؤمن أحدهم بالجميع بمن فيهم أنا، مع أني لم أكلم أحدًا على الإطلاق، لكن باقي الآلهة أقنعوا الأنبياء أني إله مثلهم، وفي النهاية استطاع إله واحد أن يسود».

تسأله إن كان هذا الإله هو خللو الذي ورد في كتاب دكتور إسماعيل، ينظر سليمان إليه للحظة، ثم يعود إلى المذيعة ويقول:

«نعم، خللو كان رجلًا قاهريًا من أصل صعيدي، لم أعرف اسمه قَطُّ، كان جميع الأطباء والممرضين ينادونه «خُلَل»، حتى إني ظننت أن هذا هو اسمه الحقيقي، لم أرَه هادئًا قَطُّ، لم يؤثر أي دواء عليه أكثر من نصف ساعة، يقوم بعدها ليبدأ إقناع الجميع بألوهيته، الكثيرون اقتنعوا بسرعة بكلامه، وعندما يرفض أحد الموجودين الاستماع إليه، أو يستمع إليه ويرفض الإيمان به، يبدأ بإقناع المؤمنين به بأن ذلك الشخص يمثل خطرًا على الجميع، وأن عليهم أن يقنعوه بأي وسيلة، فيكلمه المؤمنون وقد يتطور الأمر للشتيمة والتهديد والضرب. خللو كان عنيفًا لكنه لم يلمس أحدًا، بل كان يدفع المؤمنين به لممارسة العنف مع القلة الباقية، في النهاية استطاع إخضاع الجميع، الآلهة والأنبياء معًا، الغريب أنه لم يطلب أي شيء من الموجودين في العنبر، لم يدَّعِ أنه يفعل أي شيء خارق للعادة، كأن يطير مثلًا، كل ما كان يطلبه أن يؤمن الجميع به ولا شيء غير ذلك، عم الهدوء العنبر بعد سيطرته على

الجميع، كنت قد استسلمت له منذ اليوم الأول، قلت له إني أؤمن به فعلًا، كانت أيام سيادته علينا هادئة بلا ضجيج أو شجار أو انفعالات، الكل يستيقظ مبكرًا، الكل ينام مبكرًا، الكل يتناول دواءه، كان طبيبي سعيدًا باستقرار حالتي، وبالطبع أخفى جميعنا إيماننا بخللو عن الأطباء».

تسأله المذيعة عن سبب بقائه في المستشفى بعد أن استقرت حالته، يصل إحساسه بسخافتها إلى أقصاه، يتجاهلها تمامًا، يتابع حكايته:

«كانت تسيطر عليه نوبات ارتعاش تستمر ساعات عديدة، يرتعش جسده كله، ويرتعش صوته وهو يخاطب الأنبياء ليؤكد لهم ألوهيته حتى بعد إيمانهم به، كان يعيد كل يوم الأفكار ذاتها بصياغات عديدة، وبعد مدة أدركت أن أفكاره التي يكررها أصبحت أقوى من أن يرفضها أحد، كان يقول للجميع كل يوم إنه إلههم، وأنه يفعل كل ما يفعل من أجلهم، وأن عليهم أن يتحملوا المعاناة، وأن مستقبلهم سيكون رائعًا، وأن هذا المستقبل الرائع هو نتيجة مباشرة لمعاناتهم، ولذلك عليهم أن يصبروا، وأنهم إن لم يصبروا فستحل عليهم كارثة كبرى، كل يوم يكرر هذه الأفكار عدة مرات. أحيانًا كانت كفه ترتعش عندما يضعها على أكتافهم، كانوا يستجيبون له فورًا أثناء نوبات ارتعاشه، كأن كهرباء خفيفة تصعقهم، ويعلنون بوضوح إيمانهم به إلهًا حقيقيًا، واستسلامهم التام له، وعندما

نخرج للتريض في الحديقة ينشطون في الدعوة للإيمان به وسط باقي نزلاء المستشفى. ويبدو أن الأطباء لم يتمكنوا من علاج الارتعاش الذي يصيبه فأخذت حالته تتدهور وازدادت مدة كل نوبة حتى صار ينام وهو يرتعش، يستسلم تمامًا للنوم وجسده يهتز كأنه يتكهرب، اعتاد المؤمنون به أن يجلسوا حول سريره يحدقون في جسده المرتعش بنظرة لم أفهمها قطُّ، كنت أنعزل إلى أقصى طرف في العنبر وأشاهدهم متسمِّرين حوله، ثلاثة وعشرين شخصًا ساكنين صامتين حول سريره. في أحد الأيام كنت واقفًا وحيدًا في الركن البعيد، لم أتمكن من الاستلقاء أو القعود، وقفت متخشبًا، لا أستطيع أن أبعد عينيَّ عن التجمع الكثيف حول سريره، أكاد أفقد الوعي من شدة الفزع، بينما هو نائم في سريره يرتعش، كل ما يصل إلى أذني الصرير الناتج عن احتكاك سريره ببلاط الأرضية، لا زلت أسمعه حتى اليوم، حادًا جدًّا وسريعًا ومستمرًا لا يتوقف أبدًا».

يصمت لحظات، يُسمع نفس إسماعيل الثقيل من خلال الميكروفون، تتلعثم المذيعة عندما تحاول أن تبدأ الكلام، تنطق كلمتين بصوت متحشرج ثم تسعل، يكمل سليمان من دون أن ينتبه لها:

«في صباح اليوم التالي اكتشف أحد الممرضين أن الرجل مات أثناء نومه، نُقل جثمانه بهدوء، وعندما وقف

إسماعيل على سرير خللو وأعلن للأنبياء أنه الإله الجديد لم أتمالك نفسي، فقدت كل قدرتي على التحمل، ويبدو أني في تلك الأثناء لم أكن تحت تأثير المهدئ بشكل كامل، هذه دقائق قليلة يعرفها كل من دخل مستشفى أمراض نفسية، مدة قصيرة يكون تركيز الدواء في الدم قليلًا جدًا، حينها تحركت إلى باب العنبر وأخذت أدق عليه بكل قوة، عندما أتى الممرض نظر إليّ متعجبًا، أخبرته بكل ما أمتلك من هدوء أنني دخلت المستشفى بإرادتي الحرة، وأني كنت أدرك تمامًا أني مريض، والآن أنا أدرك تمامًا أن وجودي هنا يؤثر عليّ سلبًا، وأني يجب أن أقابل أي طبيب فورًا. في اليوم نفسه نُقلت إلى غرفة أخرى مع مريض واحد، وبعد عدة جلسات مع أطباء كثيرين نُقلت إلى مستشفى آخر أهدأ بكثير، وخلال شهور غادرته عائدًا إلى البيت. بعد سنوات من مغادرة المستشفى عرفت بالمصادفة أن نقل الآلهة إلى عنبر الأنبياء كان قرار المدير، فعل ذلك في إطار تجربة طريقة مختلفة للعلاج، عن طريق مواجهة مجموعتين من المرضى ببعضهما مع تقليل الأدوية المهدئة المعطاة لكلتا المجموعتين بدرجة كبيرة، ويبدو أننا، الآلهة والأنبياء، كنا أكثر مجموعتين متقاربتين في المستشفى كلها».

تمر ثوانٍ على المذيعة الصامتة، ثم تسأله بصوت متحشرج عن باقي المرضى، ويجيب أنه لا يعرف أي شيء

عنهم، قال إنه لا يتذكر وجوههم جيدًا، لا يتذكرهم إلا في مواقف معينة، وهم يقولون كلمات وجملًا محددة، تسأله عن إسماعيل فيقول:

«لم أره بعد ذلك قَطُّ، إلا بعد نشر الكتاب، قرأته وأثَّر عليَّ بشدة، لكني لا أعرف مقدار العلاقة بين ما كتب إسماعيل وبين ما حدث فعلًا، وعندما أفكر أكثر أتأكد أني لا أعرف مقدار حقيقة ما أتذكره عن سنوات المرض، ربما كانت كل ذكرياتي أوهامًا».

يفكر إسماعيل أنه أفلت بمعجزة من لوم أو عقاب، ويستعيد ما حكاه سليمان عن الرجل الذي وُجد ميتًا في سريره، ويرتعب لأنه فكر للحظة أنه قتله بالفعل كما كتب في كتابه، يندم على كل ما حدث منذ مغادرته المستشفى، الكتابة والنشر والشهرة وهذا البرنامج بالذات. يتمنى أن ينتهي كل ما يحدث الآن لأنه لن يتحمل سنوات من الملاحقة وربما المحاكمة والسجن بتهمة قتل خللو، وربما يظهر للجميع أنه أوصى بتصفية العفن اللامع فيحاكم بتهمة قتل أخرى، يحاول أن يكون عقلانيًا فيتراجع عن مخاوفه المفرطة، ويفكر أنه يستطيع بسهولة أن يثبت أنه كان مجنونًا عندما قتل خللو، وعندما أوصى بتصفية العفن اللامع، كان فعلًا مجنونًا أو كان «داخل الجنون» كما قال سليمان.

تسأل المذيعة سليمان إن كان يذكر أيًا من القصائد التي

كان يوحي بها لباقي المجانين، تبتسم وهي تسأله، تغمز بعينها، ينظر سليمان إليها لحظات طويلة، وبوجه جامد وحركة بطيئة يقوم من كرسيه، وبخطوات بطيئة يمضي مبتعدًا عنهما حتى يختفي خلف الديكور، بإشارة يبدأ المتفرجون تصفيقًا خجولًا، ثم يتصاعد حتى يصل إلى الكثافة المعتادة.

تلتفت المذيعة إلى إسماعيل، تقول إنه لم يتحدث عن كل هؤلاء قط، عن الأنبياء الذين شاركوه العنبر، تقول إن كل من قرأ الكتاب ظن أن كل الأحداث خيالية، اختلقها هو أثناء مرضه ولم تحدث قط. يفكر إسماعيل أنها أغبى إنسانة سمعها في حياته، تسأله إن كان يذكر أي تفاصيل عن حياته في عنبر الآلهة، ثم تفكر أن الرجل الذي ترك الاستوديو للتو قد غلبها بشكل أو بآخر، غطى بريقه على بريقها، وتقرر أن تبرق كما تبرق عادة؛ تهز رأسها هزة تجمع بين دلال المراهقات وحكمة الخبيرات، ومعه يهتز شعرها المصفَّف، وتغمز بعينها مبتسمة ابتسامتها الشهيرة، تعيد جملتها بكثير من الاستعراض، تسأله إن كان يذكر أيًا من ذكرياته في عنبر الآلهة أو عنبر الأنبياء، ينظر بعيدًا في عمق الاستوديو خلف الجمهور، هناك في الظلام يلمع مصباح صغير أحمر خافت، يفكر إسماعيل في إجابة عن السؤال، ثم يستسلم للنقطة الحمراء.

12

سؤال واحد سيطر على إسماعيل طوال أربع سنوات؛ متى يعلن نفسه إلهًا على المصريين؟

خلال تلك المدة لم يتغير نظامه اليومي بل صار أكثر صرامة وأكثر دقة، قلّت ساعات نومه تدريجيًا، وخلال خمسة شهور انقطع عن النوم تمامًا، ببساطة لم يعد يشعر أنه بحاجة إليه، وإلى جانب التدريس في الجامعة ثلاثة أيام في الأسبوع، والوقت الذي يقضيه مع سارة وكريم، قسم بقية وقته إلى ثلاثة أقسام:

أولًا: كان حريصًا أشد الحرص على مكافحة العفن، بدأ بداية متواضعة فتابع يوميًا الباعة المتجولين في الشوارع، هؤلاء الذين يمشون إلى جانب عرباتهم البدائية، تجرها حمير أو أحصنة هزيلة، اعتاد أن يقف عند أحد تقاطعات الشوارع المحيطة بمنزله منتظرًا أحدهم، وعندما يمر من يبيع الخضار يوقفه ويتأمل البطاطس الموجودة معه بحثًا عن أي عفن قد تسلل إليها، إن وجد البطاطس سليمة يشكره ويمضي بعيدًا، إن وجد أي عفن يشتري مقدارًا من البطاطس المصابة بالعفن ويعود إلى المنزل به. وعندما وجد أنه يقيد نفسه بوقوفه وانتظاره الباعة، قرر أن يدور في شوارع المنيرة ليمر على العشرات ممن يبيعون البطاطس؛ محل صغير قذر به مشنات واسعة تحمل كل

واحدة نوعًا مختلفًا من الخضار أو الفاكهة، أو عربة يجرها حمار أو حصان لكنها ثابتة في موضع واحد لا يتغير، هذه تتكوم عليها أكوام الخضار المختلفة، أو ترتص في أقفاص من الجريد الخفيف، تلك الأماكن صارت مفضلة له، وساعده الزحام حول هؤلاء على فحص البطاطس بدقة وعمق أكبر.

مع مرور الوقت صار خبيرًا في العفن وأنواعه المختلفة، فلم يعد بحاجة إلى الإمساك بالبطاطساية وشمها والضغط على عفنها بإبهامه، بل صار يميز نوع العفن من مجرد النظر إليه، وربما احتاج أن يمسك بطاطساية تحمل نوعًا جديدًا من العفن ليسجل صفاته المميزة. ثم تكرر الأمر مع الباعة الثابتين في مناطق عديدة؛ المنيرة والسيدة ووسط البلد وباب اللوق والعتبة وجزء من شارع الجيش والغورية، وبعد مرور أسابيع قليلة أصبح يعرف أماكن جميع من يبيعون البطاطس في هذا الجزء الواسع من القاهرة، وأخيرًا بدأ في تسجيل أسماء وأماكن كل منهم في ملف إكسل، واعتاد أن يحدث الملف بمعلومات عن بائعين جدد، أو أي عفن قديم أو جديد يظهر في بطاطس أي بائع، ولأنه كان حريصًا على استمرار التحديث، حرص أن يمر على جميع الباعة كل أسبوع، لم يمنعه أي شيء من فعل كل ما سبق خلال أربع سنوات.

عندما كان يتعب أو يلاحظ نظرات التعجب من بعض

الباعة كان يقول لنفسه إن كل ما يفعله الآن مجهود مؤقت وضروري، وهو سعيد به لأنه يساهم في مكافحة عفن البطاطس، وإن كل هذا التعب سينتهي حتمًا عندما يعلن نفسه إلهًا على المصريين لأنه سيقضي على العفن كله بضربة واحدة.

ثانيًا: في البداية اهتم كثيرًا بكتابة المقالات، فاعتاد أن يكتب مقالين كل أسبوع، كان يفرغ نفسه ساعة كل يوم ليقرأ ما يحتاجه لكتابة المقالات، ويبدو أن مهمة المقالات لم تعجبه، فأرسل إلى الدكتور يعقوب يخبره أنه لن يستمر في كتابتها، قال له إنها مهمة أبسط من أن تُوكل إليه، لم يهتم برد فعل الدكتور يعقوب، وعندما رد عليه قائلًا إن المقالات فعلًا مهمة أبسط من أن توكل إليه اطمأن إلى أن الرجل يقدّره كثيرًا، وفكر أن الدكتور يعقوب، بعد كل ما تناقشا فيه، بعد كل التوافق الجذري بينهما، يصلح لأن يكون نبيًا له، مع أنه لم يكن متأكدًا - حتى تلك اللحظة - من حاجته إلى نبي، وبالتأكد فهو يصلح لأن يكون أول أتباعه وأول من يعلمه بألوهيته. اهتم إسماعيل كثيرًا بكل ما كتب، حتى قبل أن يكون إلهًا كان يحرص على أن تخرج كتبه بشكل كامل، لم يقبل قَطُّ بالقول السائد وقتها «الكمال لله وحده»، وكان يرى أن هذا القول يفتح بابًا للإهمال وبالتالي الأخطاء، لكنه كان يدرك أيضًا أن الأخطاء تحدث مهما حاول الإنسان منعها أو ملاحظتها ثم

تصحيحها، لذلك كان يقول لنفسه إن أخطاءه القليلة التي تظهر في كتبه هي نتيجة مباشرة لاندماجه في التفكير والتحليل، وبعد ألوهيته اطمأن إلى أنه لا يخطئ، بل خطأه وسهوه هما تصحيح لأخطاء شائعة بين الناس. كان إسماعيل قد نشر في عام 2009 كتابه «صناعة الدكتاتور»، وفيه يحكي ببراعة تاريخ ما حدث في مصر بداية من عام 1952 وحتى عام 1970، تاريخ جمال عبد الناصر بصفته طاغية عنيفًا لا يحترم أي شيء إلَّا سلطته، وهو الكتاب الذي كان سببًا رئيسيًا لشهرته واهتمام الجميع به، خاصة جيل الشباب في ذلك الوقت. ثم نشر في عام 2015 «فصام أمة»، وفيه يحلل العقل المصري تحليلًا تاريخيًا، بدأ عند عصر قدماء المصريين، حيث لم يكن ثمة فصل بين الحاكم والإله، الاثنان مفهوم واحد، ولذلك كان عقل المصري هادئًا مطيعًا متسقًا مع نفسه، ثم بدأ الفصام مبكرًا مع دخول المسيحية إلى مصر، وظهور شخص المسيح بكل ما حوله من حكايات أربكت العقل المصري الذي آمن به من دون أي شكوك، ومع دخول الإسلام إلى مصر ازداد الفصام واتخذ طابعًا شموليًا، فأصاب أجيالًا عديدة على امتداد الزمن، واستمر يتوغَّل في كل طبقات المجتمع المصري، وبدلًا من العقل المصري القديم الذي آمن بأن الحاكم هو الله، أصبح هناك إلهان، الله في السماء والحاكم على الأرض، وعلى العقل المصري أن يقدسهما

معًا. ثم أشار بوضوح إلى بداية انهيار الانفصام بعد ثورة يوليو 1952، حيث تولى ضباط علمانيون حكم البلد، فصلوا تدريجيًّا بين الدين والدولة، وحاولوا بقدر استطاعتهم إعادة التوحيد المصري القديم إلى العقل المصري، أي التوحيد بين الحاكم والإله، أكد أن الضباط نجحوا تمامًا في ذلك عبر سنوات عديدة، بسبب التخطيط الاستراتيجي المتميز، فبعدما صوَّت نصف المصريين للإخوان، ونصفهم الآخر لأحد الضباط في انتخابات عام 2012، تغير الوضع تمامًا خلال عام واحد من تلك الانتخابات، وتأكد كل من صوَّت للإخوان أنه أخطأ، وأثر ذلك على الانتخابات التالية. وانتهى فصام العقل المصري تمامًا بعودة نظام التوحيد المصري القديم؛ الحاكم والإله شيء واحد، مفهوم واحد، كيان واحد. وصف إسماعيل العقل المصري في كتابه بأنه تحول: «من عقل مصري فصامي إلى عقل مصري علماني، ليس بالمفهوم العام للعلمانية، لكن بالمفهوم المصري الذي لا يفرق بين الحاكم والإله».

بعد ألوهيته، وفي عام 2017 نشر كتابه «يقظة أمة»، الذي اعتاد أن يصفه بينه وبين نفسه بـ«الماجْنُمْ أُبَسِيَهْ»، وفيه قال إنه يتنبأ بالمستقبل المصري المشرق القادم بالتأكيد، بعد تحرر العقل المصري تمامًا من القيد الديني، وتحيزه التام للنظام المصري العلماني الدكتاتوري الذي

وصفه بـ«النظام الأنيق». شملت رؤيته كل شيء، كيف ستصبح المدارس والجامعات والمستشفيات والصحف والوزارات والأجهزة الأمنية والنيابة العامة والقضاء، ووضع نظامًا صارمًا لكل ما سبق مؤكدًا أن نظامه سينقذ مصر من الفوضى والعملاء والدجالين، واهتم كثيرًا بوضع قيود عديدة على المساجد والكنائس لكنه لم يطالب بإغلاقها تمامًا، ذلك أن العقل المصري قد تحرر، لكن «لاوعي المواطن لا يزال أسير النظام الفصامي القديم، فهناك تقبع الفكرة القديمة تحت طبقات من الأيديولوجيا والميتافور والغيبيات؛ ثمة إله في السماء وآخر على الأرض، والاثنان ليسا واحدًا»، وأكد أن لاوعي المواطن لن يتحرر بين يوم وليلة، لكن ذلك سيحدث ببطء وخلال سنوات عديدة، كما أكد أن الدكتاتورية المصرية يجب أن تكون شديدة المرونة، وأن تتحلى بالبرجماتية لأقصى درجة ممكنة، وأن تتراوح - على حسب ظروف الدول المحيطة بمصر - بين أن تكون دكتاتورية شمولية أو دكتاتورية سلطوية. وعلى عكس باقي كتبه، اهتم كثيرًا بغلاف «يقظة أمة»، كان يتمنى أن يصنع أحد الفنانين لوحة فنية دعائية خصيصًا لغلاف الكتاب، وتخيل وجوه أربعة مصريين تنظر إلى السماء بشموخ وعزة، كل منهم جبينه مرفوع مشرق، ينظرون إلى المستقبل بتحدٍّ وعزم، وفي الخلفية تتمدد جثث الخونة والإرهابيين والمتطرفين

والثوريين الذين هددوا البلد في السنوات القليلة الماضية، لكن للأسف لم يهتم أحد من الفنانين بخياله الوطني، فنُشر الكتاب بغلاف يضم تفصيلة من لوحة فنية تجريدية لم يفهم هو منها أي شيء.

في عام 2017 أيضًا نشر كتابه الصغير المتميز «إسقاط الدولة الدينية من أجل تجنب حرب أهلية تأكل الأخضر واليابس»، وفيه يسرد بلغته التاريخية الرصينة أحداث عام 2013، مؤكدًا أن وثائق ثورة يونيو اكتملت تمامًا، ويؤكد «ها هي ثمار الثورة يثمِّرُها الثوار ويثوِّرونها»، العبارة التي انتبه إليها محبوه وساهموا في نشرها على فيسبوك أكثر من 16 مرة في يوم واحد، ما عدَّه إسماعيل إنجازًا هائلًا وفتحًا على مستوى مواقع التواصل الاجتماعي.

ثم توالت الكتب بغزارة يُحسد عليها، في عام 2018 نشر «ضرورة الدكتاتورية»، وفيه يؤكد أن الحل النهائي لإحلال السلام العالمي يتمثل في حكومة دكتاتورية واحدة تسيطر على العالم بالكامل، مع حكومات فرعية وظيفتها تسيير الأمور في كل قارة، كما أكد أن وحدة القوانين واللغة على مستوى العالم هي الخطوة التالية لإحلال السلام العالمي، سيتبعها حتمًا خطوة تطور بيولوجي - ربما يجب على الحكومة أن تدفع البشر إليها دفعًا - حيث سيتوحد البشر كلهم بلون بشرة واحد، ولون شعر واحد، ولون عيون

واحد، ومقاس قدمين واحد، 36 للإناث و42 للذكور. وفي العام نفسه نشر «رحلة سعيدة إلى العاصمة الجديدة» وهو كتاب فكاهي شبه روائي بسيط، يسرد فيه أحداث رحلة خيالية إلى العاصمة الجديدة في المستقبل السعيد، حيث يقرر الإله المصري المستقبلي أن يبني عاصمة جديدة للبلاد، وتبدأ مجموعة من المواطنين بالتقليل من أهمية العاصمة الجديدة وعبثية قرار الإله المصري، ينتهي الكتاب بتدمير العاصمة القديمة وبناء العاصمة الجديدة، ندم إسماعيل كثيرًا على هذا الكتاب، فهو مؤرِّخ ومحلل وليس روائيًا أبدًا، وتحاشى ذكره تمامًا بعد نشره، فلم يتكلم عنه علنًا لأنه شعر بأنه يقلل من شأنه كمؤرخ، وقرر أن ينساه بينه وبين نفسه لأنه يقلل من شأنه كإله. وفي عام 2019، وقبل إعلان نفسه إلهًا بشهور قليلة، نشر كتابه الأخير والأهم «الألهانية»، وفيه يؤكد أن فكرة الإله المصري تطورت تطورًا أخيرًا، فالإله المصري لم يعد مجرد اتحاد للحاكم على الأرض مع الإله في السماء، بل إن الإله المصري استطاع، بعبودية المصريين له، أن ينفي أي وجود لإله غيره، وأنه الآن أصبح كيانًا مستقلًا عن الكون، أعلى منه، وفي مكان لم يصل، ولن يصل، أي شيء إليه.

ثالثًا: اهتم كثيرًا بما سماه «الرياضة الإلهية»، وهي التدريبات العقلية التي ساعدته على تبسيط قواعد ألوهيته وشرحها للمصريين، تمهيدًا لإقناعهم بالإيمان به.

بناء على قراءاته السابقة في علم الأديان، أدرك أنه سيخطئ كثيرًا إن فكر في «الخلق»، فلم يهتم إن كان هو من قام بهذه العملية أم قام بها غيره أم أن كل شيء انبثق فجأة، ورأى أن سؤال الخلق نفسه سؤال تافه مقارنة بعظمته كإله مصر، واختار أخيرًا - بعد رياضة إلهية مكثفة - أن يكون إلهًا علميًا، فاعترف بصحة نشأة الكون كما يراها علماء الفيزياء النظريون، وبصحة تطور الكائنات على الأرض كما يراها علماء الأحياء التطوريون، وانتهى إلى أن ألوهيته لا تتناقض مع العلم أبدًا، ولا تتشابك معه أيضًا، بل يسيران معًا في خطين متوازيين.

ومع كل هذا الانشغال كان يفكر في طريقة إعلان نفسه إلهًا في كل دقيقة وأثناء أي نشاط يقوم به، حتى عندما كان يكتب مسوَّدات كتبه أو يراجعها، وهما عملان يتطلبان دقة وتركيزًا شديدين، كان يتخيل مشهد الإعلان على الملأ، ولحرصه على استخدام التقنيات الحديثة، كان يتخيل أن يقوم بذلك عبر فيديو على يوتيوب أو على فيسبوك. تخيَّل التفاصيل مرارًا، وتحير قليلًا بين أن يفعل ذلك وهو عارٍ تمامًا، أو وهو يرتدي بدلة أنيقة، أو وهو يرتدي تيشيرت بسيطًا، فهو إله يختلف تمامًا عمَّن عبده المصريون من قبل، وفي النهاية استقر على أن أفضل خيار هو أن يكون عاريًا تمامًا.

اهتم كثيرًا بنشأة ألوهيته، لأن كل شيء له أصل مهما

كان صغيرًا، فمن الأولى أن يكون له هو أصل أيضًا، ودارت في ذهنه سيناريوهات عديدة لتلك النشأة، ظل يفكر في كل سيناريو ويختبر منطقيته، لكنه لم ينجح في إثباتها أبدًا، وبعد أيام من الرياضة الإلهية، قرر أن ثمة منطقين، أحدهما المنطق العلمي الرياضياتي، وهو خاص بعقل البشر وحدوده الرياضيات التي وضعوها لتساعدهم على فهم ما يحيط بهم من ظواهر، والآخر هو المنطق الإلهي، ولا حدود له وأصله الرياضة الإلهية، وهو المنطق القادر على تفسير أي من الظواهر المتعلقة بإله مصر، وبقليل من المنطق الإلهي يمكن له أن يفهم هو كيف صار إلهًا، وما أصله. ومن ثم عاد إلى الأسئلة القديمة واستطاع الإجابة عنها، فعرف ما أصل الحياة، وكيف تستمر، وكيف تنتهي. على أن كل ما فهمه لا تمكن كتابته أصلًا، فالمنطق العلمي الرياضياتي - منطق البشر - عاجز تمامًا عن فهم أي من نتائج المنطق الإلهي، واللغة البشرية هي الأخرى عاجزة تمامًا عن وصف أي من نتائجه. وهكذا، فقد إسماعيل أي اهتمام بتفسير ظاهرة ألوهيته للبشر، واكتفى بأن فهمها هو.

في تلك الأيام اعتاد إسماعيل أن يتعامل مع باقي المصريين على أنهم أقل منه كثيرًا، في البداية كان غاضبًا من كل أخطائهم وعيوبهم، لكن الابتسامة تسللت إلى شفتيه بمرور الوقت، فكر أن الغضب على المصريين شعور ظالم للغاية، كيف يغضب على من هم دونه بهذا الفارق

الكبير؟

في يوم إعلان نفسه إلهًا، وعندما كان مندمجًا في ممارسة رياضته الإلهية، حاول إسماعيل أن يقيس حجم الفارق بينه وبينهم، فأخرج ورقة بيضاء من الدرج ووضعها على سطح مكتبه، ولأنه رجل عملي، خلق إسماعيل العديد من الخطوط المستقيمة على الورقة البيضاء، ذات أطوال وألوان متعددة، لكنها كانت بلا سمك أو عرض، مجرد بُعدٍ واحد فقط، ثم سمح لخطوطه أن تتحرك في بُعد واحد، إلى الأمام وإلى الخلف فقط، وخلق لكل منها وعيًا مستقلًّا، فأصبح كل خط يعي ما يحدث حوله في عالمه المسطَّح، لم يندهش إسماعيل عندما كوَّنت الخطوط وعيًا محدودًا بحدود الورقة البيضاء، وأخذت الخطوط تتأمل العالم الأبيض المسطح ثم تفسر كل ما يحدث فيه؛ ثم سمح للخطوط أن تخلق نقاطًا حولها في البعد نفسه، لم يندهش حينما شعرت الخطوط بالفخر لأنها خلقت النقاط، ثم أخذت تتأملها وتعود للتفكير في نفسها، كيف نشأت وكيف تستمر وكيف تنتهي.

بينما تحركت الخطوط على الورقة البيضاء على سطح مكتب إسماعيل، كل منها في وعيها المحدود، استطاع أن يحسب بدقة مقدار الفارق بينه وبين البشر، هذا المقدار يساوي تمامًا 124572940098300 ضعف الفارق بين الخطوط والنقاط التي تتحرك على الورقة أمامه، حينها

اطمأن تمامًا لأن الرياضة الإلهية أوصلته إلى مكان لن يعود منه أبدًا، ثم قام بتمزيق الورقة وقام من مكانه وهو يفكر أن الدكتور يعقوب ليس الشخص المناسب لأن يكون أول من يعرف بألوهيته.

•••

عادت سارة من الخارج وهي مشغولة بالتفكير في مجموعة الأحجار التي ستشتريها قريبًا، وفي خام الفضة الذي ارتفع سعره كثيرًا، وفي مشغولاتها الفضية التي سيرتفع سعرها تبعًا لذلك، كل هذا يهدد ورشتها الصغيرة الناشئة، ومحلها الصغير الذي تعاني كل شهر لدفع إيجاره، فكرت في التخلي عن المحل ذي الإيجار المرتفع، وفي تحويل جزء من الورشة إلى محل صغير تعرض وتبيع فيه منتجاتها، على أن تعتمد على بيع أعداد أكبر في المحلات الأخرى. مشاكل كثيرة أحاطت بسارة في تلك الأيام، عصبية إسماعيل الدائمة وقلة نومه وشكواه الدائمة من الطلبة وباقي زملائه في الجامعة، انتقاده الدائم لكل شخص يعرفه، اعتاد على ذكر سيئات كل من يُذكر اسمه أمامه، هكذا بطريقة آلية ومن دون تفكير. صارت العودة إلى المنزل بالنسبة إليها سببًا للتعاسة، لم يخفف عنها وجود إسماعيل سوى وجود كريم.

سمعت صوت اسماعيل آتيًا من الداخل، لم تفهم تمامًا ما يقول، مشت خطوات قليلة صامتة حتى أصبحت قرب

باب غرفة النوم، رأت كريم قاعدًا على مقعده الخشبي الصغير الذي يحبه كثيرًا، نظر إلى أبيه الواقف على السرير المرتفع وضحك بسعادة بالغة، صفق وهو يقول له: «تاني... تاني...»، إسماعيل عارٍ تمامًا فوق السرير، نظر إلى الطفل من أعلى، مصباح الغرفة قريب من رأسه للغاية ويلقي بظله ضخمًا ومشوهًا على الحائط، أمسك إسماعيل المقشَّة بيده اليمنى كأنه يحمل سيفًا، أشار بطرفها إلى كريم، قربها كثيرًا منه حتى أوشكت الشعرات البلاستيك الملونة على لمس وجهه، قال له بنبرة هادئة رصينة: «أنا إلهُ مصر»، ضحك كريم بصوت مرتفع وصفَّق بسعادة، أعاد إسماعيل جملته بالرصانة نفسها وضحك كريم مرة أخرى، ثم ردد الجملة بعده: «أنا لهو مصر»، قال إسماعيل: «لا لا... أنا إلهُ مصر، أنت ابن إلهِ مصر...»، قال كريم: «أنا لهو مصر، أنت بله مصر...»، كرر إسماعيل الجملة عدة مرات، وفي كل مرة يكررها كريم بعده بالخطأ نفسه، أخيرًا غضب إسماعيل وصرخ بصوت عالٍ منفعل: «أنا إلهُ مصر...».

مع الفزع المفاجئ على وجه كريم دخلت سارة الغرفة بسرعة، حملت الطفل وخرجت من دون أن تلقي نظرة واحدة على إسماعيل، لم تنتبه إلى ما قال، لم تسمعه أصلًا، ركضت خارج الشقة ونزلت السلم حتى وصلت إلى الشارع، تمالكت نفسها قليلًا عندما نظرت في وجه كريم ووجدته هادئًا، توقفت في الشارع الصامت تلهث وتفكر في الخطوة

القادمة، معها كريم والموبايل وحقيبة يدها ولا شيء آخر، كل ما تملك لا يزال في الشقة، لكنها لن تعود أبدًا، إسماعيل راح.

شقَّ صوت إسماعيل صمت الشارع، ارتجفت وتجدد فزعها عندما التفتت ورأته في البلكونة، عاريًا تمامًا يرفع المقشة إلى أعلى بقوة وصرامة، قال بغضب هائل: «أنا إله مصر يا سارة، إنا إلهكِ يا سارة»، هرولت مبتعدة عن العمارة وقدماها ثقيلتان، بعد خطوات قليلة رأت كناسًا ينظر نحو إسماعيل وهو يحمل مقشته الضخمة، يرفعها إلى الأعلى مقلدًا إياه، شفتاه مزمومتان وعيناه صارمتان وجبينه مغضَّن، قال له بجدية مبالغ فيها: «أنت إله مصر يا ابن المجنونة».

عندما وصلت إلى شارع قصر العيني أنزلت كريم إلى الأرض وأمسكت كفه بقوة، حاول أن يتملص فضغطت يده وهزتها بعنف، أخرجت الموبايل من حقيبتها، أمسكته لحظات أمام عينيها وهي تفكر في أنسب شخص يمكنه المساعدة، لا أحد ممن تعرفهم مفيد، لا أحد يصلح، لا تعرف ما عليها أن تفعل أصلًا، فكَّرت في الطفل الذي تمسك يده الآن، كيف سيكبر، كيف ستربيه وحدها، هل سيُجن مثل أبيه، هل الجنون وراثي؟ ومن دون أي وعي بما تفعل بحثت عن اسم مريم في التليفون، اتصلت بها وعندما فُتح الخط بكت بحرقة لأول مرة منذ أن رأته

واقفًا عاريًا على سريره، ثم جاءها صوت مريم متوترًا يسألها إن كانت بخير، صرخت: «إسماعيل راح يا مريم».

13

يخرج إسماعيل من المسرح إلى غرفة الاستراحة، يبحث عن سليمان ويسأل كل من يراه عنه، أخيرًا يقول أحدهم إنه رحل منذ دقائق، يقف إسماعيل متحيرًا، وأخيرًا يمشي ببطء نحو الكافيتيريا قرب مدخل الاستوديو، يجلس إلى إحدى الطاولات، يتابع الشارع الخالي من خلال الحائط الزجاجي أمامه، لا يُفتح الباب إلا نادرًا جدًا، ولا يصله إلا ضوء خافت منبعث من أحد أعمدة الإضاءة البعيدة، يتساءل عن سبب وجود العمود وحيدًا، ويظهر المشهد لعينيه وكأن هناك نقطة واحدة مضيئة وسط سواد متسع لا حدود له.

يلاحظ اقتراب شابة تسير إلى جانب رجل هرم بشعر أبيض تمامًا، يمسك الرجل عصا ويلبس نظارة سوداء، لأول وهلة يفكر أن الرجل أعمى، وعندما يمد الرجل يمناه ويمسك بظهر الكرسي الأقرب له يتحير إسماعيل، يقول الرجل ببطء:

- مساء الخير يا دكتور، أنا الدكتور يعقوب، هل يمكنني أن أجلس؟

يرد إسماعيل بابتسامة مرحِّبة:

- أهلًا أهلًا يا دكتور، تفضل.

يقف ليصافحه، ثم يدرك فجأة أن هذا هو الدكتور

يعقوب، الرجل الذي أقنعه بممارسة أحقر مهنة مارسها البشر، يلوم نفسه بشدة لأنه رحّب به ووقف، يعود ليجلس من دون أن يصافحه، يرخي فخذيه وظهره على الكرسي، يفكر أنه يجدر به أن يأخذ عصا الرجل ويحطم بها رأسه.

يجلس الدكتور يعقوب بظهر مستقيم ووجه جامد، عصاه أمامه بين فخذيه، يمسكها ويستند إليها في الوقت نفسه، يديرها بإصبعيه وهو يوجه وجهه ناحية إسماعيل، تتركه الشابة وتبتعد عنهما، بينما إسماعيل ينظر إلى وجهه ويحاول أن يتذكر شكل عينيه المختبئتين الآن تحت النظارة السوداء، ليست معتمة بالكامل، ويكاد يرى جفون الرجل تحتها مستقرة مغمضة.

تجسّد يعقوب أمام إسماعيل سببًا لكل المصائب التي حدثت في البلد، سببًا لجنونه الشخصي، الآن فقط يرى أن جنونه لم يكن ليتم لولا دفعة يعقوب الأخيرة، لولا إصراره على إثبات أنه رجل عبقري خارق للعادة، لولا أنه جعله مكافحًا عبقريًا ثم منظرًا عبقريًا ثم انزلق بسلاسة إلى تأليه نفسه، لكنه الآن لن يلوم نفسه بل سيعنّف يعقوب وربما يقتله فعلًا، ينتظره حتى يبدأ الحديث وعندما يتأخر يسأله:

- ماذا تريد الآن؟

- أريدك أن تستيقظ، أنا مللت ما يحدث كله.

- وأنا أريدك أن تعترف بجرائمك، أريد أن أراك تُحاسَب

بأي شكل على ما فعلت.

يصمت يعقوب لحظات ثم يقول مترددًا:

- لا أفهم ما تقول...

ثم يقهقه فجأة ويسند ذقنه على مقبض العصا، ويقول:

- جرائم؟ أنت تظن أن هناك جرائم وعقوبات وما يشبه ذلك؟ استيقظ يا دكتور لو سمحت، الوضع كله صار مملًا.

لوهلة يتحيَّر إسماعيل، بدا له أن الرجل أفلت بكل ما فعل وأن لا عقوبة له، ربما يصعب إثبات ما قام به لكن لا مانع من إدانة شعبية له، فضيحة في الصحف والتلفزيون، أليست الصحافة حرة من أجل هذا؟ وسيرد حتمًا الرد المعتاد المكرر، «فعلتُ ما فعلت من أجل مصلحة الوطن»، يفكر أن الرد أصبح مضحكًا سخيفًا من فرط تكراره، وعندما يطول صمته يكرر يعقوب بملل:

- لا جرائم ولا عقوبات ولا أي شيء مما تظن، ويبدو أني سأعاني كثيرًا حتى تستيقظ.

يزداد إصرار إسماعيل أمام وقاحته، سيبذل كل مجهود ممكن حتى يُحاسَب، حتى وإن أدى ذلك لعودته إلى المستشفى، أو حتى دخوله السجن.

- من الصعب أن أشرح لك، لكني سأحاول فلا يمكن أن أستسلم.

يقاطعه إسماعيل بحدة:

- لا تشرح شيئًا، لن تفلت، حتى وإن اضطررت لقتلك

بنفسي.

يرفع كفه اليمنى مستسلمًا، يرجع بظهره إلى الخلف وحاجباه مندهشان تمامًا:

- لا داعي لكل هذه الحدة، فقط اسمعني، دقائق قليلة.

- لن تدافع عن نفسك أمامي، أنا أدينك من دون محاكمة.

وعلى الفور يتحول تعبير الدهشة على وجهه إلى الامتعاض، يقول بنزق بالغ:

- ما هذا؟ أنت عبيط؟ أي محاكمة وأي إدانة؟

- لستُ...

- اخرس واسمعني.

يؤخذ بصوته الحادّ الصارم، ويفكر أن هناك شيئًا غامضًا في كلامه لم ينتبه له إلّا الآن، يصمت فيتابع يعقوب:

- خلال الشهور السابقة أتيتني في المنام، تطلب مني أن أبحث عنك وأقابلك وأوقظك، طلبت مني أن أشرح لك أنك في غفوة وأن عليك أن تستيقظ حتى تتابع مهمة بناء مصر بعد خرابها، أنا الآن هنا بناء على طلبك وأقول لك بكل صدق: استيقظ يا خربتو يا مطلق.

يرتبك إسماعيل تمامًا، وأول فكرة تأتيه أن هذا ليس الدكتور يعقوب وإنما شخص آخر، سوء تفاهم كبير، لكنه يستجمع أفكاره ويقول:

- لا سبيل للإفلات من العقاب...

- يا أخي اخرس وافهم، أنت إله مصر الأخير، لسبب ما

غفوتَ وغفوتك طالت، ويجب أن تستيقظ حتى أستريح أنا، وحتى تبني مصر.

قال جملته الأخيرة بسخرية قاتلة، بتشفٍّ كامل، باحتقار لا ينتهي. يتابع:

- وأرجوك أن تفعل ذلك في أقرب وقت، لا أستطيع النوم إن كنت ستأتيني في المنام كل ليلة، الموضوع أصبح مرهقًا لي جدًا، أنا أعمى ولا أرى إلا أحلامي، ولا أود أن أرى وجهك البغيض كل ليلة تدعوني لفعل شيء غير منطقي وغير مفهوم بالنسبة لي، استيقظ وخلصني.

- أنت مجنون حتمًا، يجب أن تعرض نفسك على طبيب، أنا كنث...

يقاطعه بصبر نافد:

- كل آلهة مصر مجانين يا خربتو وأنت أكثرهم جنونًا، ماذا تتوقع أن يكون من خلقتهم في حلمك، عقلاء؟

يتوقف إسماعيل عند الكلمة كثيرًا، يسأله:

- في حلمي؟ ما معنى هذا؟

يعدُّ على أصابعه، ثم يدير سبابته في الهواء:

- أنا وشخصيتك هذه ومن تعرفهم وكتابك السخيف وهذا المكان وهذا العالم، كلنا حلم يدور في عقلك أثناء غفوتك، وحالما تستيقظ سينتهي الحلم وننتهي معه.

يهدأ إسماعيل قليلًا ويسأله ساخرًا:

- أشاهدتَ ما يشبه ذلك في فيلم كوميدي تافه؟ في

فيلم سخيف؟

يصمتان، ويبدو الإحباط على وجه يعقوب، وعندما يفتح فمه يقاطعه إسماعيل بهدوء وجدية:

- لكن لا مانع من المشي خلفك، طيب، جميل جدًا، يعني عندما أستيقظ من نومي...

- غفوتك، مجرد لحظة من النوم، لسبب ما أنت لا تنام، وما يحدث لك الآن شيء استثنائي.

- طيب، غفوتي، إن استيقظت ستموت أنت وكل من أعرف؟

- لا، كن دقيقًا يا خربتو لو سمحت، أنت إله مطلق وأنا مللت كل شيء، نحن لسنا أحياء أصلًا، أنت الحي الوحيد وأنت الآن تحلم بنا، نحن موجودون لأنك تحلم بنا، لأننا أبطال في حلمك السخيف هذا، ونعم، إن استيقظت سينتهي وجودنا والحمد والشكر لك.

- يعني ما يحدث الآن حلمي أنا؟

- اسم خللو عليك، أنت تحلم ونحن هنا نعيش في السخافة.

- طيب دعني أشرح لك ما فهمته منك، أنا إله مصر الخامس، خربتو المطلق، كما ورد في كتابي؟

يصمت إسماعيل منتظرًا الإجابة، وعندما يطول انتظاره يقول يعقوب متعجلًا:

- نعم، أيوه، صحيح، مضبوط، صواب.

- والعالم الحقيقي هو عالمي الذي حكيت عنه في الكتاب؟

يصمت للحظة فيمد يعقوب كفَّه ويقبض على رقبته ويقبضها بقوة، ثم يقول من بين أسنانه:

- إخلص.

- وأنا الآن في غفوة قصيرة...

- مجرد لحظة بزمنك الإلهي.

- أنا في غفوة لحظية، والعالم الذي حولنا هو حلمي، هو عالم مختلق غير واقعي.

يصمت قليلًا فلا يرد يعقوب عليه إلا بوجه جامد ملول، يتابع:

- طيب إن افترضت أن ما قلته صحيح...

- هو صحيح ولا داعي للافتراض.

- فمعنى هذا أن كل ما حولنا سيتوقف عن الوجود حين أستيقظ؟

يترك يعقوب عصاه تسقط لتحدث صوتًا مدويًا، يتشابك مع صوت تصفيقه العنيف، يقول بحماسة مبالغ فيها:

- برافو خربتو المطلق، أنت عبقري فعلًا، لا أصدق مستوى ذكائك، أنت جدير حقًا بأن تكون إلهًا، هلَّا استيقظت الآن وأرحتنا جميعًا؟

- شكرًا على الكلام الجميل، لكني آسف، لن أستطيع الاستيقاظ.

يمد يعقوب كفَّه باحثًا عن العصا على الأرض حتى يجدها ويعيدها إلى موضعها الأول، يقول له ببطء:

- كيف لا تستطيع؟ يعني سنبقى متورطين مع حلمك من دون نهاية؟

- يبدو كذلك، الأمر معقَّد، أولًا أنا لا أرى أني إله وأني أحلم، هذا ما تراه أنت، أنا أرى أن هذا هو العالم الحقيقي، وأنك مريض نفسي يجب أن تعرض نفسك على طبيب.

يصرخ يعقوب:

- يا عم ارحمني، اصحَ يا خربتو يا مطلق، لن نعود إلى نقطة الصفر بعد أن أخبرتك بالحقيقة.

يعقد إسماعيل ذراعيه أمامه ويقول بثقة:

- هذه ليست الحقيقة، هذه أوهام في رأسك.

يصمت يعقوب مفكرًا، يقول له:

- طيب، ماذا يمكنني أن أفعل حتى تقتنع بأن ما أقوله حقيقي؟

- لا يمكن أن يكون حقيقيًا، كلامك غير مقنع وغير منطقي.

- كلامي سيكون حقيقيًا لو أنك صدقتَ أنك إله، وبأنك تحلم الآن، صحيح؟

يتردد إسماعيل قليلًا، ثم يقول:

- بالطبع لا، لكن لا مانع من تصديق كلام غير منطقي.

- جميل، إذن يا أخي صدقني، صدق أنك إله، وأنك في

غفوة، وأن أمامك مهمة كبيرة وهي بناء أم مصر، وأن عليك أن تستيقظ حتى تبدأ مهمتك، ربما إن صدقت تستيقظ.

- لا لا لا، هذه الفكرة ظلت في رأسي لأعوام كثيرة جدًا، لن أعود لها أبدًا، لقد تحرَّرت منها بلا عودة.

يعارضه يعقوب ساخرًا من طريقة كلامه:

- لا لا لا، هذه الفكرة هي الحقيقة، وأنت الآن في غفوة...

يصمت من دون أن يكمل، يبدو التعب على وجهه، يطول صمته ثم يقول أخيرًا:

- طيب هناك طريقة أخرى، في حلمك هذا، عملنا مع بعض عدة سنوات، اجتمعنا وتحدثنا عشرات المرات، وقرأتُ تقريبًا كل ما كتبتَ في تلك الأيام البعيدة، وقرأتُ مئات التقارير التي كتبتَها عن عفن البطاطس، وبكل صدق كنتَ دائمًا مثالًا للالتزام والدقة والمنطقية، كنتُ دائمًا أقول إنكَ لست مؤرخًا بل فيلسوف، رجل منطقي، رجل عقلاني. ما رأيك، هل تود أن نلعب لعبة صغيرة، لعبة تعتمد على المنطق؟

- هذه هي الحقيقة، أنك استخدمتني لتدمير وعزل وتصفية عفن البطاطس، عفن كثير لا أعرف عنه شيئًا، لا أعرف ماذا حدث له بالضبط، هذه هي المصيبة التي تتحاشى ذكرها لكنك لم تتمكن من المقاومة.

ثم يقطّب جبينه ويحدق في وجه يعقوب، يتساءل:

- أنت تتحدث عن الغفوة والحلم والإله فقط كي تهرب من جريمتك، لا شيء مما تقوله صحيح، فقط تريد أن تشغلني عن جريمتك، أأنت غبي؟ كيف أنسى ما فعلناه معًا؟

تنحني كتفا يعقوب، يقول له والملل في صوته:

- إن قارنت المصيبة التي نحن فيها بما فعلت، لوجدت أنه لا شيء، ليس جريمة أصلًا، في الحقيقة لا إرادة لي فيما حدث، هذا حلمك وأنت تحلمه، هيئة المكافحة نفسها أنت من اختلقتها في حلمك، أنا والهيئة مجرد خيال في عقلك، أرجوك افهم.

يسأله بحدة بالغة:

- هل طلبتَ تصفية العفن اللامع؟

يصمت يعقوب لثوانٍ محاولًا التذكر، ثم يسأل:

- من؟

- العفن اللامع...

- لا أذكره، من هذا؟

- هذا عفن بطاطس كان مشهورًا جدًّا حينما عملنا معًا، كان مؤرخًا مثلي، كيف لا تذكره؟

- المصريون كلهم عفن بطاطس، كيف أتذكر أحدهم؟

- ألم أكتب تقريرًا أوصي بتصفيته؟

يبدو الأسى على صوت يعقوب وهو يقول:

- هل تظن أني كمبيوتر؟ كنتُ أقرأ عشرات التقارير كل

يوم، يتساوى عندي العفن بكل أنواعه، الفكهاني والخضري والطبيب والمؤرخ والمغنّي والعاهرة، كل منهم يتحول إلى ورقة تحوي اسمًا وصورة ووصفًا وتوصيات، لا، لا أذكره.

- أنا لا أذكر ما فعلتُ لأني كنتُ مريضًا.

- لم تكن مريضًا، كل ما حدث بيننا ذكريات في حلمك، كل الحوارات والاجتماعات والتقارير تاريخنا المشترك الذي تحلم به.

مرة أخرى يسأله إسماعيل بحدة:

- هل طلبتُ تصفية العفن اللامع؟

وبحدة أكبر يقول يعقوب:

- لا أذكر، وحتى إن فعلتَ، أنت مسؤول عن كل ما يحدث في حلمك، أنا مجرد شخصية في حلمك.

يدير إسماعيل وجهه بعيدًا وهو يقول:

- لا أصدق إصرارك على الهروب من المسؤولية.

- طيب، أرجوك، لنعد إلى اللعبة، ربما اقتنعت بما أقول.

يقرر إسماعيل أن يستسلم مؤقتًا، ويقول:

- تكلم.

- سنضع أمام أعيننا فرضيتين، فرضية أولى تقول بأنك إله مصر، وفرضية أخرى تقول بأنك إنسان. تمام؟

يفكر إسماعيل قليلًا ثم يقول:

- لا مانع، هاتان فرضيتان يمكن اختبارهما.

- جميل جدًا، إن افترضنا أنك إله في غفوة، ما الذي

يمنعك من الاستيقاظ؟

- ما يمنعني أني مستيقظ أصلًا.

- يا عم ارحمني، افترض معي أنك إله يا دكتور.

- طيب طيب، إن افترضت أني إله في غفوة، لا أعرف ما الذي يمنعني من الاستيقاظ، الواحد عادة يستيقظ عندما يأخذ كفايته من النوم.

- لكنك لست نائمًا، أنت لا تنام أصلًا، هناك شيء ما جعلك تغفو للحظة، تأثير خارجي ما، وحالما يتوقف هذا التأثير ستستيقظ.

لوهلة يدب الشك في نفس إسماعيل، تتجمد عيناه وهو يتذكر وجه طبيبه وهو يعطيه علبة الدواء، يخفق قلبه بشدة، ويقول ببطء:

- الأنتيفايدي.

- ماذا؟ ما هذا يا ألوهيتك؟

- الأنتيفايدي دواء عالجني الطبيب به لشهور قبل أن أخرج من جنوني، لم أستيقظ من عالم الآلهة فور تعاطي الدواء، لكني استيقظت فجأة ذات يوم، لا أحد يفهم كيف حدث هذا بالضبط، والآن أنا أتعاطاه يوميًا حتى أظل عاقلًا، حتى لا أدخل في الجنون.

- أخيرًا عرفنا السبب، أخيرًا ستستيقظ يا خربتو يا مطلق يا أخير، هذا يعني ببساطة ووضوح أنك إن توقفت عن تعاطي الدواء ستستيقظ من غفوتك.

- أو سأعود إلى جنوني.

- لا، لا تخرج من الفرضية، نحن الآن لا زلنا في فرضية أنك إله في غفوة.

يستسلم إسماعيل، يقول:

- صحيح، ربما سأستيقظ، معك حق.

- لا تقل «ربما»، بل ستستيقظ فعلًا، وحينها أختفي أنا وتختفي أحلامي البغيضة ويختفي حلمك السخيف، وتعود إلى مهمتك المجنونة، بناء مصر.

يأخذ إسماعيل نفسًا عميقًا، يقرر أن يعاود الهجوم:

- نعم كل هذا صحيح، لكن ماذا عن الفرضية الأخرى؟

- سنفترض أنك إنسان عادي تمامًا وأنني شخص مجنون، وأن هذا العالم حقيقي، وأن كل هذا العبط الذي في عقلك صحيح الآن، وماذا بعد؟ ماذا سيحدث بعد عدة سنوات؟

- لا أعرف، ماذا سيحدث؟

- أنت ستموت، صح؟

- بالتأكيد، كلنا سنموت في النهاية.

- وبعدما تموت؟

- لا شيء، بعدما أموت لن يحدث شيء مميز، الملايين يموتون كل يوم في هذا العالم من دون أن يحدث تغير كبير.

- غلط، موتك يعني ببساطة استيقاظك من غفوتك، وعندها سينتهي وجودنا جميعًا...

يقاطعه بصرامة:

- لا، أنت الذي تخلط كل شيء الآن، اتفقنا أننا نفترض الآن أنني إنسان عادي وأن العالم هذا حقيقي، وأنك رجل مريض، بينما أنت تعود للفرضية الأولى وتبني استنتاجك على أني إله.

- لأن هذه هي الحقيقة، أنا لا أصدق ما يحدث.

- انتهى الموضوع، فرضيتك سقطت.

- لا، فرضيتي لم تسقط، الفرضيتان قابلتان للتحقق.

يقول إسماعيل على مضض:

- لا، أنا إنسان أعيش وأشعر بوجودي، هذا هو العالم المادي المحيط بي وبك، هذا هو أفضل عالم يمكننا جميعًا الحصول عليه، فرضيتك غير قابلة للتحقق.

- لا، هناك مجال إن توقفت عن تعاطي الأنتف...، ما اسمه؟

- الأنتيفايدي.

- هذا هو، لم لا تجرِّب؟ توقف عن تعاطيه، ربما تستمتع بحياتك كإله.

- يا رجل، أنت مجنون حتمًا.

يصمت يعقوب واليأس الكامل ظاهر على وجهه، ينظر إسماعيل إليه بشفقة لأول مرة، ثم يقول:

- إن كان كلامك صحيحًا فهناك ثغرة، إن كنتُ إلهًا حقًّا، من أعطاني الدواء وأدى بي إلى الغفوة؟

بعصبية بالغة وصبر نافد وصوت مرهق يقول يعقوب:

- يا عم، أنا مجرد إنسان زفت أعمى تافه في حلمك، كيف لي أن أعرف؟ ربما أردتَ أن تخلق عالمًا تافهًا بدلًا من العالم الذي دمرته بغبائك، ربما أردت أن تأخذ إجازة من العمل كإله، ربما مللت كل ما حولك وغفوتَ وحلمتَ بنا، الأكيد أننا نعاني في عالمك المقرف هذا، والأكيد أيضًا أني لا أعرف بالضبط كيف وصلتَ إلى هذه الحال. أنت إله كبير ومهم، وهذه الأشياء أنت أدرى بها. سأقول لك شيئًا، أخضع ما تحدثنا عنه الآن للمنطق الإلهي، ستجده منطقيًا.

يقهقه إسماعيل لأول مرة، ويقول له:

- كتابي جنَّنَك، يا رجل أتصدق هذا الكلام؟ منطق إلهي؟ أنا كتبت ذلك عندما كنت مجنونًا.

- لا، أنت كتبته عندما كنت مستيقظًا.

- لن ينتهي هذا الجدل، وبالمناسبة، لم أجد أي منطق في لعبتك، أنت ساقط منطق يا دكتور.

يصمت الاثنان، يجهز إسماعيل ردودًا لإسكات يعقوب، لكنه يتفاجأ بقوله:

- طيب، أنت لست إلهًا، أنت إنسان عادي، فرحان الآن؟ وستموت قريبًا، أو ربما أقتلك لأتخلص من الخراء اليومي الذي أمر به، وعندما تموت سأنتهي وينتهي الخراء.

يضحك إسماعيل ضحكة المنتصر أخيرًا، يقول:

- لا لا لا، لماذا استسلمت بسهولة؟ أين قدرتك وصبرك

على الجدل؟ حكايتك ممتعة فعلًا، جميلة وجديرة بالتأمل، الله عليك، ما هذا الجمال، ما هذه الحلاوة، يبدو أنك كنت زميلي في المستشفى من دون أن أعلم، طيب يا أخي لِمَ لم تأتِ لزيارتي عندما كنا هناك؟ كنا سنقضي وقتًا طيبًا، وماذا أيضًا؟ هل الكون مستقر على ظهر صرصار؟ انتظر انتظر، ما رأيك أن نصنع دينًا جديدًا؟ أنا وأنت؟ سنعمل معًا، وأنت تعلم تمامًا ماذا يمكن أن نصنع معًا، ستعود أيام العمل المشترك الممتع، يمكنك أن تتخيل ما تشاء فلا حدود للعقل البشري، يعني أنا نائم وأحلم بهذا العالم؟ الله عليك، خلطة بوذية فلسفية صوفية رائعة، رائعة فعلًا، وحِياة خللو رائعة، لكن يمكننا إن فكرنا قليلًا أن نختلق فكرة أجمل يا دكتور. انتظر انتظر، ما رأيك في أن نبدأ بداية غنوصية؟ أنا الـ... الـ... ما اسمه هذا الذي بدأ كل شيء، الذي لا يخطئ، النوراني الذي لا يخلق شرًا؟ تكلمت معك عنه سابقًا، ما علينا، سنسميه «إسماعيل»، وأنت ستكون الشيء الآخر الذي خلق الكون والخير والشر وكل تلك الأشياء المتناقضة، ما رأيك؟ فكرة حلوة فعلًا. لكن لا، انتظر انتظر، سنصنع دينًا متعدد الآلهة، دينًا كلاسيكيًا تمامًا، آلهة كثيرة تتصارع وتتشاجر والبشر يا عيني يعانون من كل ما تفعل، وأيضًا سأكون أنا إلهًا، وربما ستكون أنت نصف إله، لكنك ستضحي بنفسك من أجل البشر، وقبل أن تموت بلحظة سأجعلك إلهًا لأني أحببتك، ثم بعد مدة

ستثور عليّ وتقتلني وتحل محلي، والعظة الوحيدة للبشر الفانين أننا نتصارع لأننا نملك الخلود والصواعق والأسلحة، وهم لا يمتلكون أي شيء، صراصير، سيعيشون عيشة الصراصير وسيموتون ميتة الصراصير، اشتغل يا حبيبي، الخيال لا حدود له وهناك آلاف الأديان في العالم، ولا مانع من زيادة عشرين دينًا مرة واحدة، فالناس لا يشبعون أبدًا، لكن بصراحة فكرة أني إله نائم أحلم بهذا العالم هي فكرة بليدة جدًا، سخيفة وغبية وتافهة، أنا مندهش من بلادتك هذه المرة، أنت أُفضل من ذلك كثيرًا يا دكتور.

يصمت يعقوب، يحني ظهره ويستند بمرفقيه إلى ركبتيه، ينظر إلى الأرض، يتنفس بعمق ويبدو على جسده كله الإرهاق التام، ترتجف كتفاه ويهتز رأسه، ويفكر إسماعيل أن الرجل يفقد سيطرته على جسده.

يهدأ جسد يعقوب، من دون أن يرفع رأسه يقول ببطء وهدوء وصوت منخفض:

- أخبرني، ما هذا البلد الفاشل الذي أنت إلهه؟ كيف ترى أن ما فعلتَ جيد بأي شكل؟ لِمَ كان كل المصريين تعساء خلال حكم الآلهة؟ ألم تتحكموا في كل تفصيلة في الحياة؟ لِمَ تعمَّدتم أن يبقى المصريون على حال واحدة دائمًا؟ لِمَ تعمَّدتم أن تظهروهم سعداء بينما هم عكس ذلك تمامًا؟ لِمَ كان عليهم أن يخضعوا خضوعًا تامًّا لكم؟ لِمَ كان

عليهم أن يكونوا مهووسين بالحرب والشعر والزراعة وعبادة إله مختل، قضيبه في رأسه؟ لِمَ كان عليهم أن يظلوا بلا قيمة وفقراء ومكتئبين؟ لِمَ كان عليهم أن يعيشوا ويموتوا كما قلت أنت منذ قليل كالصراصير؟

يرفع رأسه ونبرة صوته تعلو وتزداد حدة:

- ثم ما مصر أصلًا؟ ما أهميتها؟ ما المميز في مسطح رملي أصفر كئيب، ومستنقع من المياه الآسنة يستقر في طرفه؟ لِمَ كان عليك أن تكون إلهًا لمساحة صماء ميتة من الأرض؟ لِمَ كان عليك أن تصنع جمالًا زائفًا في شيء بالغ القبح؟ لِمَ كنت تستمتع بحلب وتعذيب سكان هذا المكان الكئيب؟ لِمَ لا تتركنا وترحل يا أخي؟ حتى حلمك الذي نحن فيه الآن كئيب ممرض، بلا تفاصيل أو معالم أو أي شيء مميز، كتابك فيه حياة أكثر من حلمك البغيض، لِمَ كان علينا أن نمر بكل تلك المصائب حتى نصل إلى الوضع الحالي؟ لِمَ الأحوال كلها جيدة لكننا لا زلنا تعساء؟ ألا ترى أن كل ما يحدث خطأك وحدك وأنك تحمِّل كل من حولك الذنب وحدهم؟ كل هذا لا يجعلك إلهًا، أنت فعلًا لست كذلك، أنت مجرد شيء كريه لا نتمنى له إلا أن يموت مثلنا، كالصراصير.

يثقل نفس إسماعيل ويجف حلقه، يقوم يعقوب ببطء ويدور مبتعدًا عنه ووجهه يبحث عن مرافقته، تظهر الشابة أخيرًا وقد اختفت الابتسامة من على وجهها وامتلأت

عيناها بالدموع، تتجنب النظر إلى إسماعيل، تأخذ ذراع يعقوب وتتحرك مبتعدة. يقول إسماعيل بتعاطف حقيقي:

- أعدك يا دكتور، سأفكر في الأمر.

من دون أن يتوقف، يرد يعقوب بشخرة عميقة قصيرة.

14

جهزت سارة حقيبتها؛ فيها ساندويتشات وفاكهة لها ولإسماعيل ولكريم، وملابس داخلية جديدة طلبها الممرض لإسماعيل، ومجلات وكتب يرى طبيبه أنها قد تساعده، وقلم رصاص ومفكرة سميكة، وحبات نعناع تضعها في فمها قبل أن تدخل المستشفى لتساعدها على مقاومة الغثيان، مع كل زيارة تتناول مع إسماعيل طعامًا قليلًا، ثم تتقيأه في الحديقة بعد انتهاء الزيارة.

المسافة من جاردن سيتي إلى مستشفى العباسية ليست طويلة، يمضي التاكسي من عند البيت فيمر بميدان التحرير، ثم قريبًا من ميدان عبد المنعم رياض، ثم يصعد كوبري أكتوبر، وبعد مدة قصيرة يتركه إلى شارع صلاح سالم، حيث المستشفى الضخم ومن خلفه شارع ممدوح سالم، فكرت أنها إن حسبت أن اسم ميدان التحرير الرسمي هو ميدان أنور السادات، فهي محاصرة تمامًا بكماشة لا فكاك منها، أغمضت عينيها وتساءلت بندم أين كان عقلها قبل سنوات من الآن؟

في حديقة المستشفى مشت بخطوات متزنة وكريم إلى جانبها، تركت يده ليمضي حرًا دقيقة واحدة، قبل أن تمسكها مرة أخرى وهما عند البوابة، دخلت وتركت بطاقتها الشخصية عند موظف الاستقبال، ثم مشت حيث الغرفة

الواسعة الهادئة، لا أحد هناك غيرها وغير كريم، عادة ينتظرونها حتى تدخل ثم يأتون بإسماعيل.

•••

بعد إيداعه المستشفى كتبت سارة على صفحتها على فيسبوك أن زوجها سافر للعمل في إحدى جامعات بولندا، لم يهتم بكلامها إلا قلة من الأصدقاء الذين بقوا متابعين له في السنوات الأخيرة، لم تتمكن من إلغاء حسابه أو مسح البوست الأخير، ومع انعدام معقولية حكاية بولندا تكلم المعارف قليلًا عنه، متعجبين من الاختفاء المفاجئ، وظن الكثيرون أنه اختفى خائفًا بعد نشر البوست الأخير. ورويدًا رويدًا، انشغل الجميع بأشياء أخرى، ورويدًا رويدًا، لم تعد سارة تهتم بالناس وأسئلتهم، كان عندها كريم وورشتها ومحلها وإسماعيل نفسه لتهتم بهم.

الأسابيع القليلة الأولى كانت مؤلمة جدًا بالنسبة لها، لم تزُر إسماعيل مع أنها كانت على اتصال دائم بطبيبه كل يوم تقريبًا، حتى لم يعد هناك جدوى من الاتصال اليومي، أخبرها الطبيب مرارًا أنه وضع إسماعيل تحت بطانية من العقاقير، تكبل جسده وعقله، هو لا يدرك الآن ما يحدث حوله، يستطيع الحركة لكنه لا يستطيع الهرب، ولا يستطيع حتى التفكير في الهرب، وربما لا يستطيع التفكير في أي شيء. في الشهر السابع أخبرها الطبيب أنها يمكن أن تزوره بعد أيام، طلب أن تأتي ومعها صديق أو صديقة، وعندما

سألته إن كان من الممكن أن تصطحب كريم معها سألها عن عمره، ثم قال لها إن الأفضل ألّا يرافقها، وربما يمكنه ذلك بعد عدة شهور وربما بعد عدة سنوات.

قبل الزيارة الأولى بيوم واحد اتصلت بها مريم، وبعد أسئلة عن الحال وكريم والورشة، أخبرتها أنها علمت أن زيارة إسماعيل صارت متاحة أخيرًا، أخبرتها أن الزيارة الأولى تكون صعبة عادة، يخفِّف من صدمتها المرافقون، وقالت إنها على استعداد لأن تأتي معها إن أرادت. سارة تعلقت بها تعلق طفلة صغيرة، وقالت إنها بالطبع ترحب بها رفيقة في هذه الزيارة وكل زيارة إن أرادت، قالت إنها تعدُّ كل ما فعلته جميلًا لن تنساه أبدًا.

وعلى قدر تماسك مريم كانت سارة منهارة منذ أن دخلت حديقة المستشفى، بكت بصمت حتى إن مريم لم تلاحظ دموعها إلا عند باب المبنى، في الداخل انتظرتا في القاعة الهادئة عدة دقائق، ثم دخل الممرض وهو يرافق رجلًا نحيلًا، بعدما قعد على الكرسي أمامهما صمت الجميع.

كانت مريم تعلم أن شكل إسماعيل قد تغير حتمًا، رأت ذلك التغير يصيب الكثير من المرضى، ورأت التعبير الذي يعلو وجوه أقاربهم عند رؤيتهم أول مرة بعد الغياب الطويل، الصدمة المعتادة التي لا يتوقعها أي منهم، الصدمة نفسها كانت مرسومة على وجه سارة، ولولا استعداد مريم لصُدمت هي أيضًا.

خرجت سارة من المستشفى وهي مصرة على نسيان ما رأت، كانت تدفع عقلها لنسيان وجه إسماعيل النحيل وعينيه اللتين غاب عنهما البريق، صمتت طوال الطريق حتى حضانة كريم، أخذته واحتضنته وعادا إلى المنزل.

قاومت كثيرًا إخبار الطفل بحالة أبيه، وعندما سألها عنه قالت إنه مريض ويعيش في المستشفى بصفة مستمرة، وعندما سألها عن موعد عودته قالت له إنها لا تعلم بالضبط. بعد عدة شهور من الزيارة الأولى اصطحبته معها، ظل الطفل الصغير صامتًا يحدق في الرجل الذي لم يتعرَّف إليه. لم يتكلم إسماعيل كثيرًا، سألته سارة عن أحواله وكانت ردوده مقتضبة.

لم يتغير شيء بعد عشرات الزيارات، مع كل زيارة يقول الطبيب لها إن عليها ألَّا تفقد الأمل أبدًا، وأخبرها أنه رأى حالات أقسى من حالته تعافت مع مرور الوقت والاهتمام والعلاج.

•••

تلك كانت الزيارة رقم أربعين، دخل الطبيب أولًا على غير العادة، وبعد كلمات قليلة روتينية أخذ المفكرة السميكة وقلم الرصاص، مرر إظفر إبهامه على بعد سنتيمترات من طرفه المدبب صانعًا خدشًا عميقًا على محيطه، ثم كسر القلم ليصبح قصيرًا يمكن أن تحتويه الكف. قال لها إن إسماعيل طلب منه قلمًا ومفكرة ليكتب

الأفكار التي تلحُّ عليه، وقال إن هذا سيساعده على فهم ما يحدث داخل عقله، قال إنه متأكد الآن من أن ضلالات إسماعيل تمكنت منه تمامًا، وأن العالم الحقيقي بالنسبة له الآن هو عالمه الذي في عقله، وأنه ربما يرى أن لقاءه بها وبكريم وما حوله من مرضى وممرضين وأطباء هو خيال أو حتى حلم، يراه ويعايشه وقتًا قصيرًا من اليوم، أما باقي اليوم فيعيشه في عالمه. قال إنهم جربوا كل الطرق المعتادة لعلاجه، والمحاولات القادمة كلها تجريبية وغير مضمونة، قال إن عليها أن تتفهم أنهم وصلوا آخر الطريق بالفعل، وأن القادم مجهول تمامًا، قال أيضًا إنه قرأ أبحاثًا كثيرة تؤكد أن هناك عقاقير جديدة ستظهر قريبًا جدًا في اليابان وأمريكا، وسريعًا ستكون في مصر.

عندما أتى إسماعيل لم تلاحظ أي تغير طرأ عليه، الأسئلة نفسها والإجابات نفسها، أكلوا معًا الطعام الذي أحضرته، كريم جائع وإسماعيل غير مهتم وهي بلا رغبة في الأكل، ثم شرب إسماعيل الكثير من الماء وصمت حتى نهاية الزيارة، يمر الوقت وهي تكلم كريم عن كل شيء وفي كل شيء، وتفكر أن أفضل ما حدث أن الولد لا يهاب أباه أو المستشفى، وفكرت أيضًا أنه يستحق أفضل من ذلك كثيرًا، قرب نهاية الزيارة لاحظت أن الرجل حدق في وجه ابنه لمدة طويلة، ورأت لمحة من بريق عينيه القديم اشتعلت للحظة ثم خبت.

تحدثت مع مريم طويلًا عن أنواع العلاج المتنوعة الخاصة بحالة إسماعيل، قالت إن الأطباء جميعًا فشلوا في تسمية المرض، بعض الأطباء يصف ما حدث بـ«الحالة»، بعضهم يقول إن الوصف العلمي هو «فصام»، ثم قالوا إنه يعاني من «عقدة الإله»، ثم غيروا التسمية إلى «متلازمة الإله»، قالت إنها تريد أن تسمع رأيًا موحدًا، فقط كي تخبر كريم بما أصاب والده. قالت إنها لا تفهم حتى الآن ما حدث له، ولا تفهم لِمَ حدث، وبشكل عام لا تفهم لماذا حدث لها ولابنها كل هذا، سألتها: «أليس كل هذا ظلمًا؟». صمتت مريم التي اعتادت أن تجيب عن كل أسئلتها السابقة بحرص. وبعد أن عاد الحديث إلى مجراه الطبيعي طلبت منها سارة أن تفكر كثيرًا فيما ستطلبه منها، قالت إنها بحاجة إلى رفيق في الحياة، شخص تستند إليه هي وكريم، وإسماعيل أيضًا، قالت إنها فكرت في الموضوع كثيرًا عندما لاحظت أن حالة إسماعيل تثبت على وضع معين من دون أن يبدو أن هناك أي تغير قادم، قالت مرة أخرى إن عليها أن تفكر جيدًا في الموضوع، طلبت منها بوضوح أن تأتي ومنال لتعيشا معهما، قالت إن كريم ومنال سيكبران كأخ وأخت، هما بشكل ما أخ وأخت، قالت إنهم جميعًا سيكونون عائلة صغيرة جميلة تعيش في جاردن سيتي.

خلال الأعوام التالية سيترك الطبيب المستشفى وسيتابع

حالة إسماعيل طبيب ثانٍ، ثم سيتركها الثاني ويتابعها ثالث، أطباء كثيرون سيدخلون المستشفى ويمضون خارجين، بينما سيبقى هو داخلها من دون تحسن. سيبدأ كل طبيب جديد بالعلاجات التقليدية ثم يتحول إلى العلاجات التجريبية ثم يتخلى عن الأمل تمامًا، سيكبر كريم ومنال متابعَين لحالة إسماعيل، لن يفهم كريم أبدًا معنى الأمل، بينما ستتخلى كل من سارة ومريم ومنال عن الأمل تمامًا فيرتحن كثيرًا.

أصبح الجميع عائلة صغيرة حقًّا، وكما استقر إسماعيل في حالة واحدة ستستقر عائلته أيضًا، ورويدًا رويدًا ستتعامل معه على أنه شجرة صغيرة موضوعة في المستشفى، يزورونها مرة كل أسبوع ليطمئنوا عليها.

15

يتأمل إسماعيل مجموعة كتبه، يتساءل إن كان هناك من يهتم بها ويرتبها على رف مكتبته مثلما يفعل، يرسم خطًا في عقله يبين تغيره من حال إلى حال، يتردد كثيرًا وهو يمد الخط، لا يعلم أيمده إلى اليمين والأعلى أم إلى اليسار والأسفل، أهو خط أفقي أم رأسي، ويفكر أن كل كتبه ستموت خلال أعوام كما يموت كل شيء، وأن هذا أفضل ما سيحدث له.

يحمل الحقيبة التي أتى بها من المستشفى، فيها نسخ من «تاريخ آلهة مصر»، يتحرك إلى الصالة ليودع مريم، يتساءل لِمَ التمعت هذه الكلمة بالذات مع أنه سيعود خلال ساعات؛ «الوداع» كلمة مضحكة أحيانًا، خصوصًا عندما ترتبط بالأفلام القديمة، لكنها الآن مخيفة قليلًا، يتساءل إن كان سيعود إلى هذا المكان.

أعدت مريم طعامًا له وليوسف، ناولته علبة بلاستيك كبيرة، قال لها:

- لا لزوم لهذا التعب، زيارة قصيرة ثم سنعود.

- لا معنى للنقاش معك، على الأقل خذ الأكل، واشكر يوسف لأنه قبل أن يرافقك إلى هناك، حتى الآن لا أفهم سبب هذه الرحلة.

- منال تقول إن المدينة القديمة أصبحت مزارًا للسياح،

لأكن سائحًا هذه المرة.

- منال زارتها عندما كانت شابة، الشباب اعتادوا أن يزوروا المدينة لكي يشاهدوا بقايا ما حطم آباؤهم.

لا يفهم تمامًا ما قالته، يسألها باستنكار هادئ:

- الآباء مسؤولون عن النيزك؟

ترد باقتضاب:

- الآباء مسؤولون عن الجنون.

لا يجد إجابة، يطرق قليلًا ويقرر أن ينزل لينتظر يوسف في الشارع، يودّعها، يحتضنها، يتحرك نحو الباب ويفتحه، يخرج ويقول بصدق:

- أنا آسف على كل شيء يا مريم.

تبتسم وتقول:

- لا تتأخر لو سمحت، وانتبه للتراب.

يفكر وهو ينزل السلم أن الشيء الوحيد الذي سيظل مرتبطًا بالقاهرة إلى الأبد هو التراب.

يجد يوسف في انتظاره، يركب السيارة إلى جانبه. يقودها يوسف ببطء، يقول إن الكتاب يبيع جيدًا، من المتوقع أن يبيع أكثر مع الوقت، يقول إنه بعد عدة آلاف أخرى من النسخ سيكون هذا أفضل كتب الدار مبيعًا، بعد دقائق يتوقف عن الكلام وينشغل بالطريق، رويدًا رويدًا يقل عدد السيارات المحيطة بهما، ثم تمضي السيارة كيلومترات قليلة وحيدة، تظهر المباني المهجورة حول

الطريق، ثم تظهر القليل من المباني المتداعية، خلال دقائق يظهر الركام، أكوام هائلة على مد البصر، تعلوها طبقة كثيفة من تراب أصفر رملي تظهر تحتها أجزاءٌ من الحوائط والشرفات والشبابيك، تظهر من حين لآخر لافتة محل، حروف أولى أو أخيرة من كلمات لا تحمل أي معنى، يحل صمت جاف عليهما، تثير عجلات السيارة ترابًا أصفر ناعمًا يتسلل إلى أنف وفم إسماعيل، يشعر بالأسفلت وقد صار أخشن من قبل، يسعل قليلًا، يسأل يوسف:

- أين نحن الآن؟

- هنا أول شارع الأزهر، الطريق الذي قدنا فيه السيارة طريق جديد، يقطع المسافة من القاهرة الجديدة إلى هذه النقطة ثم يبدأ الطريق القديم، اسم الشارع الرسمي كان جوهر القائد، أكيد أنت تعرف هذه المعلومات جيدًا.

لا شيء حوله سوى الركام.

تمضي السيارة إلى الأمام ببطء، يرتفع الطريق قليلًا أمامهما، يصعدان ما يشبه تلة صغيرة من الركام والتراب، من موقعه العالي يلمح إسماعيل أكوام الركام ممتدة أمامه بلا نهاية، ينحدران ببطء من التلة، يمضيان حتى يتسع الشارع فجأة ويظهر فراغ كبير إلى يمينهما، يميز إسماعيل أخيرًا جزءًا من سور إلى يمينه، يقول بحماسة:

- هذه حديقة الأزبكية.

لا يعلم لِمَ تحمس.

بعد دقيقة يأخذ الركام طابعًا أكثر انتظامًا، أكوام أكبر كثيرًا من سابقتها، مرصوصة في صفين شديدي الاستقامة عن يمينهما وشمالهما، يبدو لهما أن الطريق انتهى بكومة ركام أمامهما بالضبط، يقول يوسف وهو لا يزال يقود السيارة ببطء:

- إن مللت أخبرني، ما تراه لن يتغير، من يأتون هنا يلعبون لعبة لطيفة؛ يحاولون التعرف على المباني المنهارة والشوارع المجهولة، أنا لعبت اللعبة نفسها عندما كنت آتي هنا لكني مللت بعد مدة، أتعرف ما المبنى الذي أمامنا؟

لا يميز إسماعيل المبنى، لا يميز الشارع نفسه، يقول يوسف:

- هذه سينما ميامي.

تنحرف السيارة ناحية اليسار ويمضي في الطريق المستقيم، بعيدًا يظهر مبنى ضخم لا يزال قائمًا، يشير إسماعيل إليه ويقول:

- عمارة ميخا.

تتوقف السيارة ببطء، يلاحظ إسماعيل التوتر على وجه يوسف، أول مرة يراه متوترًا، يقول يوسف وهو يهز رأسه ببطء:

- مستحيل، أنا رأيت عمارة ميخا تنهار بعيني، هذه عمارة أخرى...

يصمت قليلًا ثم يقول:

- ورأيت كل ما حولها منهارًا أيضًا، هذه العمارة بُنيت حديثًا بالتأكيد، لم أسمع عن أي مشاريع لإعادة إعمار القاهرة، لكن هذه بالتأكيد عمارة حديثة.

تستمر أكوام الركام المنظمة، لا يهتمان بما حولهما وكل ما يريدانه أن يبلغا العمارة الشاهقة البعيدة، تتحرك السيارة مرة أخرى نحو العمارة العالية، تمرق بين كومتي ركام هائلتين، تمضي إلى الأمام حتى تصل إلى أكبر فراغ مرا به، على مد البصر لا يريان سوى السماء الزرقاء وأكوام صغيرة من الركام، تدور السيارة ناحية اليسار إلى أن تتوقف أمام عمارة ميخا، ينزلان منها.

يبدو المشهد لإسماعيل مدهشًا، سماء زرقاء وركام أصفر رملي فقط، حتى الأسفلت مغطى بطبقة من التراب تخفي سواده، وعمارة ميخا مجرد خطوط رأسية شاذة عن المشهد كله، يقترب إسماعيل من العمارة ويسأل يوسف:

- هل تصعد معي؟

ينظران إلى العمارة، هذه عمارة ميخا القديمة بلا أي شك، كل تفاصيل الواجهة الشهيرة بلا أي تغيير، يسأله يوسف:

- إلى أين؟ لا أحد هناك بالتأكيد.

- لماذا لا نجرِّب؟

يقترب إسماعيل كثيرًا من العمارة، يرفع وجهه إلى أعلى، يضع كفيه أمام فمه وينادي بصوت عالٍ:

- يا ميخا...

لأول مرة يلاحظ الصمت المسيطر على المكان حولهما، يجرب مرة أخرى:

- يا ميخا...

يفكر إسماعيل أن وصول ندائه هذا كان مستحيلًا في زمن مضى بسبب الضوضاء المستمرة، ويخيل إليه أنه يسمع أصوات تخبُّط تأتيه من أعلى، ينادي:

- يا ميخا...

يقول يوسف برهبة:

- يا دكتور لا أحد هنا، لا تثقل على نفسك، أرجوك.

يصلهما صوت معدني من أعلى:

- من هناك؟

بلهفة يقول إسماعيل:

- أنا إسماعيل يا ميخا.

- إسماعين مين؟

- أنا الدكتور إسماعيل نوح يا ميخا.

بعد صمت قصير يصلهما صوت ضحكات خشنة متحشرجة، ثم:

- إزَّيك يا خربتو؟

- أنا تمام يا ميخا، وأنت؟

- لا لا، إجابة غلط يا خربتو.

لأول مرة يضحك يوسف، يقول إسماعيل بصوت عالٍ

ظهر عليه التعب:

- الحمد لي...

يصلهما صوت الضحكات الخشنة:

- اطلعلي يا خربتو.

- الأسانسير شغَّال؟

- أسانسير؟ اطلع بالمنطق الإلهي.

ينظر إسماعيل إلى يوسف، يقول بابتسامة صفراء وهو يشير إلى أعلى:

- سيظل دائمًا ابن وسخة.

يسأله يوسف بخوف حقيقي:

- من هذا؟ من الذي يتكلم؟ ولماذا صوته غريب هكذا؟

- يبدو أنه يتكلم بمكبر صوت، هذا ميخا ميخائيل، صديق قديم وشخصية شهيرة أيضًا، ألا تعرفه؟

يبدو الإنكار على وجه يوسف:

- طبعًا أعرفه، مات منذ مدة طويلة، صحيح؟ وهذه العمارة هُدمت، أنا متأكد من أنها هُدمت ورأيت موضعها خاليًا.

- طيب، العمارة قائمة أمامك الآن فلا يمكن أن تكون قد هُدمت، من الواضح أن ما حولها هُدم تمامًا لكنها بقيت من دون أن تنهار لسبب ما، وميخا حي، ربما معلوماتك غلط أو أنك تخلط بينه وبين شخص آخر، وسنصعد سلم عمارته السخيف، تسعة طوابق كاملة، هل ستصعد معي؟

•••

يفاجئهما باب الشقة المفتوح عن آخره، يدخل إسماعيل بحرص بينما يتأخر يوسف قليلًا عنه، ينادي إسماعيل ميخا فيرد من ناحية الشمال.

ميخا على الكنبة وإلى جانبه عكاز معدني لامع، يضحك ويرفع ذراعين نحيلتين طويلتين ناحية إسماعيل، يتبادلان القبلات والأحضان والضحكات العالية، وأول ما يلاحظه إسماعيل كبر سن ميخا؛ شعره سقط بالكامل، طقم الأسنان واضح في فمه، صوته خشن مرتعش، كفاه متيبستان قليلًا وبقع غامقة على ظهريهما، جسده نحيل وأطرافه طويلة جدًا، يقعد إسماعيل إلى جانبه ويتأمل ظهري كفيه وبقعهما الغامقة، يشير إسماعيل إلى يوسف ويعرِّفهما إلى بعضهما البعض، يطلب ميخا من يوسف الجلوس وينظر إلى إسماعيل ويضحك ضحكة عالية جدًا.

يتكلمان عن كل شيء؛ سنوات إسماعيل في المستشفى، شهور ميخا في مستشفى شبيه، القاهرة وما حدث لها، القاهرة الجديدة، يشتكي إسماعيل من رؤيته لكل شيء هناك على شكل خطوط مجردة، يقول إنه لا يجد عمق المنظر الحقيقي. يتكلمان كثيرًا.

يقوم إسماعيل ويدخل عبر الممر إلى الجهة الأخرى من الشقة، ينظر في كل غرفة فلا يرى أي دليل على حياة شخص آخر، هناك فقط أشياء ميخا في غرفة نومه، أما

باقي الغرف فمملوءة بصور وأشياء قديمة وكتب كثيرة وبوسترات أفلام مصرية، بعضها مفرود على الحوائط والكثير ملفوف داخل أسطوانات كرتونية، هناك الكثير من الأثاث القديم والمهمل، يميز إسماعيل كومود صغيرًا كان موجودًا في شقة جاردن سيتي، يتذكَّر أنه باع غرفة نومه القديمة إلى ميخا بعد انفصاله عن مريم، لسبب ما يحزنه منظر الكومود المهمل.

يمضي في الممر وخلفه يوسف، يسمع تعليقه على الصور الفوتوغرافية المنتشرة على حائطي الممر، معظمها يظهر مئات في الشوارع وعلم مصر يتكرر بكثرة، يسمع تعليقًا آخر عن العلم القديم الذي تغير، والجدل الذي صاحب تصميم واختيار العلم الجديد، يدفع الفضول إسماعيل لسؤاله عن ألوانه، لكنه يتراجع لأن الأمر غير مهم. يفتح الباب في منتصف الممر ليجد أن الحمَّام قد تغير، تم تجديده منذ مدة طويلة وصار قديمًا الآن، يتذكر غضب ميخا قديمًا عندما لاحظ أن كل من يتبول في الحمَّام لا يهتم بنظافته بعدما ينتهي. يبتسم.

في نهاية الممر الجزء الأخير من الشقة الواسعة، يجد الكنبة القديمة نفسها على الشمال، يقعد عليها ويشير إلى الإطار الكبير المثبت على الحائط أمامه، يسأل يوسف:

- ما هذا الإطار؟ أيمكنك أن تخمِّن؟

يرد يوسف ببطء ذاهلًا:

- آه، إطار لوحة كبيرة؟ مجرد ديكور على الحائط؟ لا أعرف، كل شيء هنا مربك جدًا.

- هذا باب، أتعرف ما خلفه؟

- لا، هل يمكنني أن أفتحه.

- افتحه إذن.

يحرك يوسف الباب بعيدًا عن الحائط أولًا، ثم يدرك أنه من النوع المنزلق، مكون من جزأين كبيرين، يحركهما بعيدًا عن بعضهما بموازاة الحائط، يكتشف أن الباب يفتح على الفراغ خارج العمارة، يقول:

- هذا آخر جدار في العمارة، إن فتحته بالكامل سنرى ما بالخارج.

- زمان كان هذا الباب مدخلًا إلى باقي الشقة، يكتشف الداخل أن الجزء الباقي أكثر اتساعًا من هذا الجزء، كان هذا يثير تعجب كل من يمر عبره، افتحه.

يفتح يوسف الباب بالكامل، ينظر إسماعيل إلى أكوام المباني المنهارة، تنتشر على مد بصره بلا نهاية، يأخذ نفسًا طويلًا، يظل الهواء حبيس رئتيه دقيقة، يخرجه دفعة واحدة ويسأل يوسف بوجه جامد وعينين مرتعبتين:

- ماذا حدث؟

- يبدو أن جزءًا من العمارة انهار، ولم يتبقَّ إلا ما نحن فيه.

- ماذا حدث؟

من على الكنبة يتأمل الأكوام الصفراء الممتدة حتى الأفق، غشاوة رقيقة من تراب عالق في السماء تزداد كثافة كلما ابتعدت، وتضيف غموضًا على الأكوام، يخيفه الصمت المحيط بهما، تبدو الأكوام لعينيه قريبة للغاية، لو مد يده لأمسك بأحدها، يرتخي جسده، يستسلم تمامًا، يسمع صوت يوسف يسأله:

- متى تريد أن تعود؟

يتأمل إسماعيل المنظر من الباب المفتوح عن آخره، زرقة السماء تشغل الثلثين، صفرة الأكوام الثلث، ألم خفيف يصيب ظهره. يقول:

- الآن

خاتمة

المكتب الإلهي خالٍ من حولنا، ثمة ألم خفيف في ظهرنا، خفيف لكنه غير معتاد، هذه أول مرة نغفو ونستيقظ، السيجارة لا تزال مشتعلة في يدنا، نقوم من على الكرسي وننظر إليه ثم إلى السيجارة ثم نترك بقيتها تسقط، لا بد أننا غفونا لحظة واحدة.

نتذكر حلمنا القصير، جولة لطيفة وسط المصريين، ما يشعرنا بالأسى أن هنالك الكثير من الآلام والقليل من الأحلام، هنالك أيضًا الكثير من القلق والتوتر، كل هذا نتيجة تلك الأشياء التافهة التي يهتم بها المصريون ويهتم بها البشر عمومًا. تلك الرحلة القصيرة أرتنا المصريين عن قرب شديد، هم كائنات ضعيفة للغاية، الفارق بين عقولهم وعقلنا هائل، نحن نحزن لأنهم بؤساء إلى هذه الدرجة.

نمشي قليلًا مبتعدين عن موضع غفوتنا، المكتب الإلهي نفسه في حالة بائسة، والسجادة على الأرض في حالة اهتراء تزداد كلما خطونا بعيدًا عن الكرسي، الباب نفسه انهار عندما لمسناه، والأثاث خارج المكتب كله متآكل ومنهار على الأرض، لا نجد أي كرسي أو طاولة قائمة، بل نرى بقايا كرسي أو قوائم طاولة متآكلة، يزداد خراب كل شيء نمر به إلى أن نصل إلى موضع بوابة القصر فلا نجدها، ولا نجد حارسنا عندها لكن نرى بقاياه على الأرض؛ قطعة قماش مهترئة تمامًا وبقايا جمجمة وعظامًا قليلة

جدًا، نتلفت حولنا فنرى أن كل ما حول القصر اختفى، الفراغ حولنا مقسوم إلى قسمين، ثلث أسفل أصفر وما أعلاه أزرق، لم يعد هناك أي شيء أو أي صفة سوى هذين اللونين، هذه خامة مصر الجديدة غير مشكّلة، ونحن سنشكلها على مزاجنا الخاص.

نتذكر كل ما كان قبل غفوتنا؛ طيراننا في السماء وتدمير التاريخ السابق علينا، نتذكر مزارعنا وأشجارنا وفواكهنا، نتذكر شِعرنا ولغتنا، نتذكر سيطرتنا على المصريين، وبالطبع نتذكر حروبنا المطلقة نحن **خربتو المطلق**، نحن استطعنا تغيير كل ما حولنا، أنهينا كل حركة، أفنينا كل موجود.

نتذكر أيضًا حلمنا اللحظي، وآلام المصريين؛ مريم وسارة ومنال وكريم ويوسف وميخا ويعقوب، كل هؤلاء الغلابة، نتألم لأنهم يعيشون عيشة الصراصير وسيموتون ميتة الصراصير.

لكننا لن نيأس، سنبني مصر بشكلها الجديد، سنجعل المصريين يفكرون بطريقة منطقية رياضياتية، وبالتالي سيعيشون حياة أطول قليلًا على الرغم من نهايتهم المحتومة، سنكون حريصين على أن تكون الصراعات أعنف، والأحلام أجمل، وخيبات الأمل أقل، كما سنحرص على أن تكون المعاناة أشد، فكلما اشتدت معاناة المصريين ازدادت قدرتهم على احتمالها.

والآن، بالمنطق الإلهي، نبدأ بناء مصر مرة أخرى.

القاهرة

يناير 2017 - يوليو 2019

شكر وتقدير

للزملاء والأصدقاء والأحباب، كل من قرأ المخطوطة وأبدى رأيًا: حسن ياغي، مروة المليجي، رشا عودة، أحمد ناجي، أحمد وائل، فاروق عادل، ياسر عبد اللطيف، سيف سلماوي، أحمد عوني، هيثم يحيى، إسلام أبو العز، محمود عاطف، أحمد أسامة، محمود عثمان، نائل الطوخي، أحمد ندا.